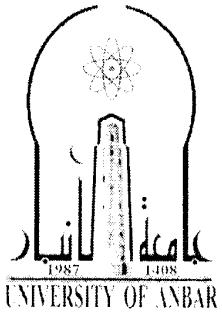

الزمن في شعر ابن الرومي

رسالة تقدم بها
رائد عكلة خلف
إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية/
جامعة الانبار وهي جزء من متطلبات لنيل درجة
الماجستير في اللغة العربية وآدابها

اشراف الدكتور
جاسم محمد جاسم

٢٠٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمين، وخاتم المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله الغر الميامين وأصحابه الطيبين الطاهرين .

ثم أما بعد :

فما من دارس للأدب العربي ، إلا ويشعر بسطوة العصر العباسي على هذا الأدب ، لما له من دور عظيم وحضور مشرف ، إذ هو قبلة للعلم والآداب والمعرفة ، جعلنا نفتخر به ونشير إليه ، من هنا كانت الرغبة جامحة في أن تكون دراستي في هذا العصر، من خلال الوقوف عند علم من أعلامه ، ألا وهو (ابن الرومي) وتقصي ظاهرة (الزمن) في شعره.

فبعد الإتكال على الله تعالى ، ومستنيراً بما سبق من دراسات في هذا الميدان ، والتي كان لها دور كبير في توجيه الباحث ، واغناء المادة العلمية للبحث ، وذلك لصلتها القريبة بالموضوع ، كالزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ، والزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي ، والزمن في الأدب ، والزمان في الفكر الديني والفلسفي ابتدأت رحلة بحثنا مع الزمن في شعر ابن الرومي .

وعلى أساس أن الموضوع يرتبط بالإنسان – الشاعر – فقد آثرت أن أتناوله من عدة جوانب تهتم بمواقفه وأفكاره وميوله ، لذا كانت هذه الجوانب هي علاقاته الاجتماعية ومواقفه من الزمن ورموزه ، وقد توزعت خطة البحث على مقدمة و تمهيد وثلاثة فصول تعقبها الخاتمة ، ثم قائمة بأسماء المصادر والمراجع .

فكان التمهيد إضاءة لمفهوم الزمن من خلال ما تناوله من جوانب مختلفة ، جاءت بمثابة الأساس النظري الذي سرنا عليه في بحثنا ، وليفصح عن مدلولات الزمن وأثره عند الشاعر على وفق تقسيم رأيناه مناسباً بعد أستقراء دقيق لأشعاره .

وقد تناولنا في الفصل الأول إشكالية الزمن في شعر الشاعر ، بأربعة مباحث تمثلت في ألفاظ الزمن الصريحة ، وما تحمله من قيم ودلالات متنوعة ، والزمان والدهر وأثرهما على الشاعر ، وقد كان لمبحث زمن الشباب والشيب دور في بيان هذه الإشكالية ، لأنه يمثل مرحلتين مهمتين كان لهما بالغ الأثر في حياة ابن الرومي ، واستكمالاً لهذا الفصل ختمناه بالشكوى والتي جاءت خير منفس عما ضاق به صدر الشاعر من ألم ومعاناة .

ويأتي الفصل الثاني ليكون محورا للرؤى الزمانية ونظرة الشاعر، وفيه تحدثنا عن الاغتراب بوصفه ظاهرة زمنية تولدت عن صراعات جادة وتناقضات مختلفة ، استطعنا من خلالها أن نجمع شتات الشاعر بين التوحد والتفرد ، ثم انتقلنا إلى التشاؤم لكونه يمثل مدخلاً مهما لفهم زمنية الشاعر ، ونظرته الخاصة إلى الوجود ، ولم يغب عن الباحث أن يكون للمرأة دورٌ مهمٌ في استبيان ما يعانيه الشاعر مع الطرف الآخر(المرأة) ؛ لأنها تمثل الحياة عند شاعرنا ، ويختم هذا الفصل بحثه ، بدراسة الحياة والموت وموقف الشاعر منهما ، وكيفية تعامله معهما .

ثم تناولنا في الفصل الثالث التشكيل والأطر الفنية للزمن ، حيث الصورة والموسيقى ، ففي الصورة ركز البحث على ركنيين أساسيين من أركانها ، هما الخيال والعاطفة ، لما لهما من الأثر ما يجعل العمل الفني أكثر إبداعاً وتألقاً ، ففي إطار الخيال وجدنا أن نلم بعناصره من تشبيه واستعارة وكناية كرمز واضح للتعبير عن مكنون الشاعر ، ولتكون الصورة أكثر تأثيراً لدى المتلقي ، جاءت العاطفة كقيمة فنية خرجت من القلب ، لتضفي على العمل تلك الميزة الإبداعية .

ولكي يتحقق الانسجام أكثر في هذا الفصل انتقلنا من الصورة إلى الموسيقى ، لاسيما وهما يشتركان في عنصر أساسي وهو اللفظ ، وفيها وقفنا عند اللفظة والإيقاع ، ممثلة بالتكرار الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع الزمن ، لما للتكرار من أثر في تجربة الشاعر .

وأخيراً ، لا يخفي الباحث المشكلات والمعوقات التي تعرّض لها " فما جاء عن أصله لا يُسأل عن علته " ففي تجاوزها يكون الباحث قد صنع بحثه . فأن نالنا التوفيق فهو من الله سبحانه ، وإنْ قصّرنا في بلوغ المراد فعزاؤنا أننا حاولنا وبذلنا جهداً نحسبه خالصاً . والله من وراء القصد .

د. رائد عكلة الدليمي

التمهيد

الزمن هذه المادة المعنوية المجردة التي يتكون منها إطار كل الحياة ، وحيز كل فعل ، وهو موضوع اهتمام الإنسان منذ أن بدأ يتفكر بالكون ووجـوده إلى يومنا هذا ، فأختلف التفكير فيه وتحكمت عدة تصورات في النظر إليه ، ودخلت مفاهيم كثيرة في تفسيره حسب الزوايا المنهجية المختلفة .

وقد ارتأينا أن ندرس هذه الظاهرة محاولة منا في خلق رؤيا متأصلة عن مصير الإنسان – الشاعر – ومواجهته لهذا الزمن الذي هو بلا شك خلاصة تجاربه الماضية وبيان أثر ذلك في شعره ((فليس ثمة غرض شعري إلا وكان لهاجس الزمن فيه اللون المتألق والفعل المتميز)) [1] .

وقبل الولوج في الحديث عن تقسيمات الزمن عند ابن الرومي ، وجدنا أنه من الضروري أن نعرّف بالزمن ، مع بيان أثره في الفكر الديني والفلسفي ، ثمّ نوضح أثره في الأدب لنكوّن مدخلاً نلج من خلاله إلى أثر الزمن عند الشاعر موضوع دراستنا .

الزمن لغة وإصطلاحاً

(1) الزمن عند الشعـــراء العرب قبل الإسلام ، عبد الآلـه الصـائغ ، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ، ١٩٨٦ / ٧ .

جاء في الصحاح أن لفظة الزمن تعني: ((اسم لقليل الوقت وكثيره ، ويجمع على أزمنة وأزمان وأزمن ، ولقيته ذات الزمين ، نريد بذلك تراخي الوقت كما يقال : لقيته ذات العويم أي بين الأعوام)) [٢] .

أما في مقاييس اللغة فإن لفظة الزمن ((تدل على وقت من الوقت ، من ذلك الزمان وهو الحين ، قليله وكثيره ، يقال زمان وزمن والجمع أزمان وأزمنة)) [٣] .

وفي لسان العرب:–هو اسم لقليل الوقت وكثيره .. وقال شمر : الدهر والزمان واحد ، وقال أبو الهيثم : ويكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر قال : والدهر لا ينقطع [٤] .

يتضح لنا فيما سبق أن الزمن والزمان يستعملان في معنى واحد في أغلب المعجمات ، وهو اسم لقليل الوقت وكثيره .

أما إذا أردنا أن نحدد هذا المفهوم إصطلاحاً ، فإننا وجدنا صعوبة في ذلك وربّ سائل يسأل ما السبب ؟ فنجيب أن للزمان معناه المتداول المعروف . ولكن حالما ينقله الإنسان من طور المعرفة المألوفة والاستعمال اليومي الشائع إلى معناه وراء ذلك ، أو لنقل بالمعنى الفلسفي يجد نفسه في متاهة ، لإن للزمن مباحث متنوعة مثل الكون والأزل والمذاهب الوجودية والطبيعية والنفسية ، بحيث يجد الباحث نفسه لا يؤرخ لموضوع الزمان في المدة التي يدرسها فقط ، بل ولموضوعات أخرى كالحركة والعلاقة بين الزمان والوجود وكذلك الزمان أو النفس وغيرها [٥] مما يجعل تعريفه يبدو غامضا ومعقدا ، ولأجله يقول القديس (أوغسطين) : عندما لا

---

(٢) الصحاح : مادة (زمن) ، للجوهري : أبي نصر إسماعيل بن حماد(٣٩٣ هـ) ، تح : أحمد عبد الغفور عطار ، مطبعة دار العلم للملايين ، ط٤ ، بيروت ، ١٩٨٧ .

(٣) مقاييس اللغة : ابن فارس أبو الحسن ، أحمد بن فارس بن زكريا(٣٩٥ هـ) ، تح : عبد السلام محمد هارون ، مطبعة مصطفى البابي ، مصر، ١٩٧٠ ، ٣/ ٢٢ .

(٤) ينظر : لسان العرب : مادة (زمن)، لابن منظور جمال الدين محمد الأنصاري (٧١١ هـ)، تح : علي عبدالله الكبير وآخرين ، دار المعارف ، مصر،(ب – ت) .

(٥) ينظر: الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم ، حسام الدين الآلوسي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٠ / ١١ .

أسال السؤال فأنا أعرف الإجابة ، فإذا سألت عن تعريف الزمن تحيرت ولم استطع الإجابة [٦] لذا فليس من الغرابة أن يختلف الناس في قضية الزمن وفي تعريفه ، ولعل هذا الأمر هو الذي دفع عبد الرحمن بدوي أن يعده ((مشكلة شغلت تفكير الإنسان منذ ابتدأ وعيه ، لما للزمان من تأثير هائل أحس به في نفسه وفي العالم المحيط به)) [٧] .

لذلك نجد أن تعريفاته قد صعبت ، لأنه مفهوم متشعب ومتداخل في حركة الإنسان ووجوده ، وهذا ما جعله يفتقر إلى تعريفٍ دقيق ؛ ((بسبب ما فيه من الغموض والميوعة والنسبية ما يجعله عصياً على الفهم))[٨] إلا أنه ومع ذلك فقد تعددت مفاهيمه واتسعت ، تبعاً لمجالات تناوله فهناك الزمن الطبيعي أو الموضوعي والزمن الذاتي أو النفسي .

الزمن في الفكر الديني والفلسفي

منذ أن بدأ الإنسان يسعى على سطح الأرض ، أخذت الأفكار تراوده في حقيقة الوجود، لذا راح يتأمل هذا الكون ويطيل النظر فيه وبما يجري به من التغيرات ، وهو في((حيرةٍ من تقييم وجوده الآني ودهشته إزاء هذه المتغيرات التي تحوطه وتمثل كيانه)) [٩] .

وكان أكثر ما أثار حيرته ودهشته هو إستسلامه وإنخذاله لحتمية الفناء ، الذي كان ((باعث التساؤل والبحث عن الخلود ، وهو الاستعلاء على حالة التغير

---

(٦) نقلاً عن الزمن في الرواية الليبية ، فاطمة سالم الحاجي ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ، ليبيا ، ط١ ، ٢٠٠٠/ ١٦ .

(٧) الموسوعة الفلسفية ، عبد الرحمن بدوي ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، ط١ ،١٩٨٤/ ٥٥٥ .

(٨) الزمن التراجيدي في الرواية المعاصرة ، سعد عبد العزيز ، مكتبة الأ نجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ / ٣٥ .

(٩) مفهوم الزمن في الأساطير والمأثورات الشعبية، دراسة انثولوجية (بحث) ، صفوت كمال ، مجلة عالم الفكر م ٨ ، ع ٢ ، وزارة الأعلام الكويتية ،١٩٧٧/ ٢١٢ .

في زمن الإنسان))[١٠] لذلك كان لأثر هذه التغيرات التي تطرأ على مظاهر الأشياء بفعل حركة الفلك ، أن جعلت من الإنسان يطلق أسماً شاملاً مرادفاً لمعنى الوجود أطلق عليه اسم (الزمن) ومن هنا ظهرت التساؤلات الكثيرة في معنى الزمن وعلاقته بالوجود وعلاقته بخالق الوجود[١١] حيث ذهب الفلاسفة إلى القول بأنه : ((لا وجود إلا بالزمان والزمان سر التناهي ، فكل وجود لفناء ، ولكن الفناء تحقق الإمكان وكل تحقق فعل ، والفعل هو الخلق فالتناهي إذن خلاق))[١٢] وهذا يعني أن الزمان مظهر من مظاهر الكون ، لذلك كانت العقائد الدينية الإغريقية القديمة تنظر إلى الزمان في ((صورة ثعبان له ثلاثة رؤوس أو فروع أو وجوه ، مما يعني أن هنالك تصوراً رمزياً لتغير الزمان ، ولأقسامه الماضي والحاضر والمستقبل))[١٣] .

كذلك جسدت الديانة الرومانية الزمن في جملة معبودا تهم فنحتوا له تمثالاً ... وأسموه زحل [١٤] وأيضا كان للديانة اليونانية ((إهتماماً بالزمان كقوة طبيعية إلهية شاركت جزئياً حيناً ، أو كان لها الدور الرئيس حيناً أخر في ظهور الأشياء كلها ، ولكننا لا نجد تصوراً فلسفياً أو تجريدياً)) [١٥] .

ولو أننا أردنا أن نكشف النقاب عن موقف الفلاسفة من الزمن بشيءٍ من الإيجاز ، لوجدنا أنه ليس هناك ثمة اتفاق بين المذاهب الفلسفية والعقلية ، بخلاف الفكر الإسلامي فقد كان واضحاً ومحدداً .

فأما المذهب الطبيعي الذي من أبرز أقطابه (أفلاطون ، أر سطو ، القديس أوغسطين) فقد كانت نظرتهم إلى الزمن قائمة على أساس الحركة والتغير ، وأنه

---

(١٠) م . ن : ٢١٣ .

(١١) ينظر : الزمن في الأدب ، هانز ميرهوف ، ترجمة ، سعد رزوق ، مطبعة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٢/٩٠ .

(١٢) الزمان الوجودي ، عبد الرحمن بدوي ، ط٣ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٣ / ١٥٣ .

(١٣) في فلسفة الحضارة الإسلامية ، د. عفت شرقاوي ، ط٢ ، بيروت (ب - ت) /٢٥٦ .

(١٤) ينظر : الزمن في الرواية الليبية /١٧ .

(١٥) الزمان في الفكر الديني والفلسفي /٤٢ .

مرتبط بزمن الإنسانية ، وأن صورة الماضي والمستقبل قائمة على صورة سرمدية أبدية ، أما الحاضر فلحظة موهومة مجردة [١٦] .

في حين ذهب أنصار المذهب اليوناني والذي يمثله (كنت ، نيوتن ، هيدجر) إلى أن الزمن قائم على أساس صورة الحدس وربطه بالفكر في إدراك الزمن ، كما يراه (كنت) [١٧] أو يكون قائماً على أساس (المطلق أو النسبي) كما عند نيوتن [١٨] أو يكون مرتبطاً بالوجود الإنساني ، كما عند هيدجر [١٩] .

ويأتي الفكر الإسلامي ليكون واقعياً في تحديد قضية الزمن ، حيث فرق الفلاسفة بين ضربين من الوجود هما المتزمن ، واللامتزمن ، وربطوا بينهما ربطاً فلسفياً خالصاً يقوم على العلاقة بين المخلوق والخالق ، النسبي والمطلق ، ومن هنا فقدت فكرة الزمان في الضمير الإسلامي كل ما تعلق بها من معاني المشقة والألم والنقصان ، كما تصورها الفلاسفة القدامى أو كما يميل إلى وجودها الفيلسوف الحديث [٢٠] .

وبذلك يكون الزمن عند المؤرخ المسلم ليس عدواً ولا صديقاً ، إنما هو مجال لمغالبة أهوائنا وتنظيم أفعالنا ، وهو متوال لا يعدو ، إلا أن يكون إطاراً يمكننا أن نملأه بالأعمال الخيرة تحسباً لزمن آخر هو زمن البعث والنشور [٢١].

---

(١٦) للتوسع في أراء المذهب الطبيعي حول قضية الزمن ، ينظر الموسوعة الفلسفية /١١١، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، الزمان الوجودي /٥٥، ٦٥ ، ٥٧ .

(١٧) ينظر : مفهوم الزمن عند الطفل ، (بحث) ، سيد محمد غنيم ، مجلة عالم الفكر المعاصر ، وزارة الأعلام الكويتية ، م ٨، ع٨، ١٩٧٧ /٧٢.

(١٨) المطلق : هو الزمن الحقيقي الرياضي وهو القائم باسم المدة ، أما النسبي فهو المستعمل في الحياة اليومية على هيئة ساعات وأيام وشهور ، ينظر الموسوعة الفلسفية /٥٥٧ ، والزمان الوجودي /١٠٠ .

(١٩) الزمن في المذهب الوجودي عند مارتن هيدجر (بحث) ، عبد الرحمن بدوي ، مجلة عالم الفكر ، وزارة الأعلام الكويتية م ٨ ، ع ٣ ،١٩٧٧/ ١٨٩ .

(٢٠) ينظر : في فلسفة الحضارة الإسلامية /٢٥٦ .

(٢١) ينظر : الزمن في الرواية الليبية/٢٥ .

الزمن في الأدب

مما لا يقبل الشك أن الزمن في الأدب يأخذ حيزاً كبيراً ومتشعباً ، لأنه زمن إنساني يدخل في نسيج الحياة الإنسانية ، ويعبر عن كوامنها ومكوناتها [٢٢] وهذا يعني أن العلاقة القائمة بين ظواهر الحياة والواقع المعاشي هي محور هذا الزمن .

فالأدب ، ما هو في الحقيقة إلا بناء زماني يتحرر من الزمن وينطلق من إساره ، فهو تسجيل وتشكيل للحظاتٍ ووقائع تكاد تفلت من الإنسان بفعل الزمن ، لذلك يبرز دوره كونه يعمل على تخليد هذه الإعمال الأدبية ويجعلها حاضرة دائماً على مدى الأجيال ، وعليه يعتبر التشكيل الفني تشكيلاً ننتصر به على النسيان والفناء والضعف والقهر ؛ لأن ما يضيع من فعل الزمن ليس مجرد لحظات وإنما يضيع الوجود نفسه [٢٣] .

لذلك لم يعد مفهوم الزمن في الأدب كما في الدراسات النقدية القديمة ، يقف في أحد الاعتبارين أما ((حقيقة واقعية خارجية ، وأما هو حقيقة ذاتية يتضاءل وجودها الخارجي المستقل))[٢٤] إنما هو نسيج يعبر عن الحياة الإنسانية بكاملها .

وهذا يعني أن محاولة الكشف عن معطيات الزمن في الحياة أمر يعود إلى وظيفة الأدب على سبيل المحاكاة [٢٥] أو ما يسميه القرطاجني بـ ((التخييل الشعري)) [٢٦] لذا فإن علاقة الشعر بالزمن علاقة أكيدة ؛ لأن الشعر هو الفن الذي يستطيع أن يعبر عن أبعاد الزمن بشمولية أكبر ، لاسيما وأن الشعر يتصف

---

(٢٢) ينظر : الزمن في الأدب ، ميرهوف /١٦ .

(٢٣) ينظر : الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي ، د . حسني عبد الجليل ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨/ ١٨ .

(٢٤) اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، د. إحسان عباس ، سلسلة كتب عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٧٨ /٨٤ .

(٢٥) ينظر : الزمن في الأدب / ١٦ .

(٢٦) ينظر : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لأبي الحسن حازم القرطاجني (ت٦٨٤ هـ) ، تح :محمد الحبيب خوجه ، دار الكتب الشرقية ، تونس ،١٩٦٦ /٩٨ وبعدها .

بصفة الفعل الإنساني ، فأرتباط التعبير عن الرؤيا الشاملة للزمن ، ارتباط مباشر وصريح وفيه دليل واضح على يقظة وعي الشاعر لحركة الزمن ومحاولتها الرؤية لتوجيه دفتها عبر الأبعاد الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل [٢٧] .

ولما كان الأدب يمثل إعادة تكوين للوجود الإنساني ، فهو من هذا المنطلق يمثل نوعاً من التخليد لهذا الوجود [٢٨] لذا نرى الشاعر يكون دائماً على وعي بأن شعره ونتاجه الفني يبقى ويستمر من بعده على مر الأجيال ، وقد عبرت عن ذلك الخنساء ، بقولها :

وَقـافيةٍ مثلَ حـَـــــــدّ السّنـــــا ن تبقى ويهلكُ منْ قالهـــَـــــــا[٢٩]

وبعد هذا الموجز التعريفي بالزمن ، فنجد لزاماً علينا أن نطوف في زمن شاعرنا –موضوع الدراسة – فكما أن الشاعر يعيش في مجتمع فيه من الصلات والروابط والنسب وأواصر الصداقة والمحبة ، فإنه كذلك ونتيجة لتفاعله في هذا المجتمع فلابد من وجود الخصم الذي يتألم بسببه الشاعر ، ليرى نفسه منبوذاً ، فيشعر بالغبن والكراهية تبعاً لحالته النفسية وهذا حال ابن الرومي ، لذا سيكون تقسيمنا لأزمنة الشاعر على وفق ما أحصيناه من أبيات شعرية تحدثت عن أثر الزمن عنده ، ليكون هذا التقسيم باباً نلج من خلاله إلى شخص هذا الشاعر ، كيف كان يعيش ؟ وكيف كان إحساسه وهو يبتعد عن الناس ؟ بل إن الآثار تكون أعمق إذا ما ابتعد عنه الناس ، إلى سبيلنا نمضي والتوفيق من الله .

الزمن الموضوعـي

ونعنـــي به الزمن الطبيـعي أو الميقـاتي ويطلـق عليـه أحيـاناً (بالفيزيائي) [٣٠] أي هو الذي يمكن لنا قياسه بوحدات الزمن المعروفة الثواني ،

---

(٢٧) ينظر : مفهوم الزمن الدرامي في الشعر العربي المعاصر (بحث) ، محمود جابر عدس ، مجلة الأقلام ، العدد (٨-٩-١٠) ، ١٩٩٦ / ٢٢ .

(٢٨) ينظر : الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي / ١٨ .

(٢٩) ديوان الخنساء ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، ط٨ ، ١٩٨١ / ١٢٧ .

(٣٠) ينظر : الزمان الوجودي / ١٤٧ – ١٤٨ .

والساعات ، والأيـام ... الخ ((فأحياناً كانت الأرض والقمر يدلاننا على الزمن القمري ، وأحياناً أخرى الأرض والشمس يدلاننا على الزمن الشمسي)) [٣١] .

وعلى أساس هذا الزمن تسير حركة الحياة التي لا تتوقف عن الحركة والجريان قدما نحو الأمام ؛ لكونه ((زمن كوني مطلق ، مرتبط بحركة المجموعة الشمسية ويتعاقب في حركة دائرية))[٣٢] لذا فهو مغاير عن السكون والجمود ، فهو دليل الحركة والتفاعل ، وأن وجود هذه الحركة والتفاعل هو تعبير عن الحياة ، ولهذا قيل : إن الزمن هو الحياة والحياة هي الزمن [٣٣] .

ويتميز هذا الزمن بأنه تام الموضوعية بمعنى أنه يعتمد على حركات مستقلة في انتظامها لا علاقة لها بالخبرة الإنسانية ، أي هو زمن واحد ، إلا أن المتعذر هو إدراكنا إياه ، فكل منا يقتطع جزأه من الزمان ، فلا يكون قد أدرك الزمان كله ، ولذلك فإن الموضوعية في الزمن تكمن في عدالته ((فهو معيار لا يطاله تفسير ضمني أو تأويل فكري ، وهذه العدالة الكامنة في جوهر الزمن ، هي التي تجعله معياراً مقبولاً للحكم على نوعية الأداء ، تأكيداً للحقيقة في أنه يمتنع على التطويع ويرفض التحيز)) [٣٤] . وهذا الذي دعا ميرهوف إلى القول: ((إن خبراتنا الخاصة تشكل أساسا ضعيفاً لقياس الزمن بموضوعية فهو تارة يمر بسرعة ، وطوراً ببطء ونحن تارة نعي في عمق كل ثانية تدق ، وطوراً يبدو علينا النسيان التام أو اللاوعي بمرور الزمن)) [٣٥] .

---

(٣١) الزمن في الأدب / ١٨ .

(٣٢) الزمن الروائي (بحث) ، د . إبراهيم جنداري ، مجلة الموقف الثقافي ، ع ٢٧ ، ٢٠٠٢ /٧٢ .

(٣٣) ينظر : الزمن إبعاده وبنيته ، عبد اللطيف الصديقي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٥ /١٢٤ .

(٣٤) الزمن وحركة الحياة (مقال) ، د . باسل البستاني ، مجلة أفاق عربية ، سنة ١٢ ،ع ١٢ ، كانون الأول ،١٩٨٧ /٦٢ .

(٣٥) الزمن في الأدب / ١٨ .

وبما أن لكل إنسان زمنه الخاص به يتلون مع نفسيته وينسجم مع ذاته ، فهذا يعني أن للزمن الموضوعي دلالات معينة تتخذ طابع الرمز، هذا فيما يخص الإنسان بصورة عامة ، فكيف يكون الحال بالشاعر المرهف الأحاسيس ...؟ إنه بلا شك سيتعامل مع هذا الزمن تعاملاً نفسياً . فأجزاء اليوم الواحد الموزعة على النهار والليل ، وعلى الصباح والمساء أو السحر أو الفجر ، تمثل لديه استدلالاً لحالة مستنبطة يفهمها بلغة خاصة ويعبر عنها بلفظة خاصة [٣٦] .

وشاعرنا – كما سنرى – تمثلت لديه هذه الدلالات ، فجاءت معبرة عما يختلج في كوامنه ومتلونة مع نفسيته التي غلب عليها طابع التشاؤم المفرط الذي بات يفتقد إلى معنى الأمل .

الزمن النفسي

إن ما نعنيه بالزمن النفسي ، هو مفهوم الزمن الذي ينبثق من داخل الذات ومن أعماق أحاسيسها ومشاعرها . وقد أطلق عليه أحد البـــاحثين ، ((بالزمـــان الدهري) وعرفه: ((هو كل ما تناول العلاقة بين الشاعر وبين الدهر أو القدر أو الموت أو المصير أو البقاء أي ما فرض على الشاعر من ذلك الكون)) [٣٧] .

والزمن النفسي يختلف عن الزمن الموضوعي ؛ لأنه لا يمكننا قياسه ((فكل لحظة تتثال في وعينا إنما تختلف من ناحية الكيف عن اللحظة التي تليها ، الأمر الذي يتعذر علينا أن نقيس هذا الوعي كمياً أو نقوم بتفسيره ، على أساس أنه حالة من الحالات الشعورية التي يتراكم بعضها فوق بعض))[٣٨] .

ولهذا يمكن القول : بأن الزمن النفسي هو زمن إنساني داخلي ، لكونه ذلك المحرك الخفي لمشاعرنا ، كالفرح والحزن والقلق والضجر والطمأنينة والانتظار .

---

(٣٦) ينظر : نقد الشعر في المنظور النفسي ، د . ريكان إبراهيم ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٨٩ /٨٧ .

(٣٧) الزمان والمكان وأثر هما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره ، د .صلاح عبد الحافظ ، دار المعارف (ب- ط) ،١٩٨٢ ،التمهيد١/ و.

(٣٨) الزمن التراجيدي في الرواية المعاصرة /٣٤ .

لذا فهو يثيرنا ويجعلنا ننفعل بإيقاعه الذي يبدو بطيئاً خافتاً حيناً ، وقد يزداد وقعه حدّة وعنفاً حيناً أخر وعندئذٍ نتحول في ضوء الزمن إلى حالات شعورية يمكن تفسيرها تفسيراً كيفياً [٣٩] بمعنى أن الزمن متلون مع الحالة الوجدانية التي نمر بها ، فقد يتبادر إلينا في بعض الأحيان شعورٌ بطول الزمن وقصره ، ويتمثل ذلك واضحاً عند إحساسنا بالنقص أو الضياع أو الحرمان أو الاغتراب مما قد يثير لدينا القلق أو ((الخوف الذي له من الأثر ما يجعل الوجود زمانياً))[٤٠] بينما نشعر بقصره في حالة الأمن والسرور . وهذا يعني أن الزمن الذي نعيشه ، هو الزمان الذي نتفاعل معه نتيجة لما نعلمه أو نعرفه عنه [٤١] .

وعلى ضوء ما تقدم – سنجد أن شاعرنا كان واقعاً تحت وطأة هذا الزمن المسيطر عليه ، والذي خضع له من ناحية ، وراح يعبر عنه بقوة وعنف من ناحية أخرى .

وبذلك يكون الزمن الدهري مفروضاً على الشاعر ، لأن الزمن الذي يضرب علينا حصاراً محكماً ويغلق أمامنا منافذ المستقبل ، يفرض علينا التوقف وعدم التشوق إلى شيء في المستقبل [٤٢] .

الزمن الشعري

ونعني به الزمن المخلوق الذي أوجده الشاعر وقد جاء به ، ليثأر من الزمن الدهري المسيطر عليه بعد أن وجد نفسه خاضعاً له [٤٣] .

---

(٣٩) ينظر : الزمن التراجيدي في الرواية المعاصرة /٣٦ .

(٤٠) العزلة والمجتمع ، نيقولاي برد يائيف ، ترجمة جابر عصفور ، مراجعة علي أدم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط٢ ، ١٩٨٦ /١٢٢ .

(٤١) ينظر : جدلية الزمن ، غاستون باشلار ، ترجمة خليل أحمد خليل ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، ط٢ ، ١٩٨٨ /٤٦ .

(٤٢) ينظر : الزمن التراجيدي في الرواية المعاصرة / ١٣٥ .

(٤٣) ينظر : الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره : التمهيد ١/ ز .

فالشاعر يؤمن بأن الزمن هو سيد الإنسان ، ولكنه على الرغم من ذلك يتولد لديه إحساسا بأنه يمكنه التغلب عليه ، لذا فهو يحاول أن يحيا في حاضر مستمر عن طريق ((ضرب من الحضرة المليئة التي تندُ به عن الضرورة ، وتنأى بوعيه عن ندم الماضي وجزع المستقبل)) (٤٤) .

فالقصيدة إذن ما هي إلا روح إنسان متمرد لا يمكن محاصرتها بالجزئية أو الواقعية الحسية ؛ لأنها تصور للحظات الكيانية التي لا تحاصر ولا تؤسر في قيود ضيقة وهي بذلك تمثل لدى الشاعر مخلوقه الفني المنفس والمعبر عن ثأره ورد فعله ، لذا فأوجد فيها زمناً خاصاً بها وبه (٤٥) .

وبما أن الزمن مملوء بأفعال ترسم انعكاساتها على الشاعر ، لذا فهو يتفاعل معها وهذه الأفعال أو المؤثرات الخارجية تعمل على تحريك نوازعه الداخلية فتثير لديه المخاوف من فقدان الشباب مثلاً ، أو تقدم العمر ، أو الموت مما يجعله يقف موقفاً معيناً من الزمن ، فهو لا يفكر بالماضي ، ((بل يصرف جلّ همه ليفكر في إمتاع نفسه أو استقلال اللحظات التي يحياها قبل أن تنقضي ، لأن طبيعة الزمن هي السرعة في الانتقال)) (٤٦) .

وعليه فإن اللحظة الشعرية التي يتم فيها الإبداع الشعري هي لحظة يتخطّفها الشاعر في الأساس من الوجود المستمر، لتصبح لحظة ثابتة لا زمنية ، لأنها قائمة على أساس التذكر والتوقع للماضي والمستقبل فهي ((لحظة مركبة تحرك ، تدل ، تدعو ، تؤاسي فهي مدهشة وأليفة ... وهي جوهرياً علاقة تناغمية بين متضادين فهناك دائماً شيء في العقل في لحظة الشاعر المبثوثة بالانفعال ، وهناك دائماً شيء من الانفعال المشبوب في رفضه العقلاني)) (٤٧) .

---

(٤٤) مشكلة الإنسان ، د . زكريا إبراهيم ، مكتبة مصر ، ١٩٦٧ /٩٠ .

(٤٥) ينظر : الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره : التمهيد ١ / ز .

(٤٦) الإنسان والزمن في الشعر الكلاسيكي الحديث ،(بحث) ، د . عبد الكريم الأشتر وأحمد عضلة ، مجلة بحوث ، جامعة حلب ، سلسة الآداب والعلوم ، ع ٢٧ ،١٩٩٥ /١٢ .

(٤٧) اللحظة الشعرية واللحظة الميتافيزيقية (مقال) ، غاستون باشلار ، ترجمة أودنيس ، مجلة مواقف ،ع٤ ، سنة ١٩٨٢ /٩٥ .

وهذه اللحظة الشعرية يمكن أن نتصور من خلالها نفسية الشاعر ، لأنها تعبر عن ذاته وما يدور في داخله من الهموم والآلام ، محققاً بها كيانه عبر تداعي الأفكار التي ((تدفق وتمازج حالات تأملية لظواهر تقع خارج الذات تتجاوب مع ذكريات كامنة في أعماق الذات ، ثم حصول حالة توافقية تنشأ من امتزاجهما معاً في لحظة مركزة تفرز الخلق والإبـــداع)) [٤٨] ولهذا نرى الشـاعر يتفاعل مع الزمن ؛ لأنه لا وجود للشعر بغير الزمن ، وبالتالي يكون لكل شاعر زمنه الخاص به والذي يخضع لمؤثراته ويخلق الإبداع بسببه .

(٤٨) الشـعر بـين الواقـع والابـداع ، صـبيح نـاجي قصـاب ، دار الرشـيد للنشـر ، دار الحريـة للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٩ / ١١٥ .

الفصل الأول

إشكالية الزمن في شعر ابن الرومي

المبحث الأول :ألفاظ الزمن الصريحة

المبحث الثاني :الزمان أو الدهر

المبحث الثالث :زمن الشباب الشيب

المبحث الرابع :الشـــكـــوى

المبحث الأول

ألفاظ الزمن الصريحة

بعد الاستقراء الذي أجريناه على مفردات الزمن الصريحة في شعر ابن الرومي ، وجدنا أن بعض هذه المفردات قد كونت عند الشاعر إشارات مهمة عبرت عن حالات شعورية مستبطنه كشفت عن بعض الجوانب الخفية من شخصيته .

وقد دعتنا الضرورة إلى إهمال بعض هذه المفردات ، لكونها لا تمثل ألفاظا صريحة للزمن ، وإنما جاءت لمجرد الإشارة إلى أوقات غير محددة .

ومما يتراءى لنا من خلال هذه الدراسة ، أن مفردات الزمن القصيرة المحدودة كانت أكثر استعمالاً لدى الشاعر من مفردات الزمن الطويلة ، فمثلاً مفردة اليوم قد وردت لدى الشاعر أكثر من مفردة الشهر أو العام ؛ ولعل السبب في ذلك يعود إلى ارتباطه بالزمن الآني المعبر عن حالته الشعورية .

وأيضا قد تبين لنا أن ابن الرومي في بعض الأحيان يضفي على الممدوح صفات الزمن الموضوعي ؛ وذلك لأن ((الزمن في الشعر صورة مجازية يقع على الوصف والتشخيص))[٤٩] فتنسب إليه الأفعال والصفات ، ما يشبه طباع الإنسان

(٤٩) الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي ، أطروحة (دكتوراه) ، حيدر لازم مطلك ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩١ /١٥٧-١٥٨. التشخيص : وهو إضفاء صفات

وخصاله ، لتقريب المعاني ، وتشخيص الأفكار ، وتكوين الآراء وتطورها في سياق الأسلوب الشعري [٥٠] ولعل إضفاء ابن الرومي لهذه الصفات على الممدوح نابع من منطلق أن الزمان ((قوة لا يمكن التغلب عليها))[٥١] ، وهو يرى في الممدوح القوة المساعدة في مواجهة تحديات الزمن ؛ لتمنحه الأمن والأمل في الحياة ، بعد شعوره باليأس والحرمان ، مما يكون سبباً لحالة الشاعر، لذا كان لزاماً على الباحث أن يسير وراء هذه الألفاظ ودلالاتها والعوامل المساعدة ، ليكشف عن أسرارها ومعانيها .

اليـوم

وهو المدة المقدرة من طلوع الشمس إلى غروبها ، ومعانيه في ذلك متعددة بينها الدهر والوقت مطلقاً [٥٢] .

إن لمفردة اليوم عند ابن الرومي دلالات متنوعة ، جاءت مختلفة باختلاف المواضع التي قد وقف أمامها ، فهي متلونة مع حالته الوجدانية ونوازعه الداخلية وتتضح أولى تلك الدلالات في النص الآتي ، والذي يقسم به أيام الأسبوع ، محدداً ما ينبغي أن يكون فيها ، ولعل هذا التخصيص الذي نلمسه عند الشاعر ، ما هو إلا إشارة توحي لنا بمدى عمق دلالة كل يوم من هذه الأيام لديه ، فهو يرى أن يوم السبت يومٌ للصيد ، أما يوم الأحد فجعله للبناء ؛ لأن الله تعالى قد بدأ فيه بخلق السماء ، ويوم الاثنين فهو يوم للسفر ؛ لأن المسافر فيه سيظفر بالنجاح والنجاة من المخاطر ، أما يوم الثلاثاء فقد جعله للحجامة ؛ لأنه يوم إهراق الدماء ، ثم يوم

إنسانية على كل المحسوسات والماديات . ينظر الصورة الشعرية ، سيسل. دي لويس، ترجمة أحمد نصيف الجنابي وصاحباه ، مراجعة ، د. عناد غزوان ، دار الرشيد ، بغداد ،١٩٨٢ / ١٢٣ .

(٥٠) ينظر: الأفكار والأسلوب : ا. ف ، تشيتشرين ، ترجمة حياة شراره ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٨ / ١٩ .

(٥١) الرفض ومعانيه في شعر المتنبي ، يوسف الحناشي ، دار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٨٤ /١٣٥ .

(٥٢) ينظر : لسان العرب : مادة (يوم) .

الأربعاء الذي جعله لأخذ الدواء ، أما يوم الخميس فجعله لقضاء الحوائج ، أما يوم الجمعة فهو يوم للخطوبة والزواج ، كما يقول :

لنعم اليْـــومُ يَومُ السبْتُ حقـــا لِصيْدٍ . إنْ أردَتّ . بلا أمْتـــــــرَاءِ
وَفـي الأحدِ البنـــــاءُ فـإنْ فيْـــهِ بدا الرّحمن فـي خلْق السّمَـــاءِ
وَفـــــي الإثْنيْن إنْ سَافرتَ فيْـــهِ تنبـأ بالنّـجَاح وَبالنّـــــــجَـاءِ
وَإنْ رُمْـتَ الحجَـــــامـة فالثلاثـَا فـذاك اليـــــــوْمُ مـهـراق الدمـَاءِ
وَإنْ رامَ امـرؤٌ يـوْمـــــــــاً دواءً فنـعـم اليـومُ يـــوم الأرْبـــــــعَاءِ
وَفـي يـــــوْمِ الخميْـس قضاءُ خيْـر فـفـيـه اللهُ يـأذنُ بالقـضـــــــــاءِ
وَيـوْم الجمـــــــعة التنعيـم فيْـــه وتـزْويْجُ الـرّجـــال مـع النّسَـاءِ(٥٣)

ونزعم أن تخصيص الشاعر لهذه الأعمال على تلك الأيام لم يأتِ اعتباطاً ، وإنما جاء للوقائع والأحداث المهمة التي قد وقعت فيها مما جعلت الشاعر يتفاءل بدلالة تلك الأعمال . فالإنسان يميل لتفسير ما يقابله من مشاهد لصالح حالته ، والعكس يحصل عند انقباض أحاسيسه (٥٤) وما اختياره ليوم السبت يوماً للصيد إلا بدلالة أن الله عز وجل عندما ابتلى بني إسرائيل كان قد حرم عليهم الصيد بذلك اليوم حتى أكثر عليهم الأسماك فيه ، أما يوم الأحد الذي جعله للبناء ، كما هو واضح من قول الشاعر، فأن الله تعالى قد ابتدأ فيه بخلق السماء ، ثم جعل يوم الاثنين للسفر ؛ لأن سيدنا شعيباً (عليه السلام) كان يسافر فيه للتجارة ، أما يوم الثلاثاء الذي خصه للحجامة ؛ وذلك لأن حواء قد أحاظت فيه ، واغرق فيه فرعون وقومه ، وأما يوم الأربعاء فقد جعله للدواء ؛ وذلك لأن العرب كانت تجعل من هذا اليوم يوماً للأخذ والعطاء ، وأما يوم الخميس الذي جعله لقضاء الحوائج ؛ وذلك لأن سيدنا

---

(٥٣) ديوان ابن الرومي ، أبي الحسن علي بن العباس بن جريج (ت ٢٨٣ هـ) ، تح : د . حسين نصار، مطبعة دار الكتب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣ :١٣٦/١ .

(٥٤) ينظر: دراسات في الشعر الجاهلي ، د . نوري حمودي القيسي ، بغداد ، ١٩٧٢ / ٣٠ - ١٩٤ .

إبراهيم (عليه السلام) كـــــان قد دخل فيه على نمرود ، وأما يوم الجمعة فقد خصه للزواج ؛لأن الأنبياء (عليهم السلام) كانت تنكح وتخطب في ذلك اليوم [٥٥].

ويتأكد هذا الشعور مرة أخرى عند شاعرنا، ليضيف أحساسا بمغزى الزمن المحدد عنده ، ففي النص الآتي نراه يشير إلى يوم السبت جاعلاً منه بمثابة يوم السعد ؛ لأنه كان يلتقي به مع الحبيبة فتنادمه وتعاتبه ، إلا أنه يرى من عجيب أمرهِ أنه مسلم ، ولكن خير أيامه هو السبت كما في قوله :

وحَبّبَ يومَ السبتِ عندي أنّنـــي تنادمني فيه الذي أنـــا أحببت
ومن عجبِ الأشياء أنـــيّ مـــــــسلمٌ حنيفٌ ولكنْ خير أيّـامي السّـبت[٥٦]

وما هذا اليوم عند ابن الرومي إلا عينة من تلك الأيام التي كان يقضيها شاعرنا أيام شبابه بين الحسان حيث المتعة واللهو ، ليكون طول هذه الأيام وقصرها سبباً خالصاً في معاناته فهذه الأيام يريدها أن تكون طويلة ، كما في قوله :

سقياً لأيـــــــام مضـــــت وطويلها عنـــــدي قصـــــير
أيـــام لـــــــي بين الكـــــوا عب روضـــة فيـها غديـــر[٥٧]

وقد تعمق إحساس الشاعر بنظرته لهذه الأيام خاصة عندما أحس بثقل الزمن عليه بعد ما أدركته الشيخوخة والكبر ، فقوست ظهره ورجُفتْ أعضاؤه ، وتعاورته الأسقام فما كان أمامه إلا أن يناشد أيام شبابه أن تعود إليه من جديد ، لذا انشأ يقول :

أأيّـامَ لهوي :هل مواضيكِ عُـوّدٌ؟ وهل لِشـباب ظل بالأمس منشـدُ؟
أقـولُ ، وقدْ شابتْ شـواتي وقوّسـت قِناتي وأضـحت كدنتي تتخـدّدُ
وَدبّ كَـلالٌ في عظـامي أدبّـنـي جنيب العصـا أنـأدّ أو أتـأيّدُ [٥٨]

---

(٥٥) اعتمدنا دلالة هذه الأيام من كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) ، أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) تح : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٨٧ ، ٢/ ٣٩٣ .

(٥٦) الديوان : ٣٩٣/١ .

(٥٧) م . ن : ٣/ ٨٩٧ .

وعندما شعر ابن الرومي بأن هذه الأيام التي راح يناشدها ، قد أدبرت عنه ولم تستجب لمناجاته ، بل زادته معاناة فوق معاناته ، أشتد سخطاً عليها ، وتحولت نظرته إليها فأخذ ينعتها بالغدر وعدم الوفاء فاقداً الثقة والاطمئنان إليها ، كما في قوله :

وفاءٌ من الأيام لا شـــــــك غدرُ وهـل هن إلا منجزات عِـــــدات؟
يَعدن بغـــدر ليس بالمخلفاتـــــه فقـلْ في وفـــاءٍ من أخى غدرات(٥٩)

ويبدو أن هذه الأيام لم تتفِ بغدرها لابن الرومي ، بل أعطت لنفسها الحق في أن تتحكم بمصيره ، خاصة عندما وجدها قد تدخلت بينه وبين حبيبته ، فقللت من حظه في رؤيتها ، لذا أخذ يشكو منها قائلاً :

تحكمت الأيـــام في ذات بيننـــا فقللن منـه بالفـــــراق نصيبـي(٦٠)

وقد تحمل الأيام دلالات أخرى عند الشاعر ، فحين يقف أمام الممدوح كعادة اغلب الشعراء ترتبط دلالة اليوم عنده بمقام الممدوح ، حتى نراه في بعض الأحيان يبالغ في مديحه ، ليجعل من ممدوحه كأنه يوم في إشراقه وطلعته ، وغداً يومه ممرع في العطاء إشارة إلى الكرم والسخاء :

يومٌ كيـــوم الصـــحو في إشراقـه وغدٌ كيوم الغيث في الإغـــــداق(٦١)

وتأتي هذه المفردة عند شاعرنا في أحيان كثيرة ، للدلالة على زمن غير معين كما في قوله :

لا تحمـلنّ همـوم أيـــــام علـى يـــوم لعلّـك أن تقصّر عن غده (٦٢)

---

(٥٨) م . ن : ٢/ ٥٨٦ . شواتي : الشوات قحف الرأس وجلدته . القناة : عمود الظهر . الكدنته : امتلاء لحم الجسم . تتخذ : أي تصبح ذات خدود وشقوق . أتأيد : اتشرد .

(٥٩) م . ن: ١/ ٣٧٥ .

(٦٠) الديوان: ١/ ٣٣٣ .

(٦١) م . ن : ٤/ ١٦٦٥ .

(٦٢) م . ن : ٢/ ٦٧٢ . وينظـر كـذلك بـنفس المعنـى : ٣٤٨/١ (ب١) ، ٣٥٦(ب١) ، ٣/ ١٠٢٦(ب ٨٥)، ١٢٣٩(ب٦٨) ، ١٢٤٢(ب٢) ، ٤/ ١٥٨٤ (ب٤)،

ونستخلص مما تقدم من النصوص التي وردت بشأن مفردة اليوم ، أن الشاعر قد وظف تلك المفردة ، مانحاً إياها عمقاً نفسياً جاءت ملامحه واضحة من خلال ذلك التخصيص ، الذي يوحي لنا إلى مغزى الزمن المحدد لديه ، فضلاً عن أيام الشباب التي نقلت صورة الزمن الماضي عند الشاعر، وصورت لنا تلك المعاناة التي ألمت به بعدما سيطر عليه الضعف والوهن ، وأيضاً جاءت مفردة اليوم لدى الشاعر للدلالة على الغدر والخيانة والسيطرة ، فضلاً عن دلالة الكرم التي قد وظفها للمديح .

الفجـــر

وهو ضوء الصباح المتمثل بحمرة الشمس في سواد الليل [٦٣] والفجر من الأوقات التي شغلت الشعراء كثيراً ، لأنه يمثل لديهم انبثاقة أمل جديد في الحياة ، زيادة على ذلك ما له من السجايا تجعله يبهر الشعراء ويسبي عقولهم ، ولهذا نجد شاعرنا متعجباً ومندهشاً من الدهر وأحواله ، ومتسائلا كيف يمكن أن تبهر النار في وقت يعجز فيه الفجر عن ذلك :

وياعجباً ، والدهرُ جمّ عجيبـــــهُ أتَبْهرُ نارٌ حين لا يَبْهر الفجْـــرُ؟[٦٤]

ولعل انبهار ابن الرومي بالفجر له ما يسوغه ؛ لأنـه ((كان إنساناً شعورياً ، يتلقى الولادة الجديدة للأشياء مبهوراً بالمشاهدة المتجددة بكل حرارتها ، وبكل نبضها وموسيقاها ، ليفسرها في أعماقه ثم على أوراق فيأتي شعره (بصرياً) جداً))[٦٥]، لذا فهو يحاول أن يعكس ما في نفسه ويصبها على الأشياء المحيطة به ، ويتبين ذلك واضحا في قوله ، الذي راح فيه واصفاً أحد ممد وحيه بعد أن شعر أنه كان

١٦٦٥(ب٦٩) ، ٢٠٠٠/٥ (ب٢٤)، ٢٠٥١(ب٧٥) ، ٢١١١(ب١)، ٦/ ٢٢٥٣ (ب٣)، ٢٢٦٦(ب٤)، ٢٢٧٩(ب٨) ، ٢٣٠١ (ب١٦٨)، ٢٣٧٥(ب١٣)، وغيرها .

(٦٣) ينظر : لسان العرب ، مادة (فجر) .

(٦٤) الديوان : ١١٢٢/٣ .

(٦٥) ابن الرومي : خليل شرف الدين ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨٠ / ٩٧.

مقصراً وعاجزاً عن شكره ، فما كان أمامه إلا أن يجعله كالفجر الذي غدا قبل شمسه وعطاياه التي بشرت بسخائه ، إشارة إلى التجدد والعطاء :

قصرتُ له من طول شكري ولمْ تغـض بحـوري ولا ألفيـتُه غيـر طائـــل
ولكنـــــه فجرٌ بدا قبل شـمْـــسـه وتغشـة قطـر بشّــرتْ قبل وابل (٦٦)

وقد تأتي دلالة الفجر عند شاعرنا ، للإشارة إلى الجمال المتفائل به دائماً. فهو حلمه المنشود ، الذي يقدره حق قدره بل فوق قدره أحياناً (٦٧) ولأجله راح يوظفه في أغراضه الشعرية حتى في الرثاء ، كما في قوله وهو يصف بياض وجه خاله عند سكرات الموت مشبهاً إياه بضوء الفجر عند انشقاقه وطلعته :

تبلـج عنـد المـــــوت وأبيض وجهـه تبلـج ضوء الفجر عند انفجــاره (٦٨)

فمن خلال ما تقدم نستشف أن دلالة الفجر عند ابن الرومي جاءت للإشارة على التجدد والجمال .

الصبـــاح

يعد الصباح من الأوقات التي حظيت باهتمام واضح عند ابن الرومي حيث نراه يتعامل معه تعاملاً نفسياً متفائلاً به ، فهو يمثل لديه المتعة والاطمـــئنان النفسي ، ولعل هذا التأثر الذي نلمسه عند ابن الرومي جاء منسجماً مع نفسيته المرهفة ، ليكون متنفساً عن تلك الهموم التي أرهقته فجعلته في شوق ٍ دائم ٍ إليه ، لذلك أخذ يوظفه توظيفاً فنياً ، دالاً به على المتعة والجمال معتبراً إياه من ألذ

---

(٦٦) الديوان : ٥/ ٢٠٧٨ .

(٦٧) ينظر : تاريخ الأدب العربي ، حنا الفاخوري ، المكتبة المطبعة البوليسية ، بيروت ، لبنان ، (ب - ت) / ٥٤٤ .

(٦٨) الديوان : ٣/ ١١٣٢.

الأوقات لديه ، ولا سيما عند اقترانه بالخمرة ؛ لأنه كان من ((مدمنيها والمتسلين بها على الهموم)) [٦٩] ، كما في قوله :

وألذ العيش ما فيْـ ـه صَبُوحٌ وَصَبَاحُ[٧٠]

و قوله :

حسْبُك بالرّاح صباحاً وإن قلت رُواقُ الليل ممدودُ[٧١]

ونظراً لشدة إحساسه بهذا الزمن ، نراه دائماً يحاول أن يجعله قريباً منه ، وواضعاً فيه أسمى صفات الجمال والنور ، ولاسيما حينما أخذ يشبه طلعة حبيبته بإشراقة ذلك الصباح ، فيقول :

إذا ما بدا كالصبح فرق جبينه دعوتُ على عين العواذل بالفجر[٧٢]

ولعل ما يؤيد نظرتنا هذه ، قوله الذي راح يفتخر فيه بأصله الرومي مبيناً أنه لا حاجة إلى أن يدافع عن أصله ، فهو كالصباح الساطع الذي لا يخفى عن العيان ، إشارة إلى الشهرة وعدم الخفاء :

أنا ابن ذوى التيجان غير مدافع وهل يُدفع الصبح الأغر المشهّر[٧٣]

وأيضاً نراه أخذ يكرر مثل ذلك المعنى ، ولكن هذه المرة حينما راح يمدح أحد ممدوحيه مبيناً أن مديح الناس له لم يظهر منه شيئاً خفيا ، لأنه كالصباح وهل يخفى الصباح عن ذوى العينين ؟ :

أسْقَط المدْحَ فيك أن لم يُبنْ منْـ ـك خفياً ، وهل بصبح خفاءُ ؟ [٧٤]

---

(٦٩) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ، أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١٦ ، ١٩٨٧ / ٢٩٣ .

(٧٠) الديوان : ٢/ ٥٤٩ .

(٧١) م . ن : ٢/ ٧٣٤ . وينظر كذلك بنفس المعنى ٢/ ٥٥٢ (ب١) ، ٤/ ١٤١٩(ب١)

(٧٢) الديوان : ٣/ ١١٥١ .

(٧٣) م . ن : ٣/ ١٠٤٤ .

(٧٤) م . ن : ١/ ٧٨ .

إذن تتضح دلالة الصباح عند شاعرنا، لتمثل لنا ذلك الوقت القريب إلى نفسه والذي أخذ يترجمه من خلال تلك الدلالات المتمثلة ، بالمتعة والاطمئنان النفسي ، والجمال فضلا عن دلالة الشهرة وعدم الخفاء.

الضحى

ونعني به ارتفاع النهار ، والأصل في الضحى البروز [٧٥] ويعتبر هذا الوقت من الأوقات التي توحي لشاعرنا إلى معاني القوة والجمال ، ويظهر ذلك واضحاً في غرض المديح ، كما في قوله وهو يصف أحد ممدوحيه بأنه كشمس الضحى إذا طلعت لا تستطيع العيون من مجاراتها:

هو شمس الضحى إذا ما استقلّت لا تمارى في ضوئِها عينان [٧٦]

و قوله :

وَيَا منْ أضَاء كَشمْس الضّحى فأضْحىْ عليْهِ بهِ نَسْتَدلّ [٧٧]

وفي بعض الأحيان نراه يبالغ في هذا الوصف ، حتى يجعل من ممدوحه أجلّ وأعظم ، فالشاعر حين يشتري من الزمن المحدود ممدوحه بطلعته وهيبته لا يرى نفسه مغبوناً ، وإنما هي دلالة في ظني على شدة تعلق الشاعر بالممدوح ، لأن ممدوحه في كفه والناس كلهم في أخرى ، وهي إشارة على ما يبدو إلى القوة والهيبة التي يتحلى بها ذلك الممدوح :

ويا عجبا أن لا يكونَ بدا لنا كشمس الضحى لا بل أجلّ وأعظما[٧٨]

ولا غرابة أن يمعن الشاعر في خلط أوراقه ، ولكن الغرابة كل الغرابة في أن يمزج بين المكابرة والادعاء والقوة على التحدي باسم السلطان ، لينقلنا إلى موطن الضعف والاهتزاز، ليجعل من الغواني حصة في شمس الضحى ، وهذه إشارة واضحة إلى طبائع الشاعر غير المألوفة ، كما في قوله :

---

(٧٥) ينظر : لسان العرب مادة (ضحى) .

(٧٦) الديوان : ٦/ ٢٥٠٥ .

(٧٧) الديوان: ٥/ ١٩١٨ .

(٧٨) م . ن : ٥/ ٢١١٠ .

هـــنّ اللواتي إذا لاقيتهن ضُحـى لاقيتَ صـداً وإشـــراقاً وإخطافـا [٧٩]

العصـر

يقول ابن منظور في لسان العرب : إن لفظة العصر تدل على أنه (وقت من أوقات النهار بين القيلولة والأصيل)[٨٠] وتأتي هذه المفردة في استعمال آخر وبشكل أعم للدلالة على الدهر، كما في قوله تعالى ﴿ ٻ ٻ ٻ پ پ پ ﴾[٨١] و لهذا الوقت أيضا عدة معان منها الحين وكذلك العصران ((وهما الليل والنهار)) [٨٢] وقد جاءت مفردة العصر عند ابن الرومي للدلالة على الدهر ، كما في قوله :

فأنجز مـــواعيد أكد تهـــــا فقد مــر عصر ، وقد كـر عصر[٨٣]

فالشاعر في هذا البيت يعاتب أحد ممدوحيه بعد شعوره بالخذلان وعدم الوفاء من جانبه ، فهذا الممدوح كان قد أَمله بوعودٍ ولكنه قد تنكر لها وأدار ظهره له ، فما كان أمام ابن الرومي إلا أن يذكره بها فقد مر عليها دهر وأعقبها دهر جديد .

وكذلك جاءت هذه المفردة بمعنى العصران ، كما في البيت ألآتي ، الذي أخذ يدعو فيه لأحد ممدوحيه بأن يسعده الله ويطيل في عمره مادام الليل والنهار يتعاقبان:

أيهـــــذا الأميرُ أســـــعدك اللّـــــ ـهُ وأبقـاكَ ما جرى العصران [٨٤]

الغروب

---

(٧٩) م . ن : ٤/ ١٦٠١ .

(٨٠) ينظر : لسان العرب ، مادة (عصر) .

(٨١) العصر : ١،٢ . وينظر : الفرق بين العصر والدهر : في (الفروق اللغوية)، للإمام الأديب اللغوي أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت٣٩٥ هـ) ، تح : جسام الدين القدسي ، دار الكتب ، بيروت ، (ب - ط) ، (ب - ت) / ٢٢٥ .

(٨٢) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام / ٩٧ .

(٨٣) الديوان : ٩٥٦/٣ .

(٨٤) م . ن : ٦/ ٢٤٩٤ .

هو وقت غروب الشمس من جهة الغرب ، والعرب تقول : تغرب الشمس غروباً [٨٥] وهذا يعني غياب الشمس وزوال النهار مما يجعله يعمل على إثارة الهموم والأحزان عند الشعراء ؛ لأنه يذكرهم بالفناء والموت .

ويعد ابن الرومي أحد أولئك الشعراء المتوجسين من ذلك الوقت فهو لا يرى فيه حادثاً عادياً ، وإنما مشهد احتضار وبكاء على المحتضر [٨٦] ويظهر ذلك واضحاً في نصه الشعري الذي رسم لنا فيه مشهداً مأساوياً جاعلاً من الشمس ، حسناء مفارقة . مضرعة الخدين ، تتوهج توهجاً شاحباً قبل أن تقضي نحبها كسيرة الإحداق غائرتها كعيني المريض المدنف الذي ينظر إلى من يعودونه [٨٧] يقول :

إذا رنقتْ شمسُ الأصيل ونفضتْ على الأفق الغربيّ ورسا مُذعذعا
وودّعت الدنيا لتقضي نحْبَها وشوّل باقي عمرها فتشعشعا
ولاحظت النّوار وهي مريضةٌ وقدْ وضعتْ خداً إلى الأرض أضرعا
كما لاحظتْ عُوّاده عينُ مدنف توجّع من أوْصابه ما توجّعا
وظلتْ عيونُ النّور تخضلّ بالندى كما اغرورقتْ عينُ الشّجّي لتدمعا[٨٨]

ولأن الواقع المعاش غير صالح للشاعر فنراه يكشف لنا عن شدة الوطأة عليه عندما يحل الظلام ، ويمكن أن نعزو ذلك الموقف السلبي إلى انهيار القيم الإنسانية في نفس الشاعر مما يجعله يتطلع دائماً إلى غدٍ مشرق وضاء ، لذا فهو

---

(٨٥) ينظر : اللسان مادة (غرب) .

(٨٦) ينظر دراسات في الأدب العربي ، إنعام الجندي ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٧ / ٩٠ .

(٨٧) ينظر : ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ، إيليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٨ / ٥٦ .

(٨٨) الديوان : ٤/ ١٤٧٥ . رنقت : يقال رنق الطائر إذا وقف صافاً جناحيه .الأفق : الجانب . ورسا : نباتا احمر فيه صفره . نحبها : موتها . شول : نقص أو قل . تشعشعا : أنقضى إلا قليله . النوار : زهر ابيض . اضرع : الأذل . مدنف : مريض . أوصابه : أمراضه . تخضل : تبتل .

يثور على كل شيء يدعوه إلى الظلام ، وهذا يستدعي منا فهم الحالة التي يمر بها، وله القول:

كـأن خبوءَ الشمس ثمّ غروبهـــــا وقد جعلتْ في مجنح الليل تمرضُ
تـخاوصُ عين مسّ أجْفانـــها الكرى يُرنـّق فيها النومُ ثمّ تغمــضُ (٨٩)

ولعل السبب الذي يدفعه إلى تشخيص الشمس بهذه الصورة الحزينة اليائسة ، ما هو إلا انعكاس لحالته النفسية المتشائمة والمتوجسة دائماً من ذلك الشبح الجاثم على صدره ألا وهو الموت مما يجعله يلون الطبيعة بذلك الأسوداد الحزين .

ولكن من الخطأ الظن بأن ملكة الشاعر كانت عاجزة عن الإتيان بالأمل ، والذي هو بأمس الحاجة إليه ، وفي هذا يسير شاعرنا إلى برّ الأمان ، ليعمل على خلق زمن جديد لنفسه للخلاص من متعلقات ماض كئيب ، فنراه يدرك شرّ ما تورط فيه ، ليستحضر تباشير الأمل ، وهذا الذي دعاه أشراقة شمس جديدة فانشأ يقول:

وَغداً يُعْقِـبُ الغـُرُوبَ شـُـــرُوقٌ مِثْـلَ مَا أعْقـَبَ الشّرُوْقَ غـُـرُوْبُ(٩٠)

ويبدو أن فقدان التوازن النفسي لدى ابن الرومي كان واضحاً من خلال النصوص التي استقرأناها، لذا بدت الجفوة واضـــحة في فهم ما يدور في خلد الشاعر ، ولعمري أنه التناقض المحبوس في طيات النفس المتوجعة التي تعيش وطأة الشعور بالنقص .

الليـــل

يعتبر هذا الزمن من الأوقات التي تحظى بمكانة كبيرة لدى الشعراء ، لكونه يعد المنفذ لتصوير ما يعرض لهم فيه من الهموم الفكر ومطاوعة السهاد(٩١) خاصة

---

(٨٩) م . ن : ٤ / ١٤١٨ . تخاوص :الخوص يعني غؤور العين .

(٩٠) الديوان: ٣١٨/١ .

(٩١) ينظر : زهر الآداب وثمرة الألباب ، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني (ت٤٣٥ هـ) تح : د . زكي مبارك ، زاد في شرحه ، د . محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط٤ ، (ب – ت) ٣ / ٨٠٤ - ٨١٠ .

لدى الذين يعانون أزمات نفسية وظروف قاسية ، لما يثيره من حركة حسية داخلية وشعور بالوحدة والملل [٩٢] .

ولاشك في أن الحالة النفسية التي يكون عليها الشعراء ، تؤدي دوراً كبيراً في توضيح دلالة الليل لديهم ، حتى نراهم يأدونه بطرائق مختلفة ، تكون متباينة على حسب الظروف التي يمرون بها ، وجاءت دلائل الليل عند شاعرنا معبرة عن حالته الوجدانية ، إذ نجده في بعض الأحيان يلتجأ إليه ، ليخفي همومه التي ألمت به ، فيجعله زمناً إنسانيا وفكرة ينتمي إليها ، إلى مجالس الصحبة حيث المتعة واللهو ، وما الليل هنا إلا زمن يوحي إلى الراحة والاستقرار بعد العناء والمشقة فيقول :

وَنَعِمْنا بِلَيْلَةٍ لَيْسَ لِلْـــــهَمْـــ ـم لَدَيْها قِرًى سوَى الإزعَـــــاج
قَدْ جَعَلْنَا الكُؤُوسَ فيْـــها نُجُوْمَاً وَجَعَلْنَا الأكُفّ كَالأبْـــــــراج
تَمّ فِيْهَا النّعيْمُ كُلّ تَمَـــــــام وَعَلا قَدْرُهُ عَلَى الإخْـــــــدَاج
بِفَتَاةٍ تَسُرّنَا فـــــــي المَثَانى وَعَجُوْز تَسُرّنَا فـي الـــــزّجَاج
لَمْ نَزَلْ نَشْرَبُ المُدامـــــة حتّـــى عَادَ مِنّا الفَصيْح كَاللّجْلاجِ [٩٣]

فميل الشاعر إلى هذا الزمن المحدود أظهر تمتعه وحبه للحياة التي ينشدها، لذا نراه يتمنى دوامه ، كما في وصفه لليل أيلول المتميز ببرودته التي تجعل المضاجع قريبة بعضها من بعض ، وبرياحه الساكنة ، وجوّه الصافي الذي يزينه ذلك القمر المتلألئ في عنان السماء :

يَا حَبّــذا لَـيلُ أيْـلُول إذا بَردتْ فيْـهِ مَضَاجعُنا ، وَالـرّيْحُ سجْـواءُ
وَجَمّشَ القرّ فيْـهِ الجلدَ فائتلفتْ مِـنَ الضّجْعِيْن أحْشَاءٌ فأحْشَاءُ
وأسْفرَ القمَرُ السّاري فَصفحْتُهُ رَيّاً لَـها مِنْ صَفاءِ الجوّ لألاءُ [٩٤]

---

(٩٢) ينظر : الزمن في شعر ابن حمديس ، رسالة (ماجستير)، ختام محمد حسين ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٢ / ١٧ .

(٩٣) الديوان : ٢ / ٤٩٠ .

(٩٤) م . ن : ١ / ٥٥ ، سجواء : ساكنة . القرّ : البرد . جمّش : المغازلة أو الملاعبة بأطرف الأصابع . الصفحة :الجانب . رياً لها : مملوءة ماء والمعنى ، فوجهه زاه .

ولكن هذا الليل الهادئ الجميل الذي يصوره شاعرنا بإحساسه المرهف ، سرعان ما تبدلت صورته لديه وتغيرت ، فأصبح طويلاً ثقيلاً كأنه دهر لا ينقضي أو سرمد لا ينفد ، خاصة عندما راح يشعر بألم الوحدة والاغتراب حيث لا أنيس يسامره ولا خليل يناجيه ، فينسيه همومه وأحزانه ، مما جعله يشعر بأن ساعاته تمر عليه وكأنها شهور كما في قوله وهو يشكو حاله لأحد الولاة :

أنـاديْك يـا منْ ليْس فـي سمْـعه وقْرُ نداء مُـحـقّ لايُنَـهـْنـهـهُ الـــزجـرُ

فـهلْ يسْمع الإحْسانُ والحسنُ والحـجا تـظـلـّم مظـلوم ظُــلامتُه الهــجرُ

إلى قوله :

علـى أن نـفـسي جـرّبتْها فألفِـيتْ وليْلتُها دهــرٌ وسـاعتـها شهرُ (٩٥)

ويبدو أن هذه الليالي القاتمة بسوادها المد لهم ، الذي يثير شجون ابن الرومي بألم الوحشة ، قد تعددت وطالت أوقاتها عليه ، حتى انتابه الأرق وعدم النوم بسبب ما يخيم عليه من قلق وهموم ، فيقضي ليله ساهراً حاملاً آلام هذه المعاناة على عاتقه حيث يقول :

كمْ ليلـةٍ نسي الصـباح مســاؤُها قد بتّ فيها بالســهاد كحــيْلا

مـا نمتَ نـوم غريرةٍ في خِــدْرها لـكن سَرَيتَ سُرى الرجالَ رجيْـلا(٩٦)

ولعل هموم هذه الليالي وآلامها ، هو ما ساعد على ظهور الشيب الذي غزا شعره ، وهو في سن الحادية والعشرين من عمره ، مما جعله يشكوها قائلاً :

فـظلـم الليــالي أنهن أشــبنني لعشـرين يحدوهنّ حـوْل مجْـرم (٩٧)

ويمكن أن نعد للمرأة أثراً زمنياً على ابن الرومي ، فهو يشعر بطول الليل ، حينما راح ينتظر قدوم الحبيبة بفارغ الصبر ، وقد وعدته بالحضور فانتابه الأرق ، وأتعبه طول السهاد حتى باتت عيناه في نزاع عنيف مع النوم المتسلط عليها ، في جوف ذلك الليل الشتائي الطويل ، وهنا نجد الشاعر يمل الليل ويضجره ، لكونه يحمل لديه وعوداً لم تتحقق فيقول :

---

(٩٥) م . ن : ٣/ ١١٢١. الحجا : العقل والفطنة .

(٩٦) الديوان: ٥ / ١٩٧١ .

(٩٧) م . ن : ٥ / ٢٠٩١ .

وعدتْني وعـداً فـهاجتْ حروبـا بين عينـي فيـه وبين المَـنام
بتّ شـر المبيت مـا ذقتُ غمْضا طـول ليلـي والليلُ ليـلُ تـمام (٩٨)

وحينما غادر ابن الرومي في رحلته إلى أحد ممد وحيه ، أضطر أن يبيت خلال الطريق في خان قديم البناء ، متداعي السقوف ، يكثف من خلال ثقوبه ماء المطر الغزير الذي لا يكاد ينقطع من شدته ، مما جعله يشعر بالخوف والجوع والوحشة ، حتى قضى ذلك الليل ساهراً يؤرقه الألم وتنتابه الهموم ، يقول :

فَمِلتُ إلـى خـان مُرثّ بنـاؤُه مَميلَ غَريق الثّوبِ لهْـفانَ لاغِـبِ
فَلَمْ أَلْقَ فيْهِ مسْـتَراحـاً لِمُتْعَـبٍ وَلا نُـزُلاً ،أيّـانَ ذاك لِسَـاغِبِ ؟
فما زلت في خوفٍ وَجُوْع وَوَحشَـة وَفـي سَـهَر يسْتغْرقُ الليـلَ وَاصِبِ

يـُؤرّقـني سقْفٌ كَـأنّـي تـحْـتَهُ مِنَ الوكفِ تحْتَ المُدْجناتِ الهواضِبِ(٩٩)

ومن مدلولات الليل الأخرى التي نراها حاضرة في شعر ابن الرومي ، أنه أخذ يتصور الليالي وكأنها عدو يطـارد الناس أينما حلوا ، وتكيد بهم فـلا تستفرغ الجهد حتى تنال منهم (١٠٠) وهن حاكمات على بني البشر لا تبقي منهم من أحد (١٠١) ومن يكُ رهنا لها تجعله كليل السمع والبصر (١٠٢) .

وبذلك يتضح لنا أن الليل يمثل أحد الرموز النفسية عند ابن الرومي ، التي أخذ يترجمها على وفق ما يشعر به ، فيتخذه أحياناً وسيلة ينفذ بها إلى الوسط الاجتماعي الذي يحيطه ، ولاسيما عند شعوره بالوحدة والانفراد ، حيث الصحبة التي

---

(٩٨) م . ن : ٦ / ٢٤١٥ .

(٩٩) الديوان: ١/ ٢١٥ . مرث : بال . اللاغب : الذي أعيا من السير وتعب . الساغب : الجائع التعب . الواصب : الدائم الثابت . الوكف : أن يقطر الماء من سقف البيت . المدجنات : الأمطار الغزيرة . الهوا ضب : التي يدوم مطرها .

(١٠٠) م . ن : ٦ / ٢٤٦٣ ، (ب ٣) .

(١٠١) م . ن : ١ / ٤١٣ ، (ب ، ٢٢) .

(١٠٢) م . ن : ٣ / ١١٤٧ ، ق (٩١٨) .

تكون البديل الذي يعوضه عن ضيق الزمان ووحشته ، وفي هذا يكون الليل هنا، زمناً للراحة والمتعة كونه قد حقق للشاعر ما يبتغيه .

في حين نجد الأمر مختلفاً لديه ، عندما يجلب الليل إليه الآلام والهموم التي تقضّ مضجعه ، فتجعله يشعر بطوله وثقله عليه .

الشهور

يعرف الشهر بأنه العدد المعروف من الأيام ، والأصل فيه القمر أو الهلال ، وإنما سمي شهراً لشـــــهرته وظهوره من خـــلالهما ، وفيهما عـــلامة ابتدائه وانتهائه [١٠٣] .

وبما أن الهلال تلك العلامة التي تؤذن بولادة شهر جديد ، حيث الاستمرار والتجدد في الحياة ، لذا نرى ابن الرومي قد وظف هذه الدلالة في غرض المديح جاعلاً من وجه ممدوحه ، كأنه هلال دائم في بداية كل شهر ودهر ، إشارة إلى البقاء والتجدد على مدى الحياة ، إذ يقول :

وَكُـلّ هِـلال فـهـو غـرّة شـهره ووجـهك فـينا غـرّة الشهر والدّهر[١٠٤]

وقد ورد في شعر ابن الرومي تخصيص لبعض أشهر السنة ، فنراه يذكرها بأسمائها ومن أكثر هذه الأشهر التي وجدناه منشغلاً بها هو شهر رمضان ، لا لدافع ديني وإنما ، لأنه يمنعه عن ملذاته فهو((منهوم لا يشبع من الطعام والفواكه والشراب)) [١٠٥] ولهذا فهو ينفر منه ويذمه جافياً ومستثقلاً له ، يقول :

أذمّـهُ غـيـر وقـتٍ فـيـه أحـمـــــدُهُ مـنـذ الـعشاءِ إلى أن تسقع الديـّكهْ

وكـيـف أحـمـد أوقـــــاتا مذمـمـة بيْنَ الدّؤوب وَبَيْنَ الجوْع مشْتَركهْ

يـا صـدق مـنْ قـال: أيـامٌ مُـبـاركـة إنْ كانَ يكنّى عن اسم الطول بالبركهْ[١٠٦]

---

(١٠٣) ينظر : لسان العرب مادة (شهر) . تسقع ، تصيح .

(١٠٤) الديوان : ٣ / ٩٦٥ .

(١٠٥) ابن الرومي الشاعر المغبون ، جورج عبدو معتوق ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٥ /٩ .

(١٠٦) الديوان : ٥/ ١٨٣٧ .

فتلك الشهوة الحيوانية المتطرفة هي التي جعلت من الشاعر يكثر من هجائه لذلك الشهر هجاءًا لم نسمعه من شاعر مسلم ، وقد يهجى رمضان في الخفاء والسر ، أما أن يهجى علانية وفي شعر معاد فذلك اجتراء لا يصدر إلا عن مثل ابن الرومي الهِجّاء الذي لم يسلم منه مخلوق [١٠٧] وإذا كان الناس يبارك بعضهم بعضاً بشهر رمضان ، فابن الرومي لا يبارك به ولا يرحب بمقدمه ، إذ يقول :

إذا بَرّكتَ فَـي صَـــــوْم لِـقَـوْم دَعَـوْتَ لَـهُمْ بِتطويْل العَـذابِ
وَمَـا التّبْريكُ فـي شَـــهْر طَـويْـل يَـطـاولُ يَـوْمُـهُ يَـوْم الـحِسَابِ
فَـليْتَ اللّـــيْلَ فيْـهِ كَـانَ شَـهْـراً وَمَـــرّ نَـهَـارُهُ مَـرّ السّحَـــابِ
فَـلا أهْـــــلاً بِمَـانِـع كُـلّ خَـيْر وَأهْـلاً بِـالطّعَام وَبـالشّـرَابِ [١٠٨]

ولعلنا لا نستغرب من ذلك الموقف المتعنت الذي نجد فيه الشاعر متمرداً على شهر رمضان ، كونه يعد مثالاً . للإنسان الذي حرم من إشبـاع حاجاته النفسية ، فكثيراً ما يتراجع في إشباع حاجاته الفسيولوجية ، فالمحروم من العطف والتقدير قد يأخذ من الأكل بشراهة أو يسرف في ملذاته الجنسية [١٠٩] فما نهم معدته إذن إلا جانب من نهم نفسه المبتلاة بحب التعويض ، والذي هو مظهر للحرمان [١١٠] وبما أن شهر رمضان يقف حاجزاً بينه وبين هذه الملذات ، لذلك هو يقف منه موقفاً عدائياً . فابن الرومي يبحث عما يناسب نفسيته وينسجم معها ، لذا نرى موقفه من شهر أيلول يختلف تماماً عن شهر رمضان ، حيث الطبيعة المعتدلة والمتمثلة باعتدال الجو ورقته وعذوبة المياه ، فضلاً عن تلك الفواكه المتنوعة

---

(١٠٧) ينظر : ابن الرومي ، محمد عبد الغني حسن دار المعارف ، مصر ، ط ٣ ، (ب – ت)/ ٢٩ .

(١٠٨) الديوان : ١ / ٢٠٥ .

(١٠٩) ينظر : أصول علم النفس ، د. أحمد عزت راجح ، المكتب المصري ، دار القلم ، بيروت ، ط٩ ، ١٩٧٣ / ٩٦ .

(١١٠) ينظر : ابن الرومي في الصورة والوجود ، د. علي شلق ، المؤسسة الجامعية للدراسات للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٨٢ / ٧٥ .

وكثرتها ، جعلت من الشاعر يقرر متى ما اجتمعت لديه هذه الطبيعة المعتدلة والفواكه المتنوعة ، لا يبالي بالموت حين يدفن أو يثوى عليه التراب يقول:

لـوْلا فـوَاكـهُ أيـلـُول إذا اجْتمَـــعَتْ مـنْ كُلّ نـوْع ، وَرَقّ الـجّـوّ وَالـمَاءُ

إذاً لـمَـا حَفلتْ نفْسي متى اشْتملتْ عـلَى هـائِلـة الـجالـيْن غبـرَاءُ (١١١)

وتزداد تلك الطبيعة جمالاً في نظر شاعرنا ، بعدما وجد أن شهر آذار أخذ يكسوها بذلك الثوب الموشح بأنواع الأزهار التي كان كانون من قبل قد أتلفها ببرودته ، فيقول :

نـشـّر آذارُ فـــــي الـثـرّى حـُلـــلا قـدْ كـانَ كَـانـَوْنُ قـبـلُ طـواهـا

... ...

وَصَـاغ للأرض كُـلّ تـَـــــاج بـهـــا أحـسـنَ فـي صُـنعهِ فـجـلاّهـا (١١٢)

ومن خلال ما تقدم ، نستخلص أن مفردة الشهر جاءت لتكشف لنا جانباً مهماً من تلك النفس المزاجية القائمة على الصـدود والمجافاة ، كما في شهر رمضان ، والقبول والرضى كما في شهري أيلول وآذار .

الفصـــول

ونعني بالفصل لغةً : البون ما بين الشيئين ، والفصل من الجسد موضع المفصل ، والعرب تجعل بين كل فصلين وصلا (١١٣) . أما في الاصطلاح فيعني أحد فصول السنة الأربعة (١١٤) ويرى المرزوقي أن سبب تسميته فصلاً ، لانفصال

---

(١١١) الديوان : ٥٥/١ . الجالين : تثنية جال بمعنى الجانب . غبراء : أي لونها لون التراب ، ويعني بها بقعة الأرض التي ينهال جانباها بالتراب .

(١١٢) م . ن : ١/ ١٢٥ .

(١١٣) ينظر : لسان العرب مادة (فصل) .

(١١٤) ينظر : الأزمة والأمكنة ، للمرزوقي أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت٤٢١ هـ)، مطبعة دائرة المعارف ،الهند ، حيدر آباد والدكن ، ط١ ، (ب- ت) ، ١/ ١٦٢ ، ١٦٨ ، ٢١٤ .

الحر عن البرد وانقلاب الزمان الذي قبله . ويقال للفصول : الفصيان والواحدة فصية ، وهي الخروج من حر إلى برد ومن برد إلى حر [١١٥] .

الربيـــع

لفصل الربيع عند ابن الرومي مكانة فريدة ، لا نجد لها نظيراً في الفصول الأخرى ، فهو يمثل لديه تلك الطبيعة القريبة إلى نفسه ، وذلك العالم الخاص به ، ولعلنا لا نفهم هذا الواقع على حقيقته إلا إذا تصدينا له من خلال نفسية الشاعر المثقلة بالأحزان والمآسي ، فقد كان لمسلسل الموت الذي فجع به في عائلته وفشله في معاشرة الناس أثرٌ كبيرٌ في شعوره بذلك الأسوداد والتشاؤم ، الذي ولد لديه اليأس والقنوط من الحياة .

فما كان أمامه إلا أن يبحث عما يسعفه من ذلك الواقع المؤلم ، عندئذٍ ارتمى بأحضان تلك الطبيعة الكريمة ، وذلك الملاذ الحبيب لكل من دنسه المجتمع وقسى عليه وحرمه ، ليجد فيها نفسه وليتعوض عن كل ما قد حرم منه وينفس بها عن همومه وآلامه .

ومن أجل هذا جاء شعره حافلاً بوصف ذلك الربيع الذي يظهره دائماً بأبهى صورة وأجمل تعبير ، وما انبثاق القمم إلا شاهدٌ لما نقول :

ضحكَ الرّبيعُ إلى بكا الدّيم وغدا يُسَوّي النبت بالقِمم
من بين أخضرَ لابسٍ كُمَمّا خضراً ، وأزهرَ غير ذي كُمَم
مُتَبلّج الضّحوات مُشرقها متأرّج الأسحار والعَتَم [١١٦]

كما أنه أخذ يصور الربيع على أنه الشباب بكامل صفاته من الحيوية والنشاط والجمال ، ويعكس ذلك الربيع الصيف الذي يمثل لديه الشيخوخة والهرم ، كما في قوله :

إن الرّبيعَ لكالشّباب وإنْ نَ الصيْفَ يعكسه لكالهرم [١١٧]

---

(١١٥) ينظر : م . ن : ١٧٧/١.

(١١٦) الديوان : ٢٣١٩/٦ . كمم : وعاء الطلع . طمَّ بالجلم : أي عدل وسوى .

(١١٧) م . ن : ٢٣٢٠/٦ .

وبطبيعة الحال أن هذا الإحساس الجميل بالربيع ، كان لا بد من أن يحظى بنصيب وافر من قبل الشاعر وتوظيفه في غرض المديح ، ليشير بذلك إلى كثرة العطاء والسخاء لممدوحيه :

وأغبرّ في دولته جانبي وهو ربيعٌ عمّ إغداقُهُ (١١٨)

ويبدو أن شاعرنا لم يستطع التغلب على اضطرابه وضجره ، إلا عندما هرب إلى الطبيعة ، ليفصح لنا عن موقف الإنسان من الكون وصراعه مع الواقع ، فبدت الطبيعة كما رآها وأحس بها ، مرآة صافية تعكس حقيقة نفسه بما فيها من حب وعذوبة .

الشتاء

وهو أحد فصول السنة الأربعة ، وقد كانت العرب تسمي الشتاء الربيع الأول والصيف الربيع الآخر (١١٩) ولعل سبب هذه التسمية كما يرى صاحب كتاب الأنواء في مواسم العرب ، يعود إلى المطر الذي تسميه العرب ربيعا (١٢٠).

يمثل فصل الشتاء بالنسبة للناس ، فصل الأمطار والثلوج والرياح والصقيع وما إلى ذلك ، أما عند ابن الرومي فنرى أن هذه العناصر قد انصهرت جميعاً

---

(١١٨) الديوان : ٤/ ١٦٩١. ينظر بنفس المعنى ١/ ٧٧(ب٤) ، ٢٤٥(ب٤)، ٣٧١(ب١٢)،٧٠٩/٢ (ب٥٠)، ٩٥٥/٣(ب١٥) ،١١٠٢ (ب٩)، ١٢٢٤(ب٦٩) ،٤/ ٣٨٤ (ب٢٨)، ١٤٧٩(ب٨٨)،٥/ ١٨٦٤ (ب٢٧)، ٦/ ٢٢٦٣(ب٦)، ٢٢٨٨ (ب١٣٦)،٢٣١٩(ب١١) .

(١١٩) ينظر : الأزمنة والأمكنة ،١٧٠/١ .

(١٢٠) ينظر : الانواء في مواسم العرب ، لابن قتيبة / ١١٨ ، نقلاً عن الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام /١١٥ .

داخل نفسيته ، وتمخضت بولادة جديدة ، فإذا الشـــتاء عنده شخص متشنج المفاصل ، كما في قوله :

تكَلّفُـني هوَلَ السّفـار وَغـولـهُ رَفـيْقَ شِتـاءٍ مُقفـعِلّ الـرّواجبِ (١٢١)

ويزعم الباحث أن تصور الشاعر للشتاء بهذا الانكماش والإنطواء ما هو إلا مظهر من مظاهر التشاؤم الذاتي ، لكونه يثير لديه مظاهر الخوف والفزع التي تراوده ، والدليل على ذلك جعله قرين تلك الأسفار التي يخشاها والمعبر عنها بلفظة (غول) وهي لفـظة ((عميقة الدلالة لما تنطوي عليه من معنى الخطر المجاني الوهمي الذي لا حقيقة ولا واقع له، فالصورة إذن تشخيص حدقي مادي لهاجس داخلي فيها براعة تجريد وصدق)) (١٢٢).

ولهذا فإن ابن الرومي غير مرحب دائماً بالشتاء ولا يأنس لـه ، متبرماً ببرودته وثلوجه ، وبرياحه التي تسفي التراب بوجه تارةً ، وتحصبه بالبرد تارةً أخرى كما في قوله :

ولـَمْ أنـْسَ مَـا لاقيْتُ أيـّامَ صَحْـوهِ مِنَ الصّرّ فيْهِ والثـّلـُوْج الأشَاهِـبِ

...

فـَإنْ فـاتـَـهُ قـَطـرٌ وثـلـجٌ فإنـّـــــهُ رَهيـْنٌ بِسَـافٍ تـَارَة أوْ بِـحَاصِبِ (١٢٣)

وإزاء شعوره المتشائم هذا نراه يفزع إلى أحد الولاة يشكو لـه حاله من فصل الشتاء عسى أن يعينه فيه على مشاقة ، قائلاً :

ولا وربـّك مالـي بالشتـاء يـــــدٌ وقـد أتـانـي يسوق الصّرّ والـجَمـدا
وخلْفَ ظـهري من لا يرتجى أحداً سـواك للـدهرِ ، إلا الـواحـد الصـمدا
جـاء الشتاء ولـم يُعـْدِدْ أخـوك لـه يابن الاكارم– إلا الشمس والرّعدا (١٢٤)

---

(١٢١) الديوان : ٢١٩/١ . مقفعل : متشنج . الرواجب : راجبة إحدى مفاصل أصول الأصابع .

(١٢٢) ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره / ٢٤٠ .

(١٢٣) الديوان : ٢١٥/١ .

(١٢٤) م . ن : ٦٤٧/٢ – ٦٤٨ . الصرّ : البرد أو شدته .

ولأن الطبيعة في نظر ابن الرومي تشكل مظهراً من مظاهر الأحاسيس ، التي تقدر بين الفرح والحزن ، لذا يمكن القول أنها جزء من حالته النفسية الطارئة ، وبهذا تكون نفسه هي الأصل والطبيعة هي الفرع .

الصيف

وهو أحد الأزمنة الأربعة ، الذي يمتاز بالحر الشديد ، والعرب تجعل من هذا الفصل قبالة الشتاء ويفضلونه عليه ، وقد أكد ذلك المرزوقي بقوله((والصيف وأن تلظى قيظه وحميّ صلاه ، فهو هين عندهم إلى جنب الشتاء))[١٢٥].

أما موقف ابن الرومي من الصيف فنراه لا يختلف عن موقفه من الشتاء ، من حيث تلك النظرة التشاؤمية التي أعمته عن التبصر، حتى لا يكاد يرى في الحياة إلا ذلك الاسوداد الذي يخيم على نفسيته ، مما جعله لا يرى في الصيف إلا جحيماً محرقاً ، كما في قوله :

فَذاكَ بَلاءُ البَرّ عنّدي شَاتِياً وَكمْ لِيّ منْ صيْفٍ بهِ ذي مثالِبِ
ألا رُبّ نَار بالْفضَاءِ أصْطلَيتُها مِنَ الضّحّ يُودِي لفْحُهُا بالحَوَاجِبِ
إذا ظلّتِ البيْدَاءُ تطفُو إكامُهَا وَتَرْسُبُ في غمْر مِن الآل ناضِبِ [١٢٦]

وقد تتعدى تلك النظرة التشاؤمية بالشاعر في بعض الأحيان إلى ما هو أدهى وأمر ، عندما أخذ يظن بأن الصيف عدو يريد به شراً ، وفي الحقيقة ما ذلك التصور الذي نلمسه عند الشاعر، إلا لكونه كان مصاباً ((بتوهم الاضطهاد واقعاً عليه من الناس والطبيعة))[١٢٧] التي انضوت إلى مؤامرة التربص والإيقاع به

---

(١٢٥) الأزمنة والأمكنة : ١٦٨/١ .

(١٢٦) الديوان : ١/ ٢١٥ . مثالب : معايب . الضح : حرارة الشمس . الآل ناضب : السراب الجاري . إكامها : جمع أكمة وهي التل من الحجارة.

(١٢٧) حصاد الهشيم ، إبراهيم عبد القادر المازني ،مطبعة دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٢٤ / ٢٩٥ . الإضطهاد : نوع من الهذيانات تسمى هذيانات الإضطهاد وهي تشبه الهذيانات السوادية سوى أن الشخص فيها يرجع التبعة في حالته إلى تآمر الغير عليه وكثيراً ما يذكر المريض بياناً مفصلاً عن خطة كبرى دبرت لدس السم له أو لحبسه أو لقتله ويوجه الاتهام عادةً إلى البارزين من رجال المجتمع ، ينظر ميادين

وشاهدنا على ذلك ، قوله للقاسم بن عبيد الله [١٢٨] الذي يطلب منه أن يناصره على ذلك الصيف وأن لا يكون شريكاً معه للإيقاع به والنيل منه ، فالصيف وحده متكفل بذلك العذاب :

قدْ مَضى أكثر الشّتاءِ وَجَاء الصيـ ـفُ يَعْدو فَـلا تزدهُ إلتـظـاءَ
يَـا عَليماً بِمَـا أكَابِدُ فيْـهِ لا تـعـاونـه إنّ فـيه إكتفـاءَ
أنـا راج جمـيـلَ ردعـك إيـا هـ فـلا تـجـعلنّـه إغـراءَ
لا تـعن نـاره علـى الشيّ والطبـ ـخ كفى طـابخـاً بهـا شوّاءَ
الأمـان الأمـان منـك ومـنه جنّبـاني لِظـاكما الـكـوّاءَ
بل إذا ماعـدا فأعـد علـيه لا تـكونـنّ مثـلـه عـدّاءَ [١٢٩]

وربما كان من ضمن الأسباب التي جعلت الشاعر ينظر إلى الصيف بذلك التشاؤم ، هو اعتلال صحته فكثيراً ما كانت تنتابه الأسقام والعلل . حيث كان ضعيف الجلد والاحتمال لا يكاد يطيق أهون التعب ، بل يضجر من أقل مس أصابته به ظروف الطقس [١٣٠] ، ولهذا نراه يشكو من فصل الصيف قائلاً :

أيا حسرتا إن أفسد الصيفُ صحتـي فضاعف حاجاتي وأوهى قوى نَهْضى [١٣١]

وعليه يمكن القول : إن نظرة الشاعر إلى الصيف وكذلك للشتاء ما هي إلا رموز خارجية لنوازع داخليه ، أخذ يعبر عنها بصورة غير مباشرة من خلال هذين

علم النفس النظرية والتطبيقية ، أشترك في تأليفه مجموعة من المؤلفين الأجانب، بإشراف : ج ، ب جيلفورد ، ترجمة مجوعة من الدكاترة العرب ، بإشراف د . يوسف مراد ، دار المعارف ، مصر ، ط٤ ، ١٩٧٥ / ٤٠٧ .

(١٢٨) القاسم بن عبيدالله بن سليمان بن وهب الحارثي : وزير من الكتاب الشعراء ، أستوزره المعتضد العباسي ، بعد أبيه عبيد الله (ت ٢٩١ هـ) ، ينظر الأعلام ، للزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٥ ، ٥/ ١٧٧ .

(١٢٩) الديوان : ٩٣/١ .

(١٣٠) ينظر: ثقافة الناقد الأدبي ، محمد النويهي ، مكتبة الخانجي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٩ / ١٢٩ .

(١٣١) الديوان : ٤/ ١٣٨٢ .

الفصلين ، وما هذا التصور إلا لتأثره بعاملي الخوف واليأس اللذين يعتصمان بعصب الشاعر ويرهقانه ، وشاهدنا على ذلك قوله :

كلا نـُـزليه صـــيفه وشـــــــتاؤه خـلافٌ لما أهـواه غـــــيرُ مُصاقب
لهاث ممـــيتٌ تحت بيضاء سخـــنة وريّ مفيت تحـت أســـحم صـائب
يـجف إذا ما أصبح الـريـقُ عاصباً ويُغدق لـي والريـق ليس بعـــاصب
ويـمنـع منـي المـاء واللـوح جـــاهد ويغرقـني والـري رطـب المحالب (١٣٢)

فآية هذا النص في البيتين الآخرين ؛ لأنهما يظهران بوضوح عوامل الازدواجية ، فالشتاء لا يغدق إلا إذا كان الشاعر ريانا ، كما أن الصيف لا يجف إلا إذا كان عاصباً ظامئاً وكأن الشاعر في تشاؤمه طفق يرى أن ظمأه وارتواءه ينتظمان شتاء الكون وصيفه.

العـــام

يرى ابن منظور : أن العام والحول والسنة فترة زمنية محددة باثني عشر شهرا ، تأتي على شتوة وصيفية (١٣٣) وقد بين أبو هلال العسكري في كتابه (الفروق اللغوية) الفرق بين العام والسنة ، فالعام جمع أيام والسنة جمع شهور ، ولهذا يقال : عام الفيل ولا يقال سنة الفيل (١٣٤) .

---

(١٣٢) م. ن : ٢١٥/١ – ٢١٦ . مصاقب : الذي يواجه إنسان فلا يحبه . وري مفيت : أي مذهب للري ، بمعنى أنه لا ري فيه . أسحم صائب : سحاب يهطل بالأمطار .عاصباً : جافاً . اللوح جاهد : العطش الشديد . رطب المحالب : أي لم تجف الاواني التي تجمع فيها ماؤه .

(١٣٣) ينظر : لسان العرب : مادة (عوم) .

(١٣٤) ينظر : الفروق اللغوية / ٢٢٤ .

ويأتي ذكر العام في شعر ابن الرومي ، عندما أخذ يتفكر في خمسين عاماً كانت أمامه متمثله بربيع الشباب ، ولكنها مضت بلا عودة :

فكّرتُ في خمسين عاماً خلتْ كانتْ أمامي ثم خلّفتُها(١٣٥)

وكما مر بنا (١٣٦) أن الزمن النفسي زمن أنساني يتلون بتلون تجربة الإنسان ، لأنه من نسيج تلك التجربة ، ويأخذ صفاته مما يكون عليه الإنسان من حالات ، وهذا يعني أن الزمان الذي نحياه هو الزمان القريب إلى مشاعرنا . فيأتي الشعر ليعبر عن عواطفنا والتي تمثل مقاماً رفيعاً فيه ؛ لأن معظمه غنائي (١٣٧) .

وعلى هذا الأساس نرى شاعرنا أخذ يصف لنا أعواماً كأن العام فيها يوم ، إشارة إلى الشعور فيها بالراحة والأمان والمتعة ، وأيام كأن اليوم فيها عام إشارة إلى الشعور فيها بالخوف والقلق والحرمان، كما في قوله :

فأعوام كأن العام يومٌ وأيامٌ كأن اليومَ عام (١٣٨)

المبحث الثاني

الزمان أو الدهر

للزمان ألفاظ وعدة معان ، وكِثيراً ما تستخدم تبعاً للدلالة الزمنية التي وضعت من أجلها ، ومن بين أكثر تلك الألفاظ التي نجدها قريبة من الزمان هي لفظة (الدهر) الذي أصبح موضع خلاف بين اللغويين في تحديد مداه ، فبعضهم من

---

(١٣٥) م . ن : ١ / ٣٦٠ .

(١٣٦) ينظر: التمهيد / ١٣ .

(١٣٧) ينظر: النقد الجمالي وأثره في النقد العربي ، روز غريب ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٨٣ / ٩٩ - ١٠٠ .

(١٣٨) الديوان : ٦ / ٢٢٨٤ .

ذهب إلى أنه الأبد أو الزمن الذي لا ينقطع [١٣٩] أو أنه هو الأمد المحدود [١٤٠] في حين نجد من يلغي الفصل بينه وبين الزمن إلغاءاً ويعدهما واحداً لا أثنين [١٤١] .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى الرأي القائل أن الزمان أو الدهر هما واحد لا اثنان [١٤٢] ، وعلى ما يبدو أن هذا الرأي هو الأصح ، وشاهدنا على ذلك قول الشاعر الجاهلي حاتم الطائي :

هـل الدّهر إلا اليوم أو أمس أو غـدُ كــذاك الزمان بينـــنـا يتردَدُ [١٤٣]

فألفاظ الدهر كثيرة وهذا الذي جعل الشعراء على وجه الخصوص ، أن يتوسعوا في استعارة الأوصاف له [١٤٤] والعرب تنسب الأفعال ، إلى الدهر لوقوعها فيه [١٤٥] ، حتى نراهم كثيراً ما يسبون الدهر ، وهذا ما نهى عنه الرسول محمد ﷺ بقوله : ﴿لا يسب أحدكم الدهر، فإن الله هو الدهر .... ﴾[١٤٦] .

---

(١٣٩) ينظر : لسان العرب ، ٣/ ١٨٦١ .التعريفات ، للجرجاني ، أبي الحسن علي بن محمد بن علي (ت٨١٦ هـ) ، الدار الوطنية للنشر ، ١٩٤٨ / ٥٦ .

(١٤٠) ينظر : لسان العرب ، ١٤٣٩/٢ .

(١٤١) ينظر: م . ن ، ٣/ ١٨٦٧ .

(١٤٢) ينظر : الأزمنة والأمكنة ، فقد جعل المرزوقي لفظة الدهر قرينة بالزمان / ٩١ – ٩٣ . وينظر : الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام / ٦٢ .

(١٤٣) ديوان حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره ، تح : د . عادل سليمان جمال ، مطبعة مدني ، القاهرة (ب – ت) / ٢٦٢ .

(١٤٤) ينظر : سر الفصاحة ، لأبن سنان الخفاجي(ت ٤٦٦هـ) ، تح : علي فوده ، مطبعة محمد علي ، مصر ، ١٩٦٩ / ١١٩ .

(١٤٥) ينظر: شرح مشكل أبيات المتنبي ، لأبن سيدة (ت٤٥٨ هـ)، تح : محمد حسين آل ياسين ، بغداد ، ١٩٧٧ /٣٢٨ .

(١٤٦) صحيح مسلم : لأبي هلال الحسن بن عبدالله النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبوعات دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، باب عن نهي سب الدهر ، ١٧٦٣/٤ .

والشعراء كثيراً ما تحدثوا عن الزمان أو الدهر ووقفوا عندها ، وقلما نجد شاعراً يخلو ديوانه من لفظتيهما ، إلا أن ابن الرومي . يعد من ألمع شعراء العربية الذين تعمقوا في فهم الزمان [١٤٧] ؛ لأن الزمان أو الدهر عند شاعرنا يختلف بصيغته الموضوعية عن أي شاعر آخر ، وإلا فما هو ظنك برجل قد أرصد له الدهر سهامه ، وحرمه من أهله وأحبته ، وابتلاه بالأمراض والأسقام واعتلال صحته ، وعاكسه في كل أمانيه وما كان يبتغيه ، وجعل الناس بعضهم يهزؤون به ويسخرون منه ، فتكاتفت عليه الهموم وأشتدت به المحن . حتى جعلته ساخطاً على الحياة ناقماً على العصر وأبنائه ، متحملاً على الزمن وصروفه ، طافح النفس بالمرارة والألم إلى حد لم يعرفه أحد من معاصريه [١٤٨] ، فبعد كل هذا ما كان أمامه إلا أن يصب جام غضبه على الدهر ، شاتماً له ومنكلاً به ، لكونه العاذل الذي يفرق بين الأحبة ، ولا يدوم له إحسان كما في قوله وهو يرثي خاله :

ألا تَـعِسَ الدّهــرُ المُفــــرّق بيننا ... وإن كـــانَ كُلّ عَاثِـراً بـِـــــعثارهِ
ألحَّ علـــينا مُولـــــــعاً بـــسراتنا ... كمَا أولـــع الجـاني بخير ثـِمارهِ
أرى الدّهْرَ لا يـــأوى لِعـولة مُعْول ... وَلا يرعوي للـصوت عـند أنشِمـارهِ
يصول فلا يرثـــى لثـــكل كبـــيرةٍ ... وَلايُتم طـفل يا لـسوءِ اقْـتدارهِ [١٤٩]

ولإشتداد وطأة هذا الزمن على ابن الرومي جعله لا يرى فيه إلا الغدر وعدم الأمان ، فهو يعطي للإنسان الأمن في حالة الخوف ، ولكن حالما يأمن الإنسان له حتى يمكر به نظير ذلك قول الشاعر :

ولـمْ تر قطّ أغْـدرَ مِنْ زمـــان ... وُلا بنذوره في الـــــغدْر أوْفـــى
فإنْ قدّمـــتَ خـــوفاً جرّ أمْـــنا ... وإنْ قدّمتَ أمْـــــنَا جرّ خوْفا [١٥٠]

---

(١٤٧) ينظر : ابن الرومي في الصورة والوجود /٨٦ .

(١٤٨) ينظر : حصاد الهشيم /٢٨٢ .

(١٤٩) الديوان : ١١٣٣/٣ .

(١٥٠) الديوان: ١٥٧٩/٤ ، وينظر كذلك بنفس المعنى ١٠٢٢/٣ ، ١٥٠٦/٤ .

ويبدو أن تلك الصفة الذميمة التي وصف بها ابن الرومي الزمان ، بالغدر والمكر ثابتة في نفسه لا تتغير ، لذا فهو يوصي الإنسان أن لا يظن بالزمان غير هذا الظن كما في قوله :

مكْرُ الزّمان علـــينا غيرُ مأمـــون فلا تظنّـنّ ظنـّــاً غير مـظنونِ (١٥١)

فتلك التجربة المرة القاسية مع الزمان أو الدهر ، قد خلقت لدى شاعرنا نوازع الخوف والرهبة ، فهو لا يكف عن سعيه الدؤوب لإحباطه والنيل منه ، وتظهر ملامح تلك المخاوف في عدة مواطن من شعره ، أخذ يعبر عنها بأشكال حسية ، كأنه يراها ويحس بها جاعلاً من الدهر على هيئة (ليث) مفترساً والناس له فرائس لا يفلت من قبضته أحد سواء أكان قوياً أم ضعيفاً ، وهو لا يهاب رئيساً إن أراد هلاكه ولا يعطف على مرؤوس وهذا التشخيص للدهر ، كما يرى الدكتور حسني عبد الجليل ما هو إلا ((صورة تمثل بشاعة الوجود ، وتكشف عن الإحساس بالفجيعة التي تنتظر الإنسان)) (١٥٢) ، يقول شاعرنا :

والـــدهر كاللـيث فرّاس ونـحن لـه فرائـــس ليس فيـها غير مفروس
وما قـــويٌ علـــمناه بمـــحترس ولا ضـــعيفٌ رأيـــناه بمـــــحروس

إذا ســـعى لهـــلاك الناس لم ترهُ يخشى رئيساً ولا يـــأوي لمـــرؤوس
... ...
كـــذلك الـــدهر فأعـــرفه بشيمته نُضْحى له بين منزوع ومـــغروس(١٥٣)

فهذه القوة الرهيبة التي يمتلك بها الزمن ناصية الأشياء ، ويلوي بها ذراع كل قوي ، آتية مع إمتداده وإستمراره ، والشاعر حينما يصور الدهر ويجسده بتلك الصورة المفزعة ، إنما ليكشف لنا عن مدى كوامنه الداخلية إزاء الزمن والمتمثلة

---

(١٥١) م . ن : ٢٤٦٢/٦ .

(١٥٢) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي / ٥٩ .

(١٥٣) الديوان : ٣/ ١٢٢٧ ،وبنظر بنفس المعنى ،٢١٠/١ (ب٥٢) ، ١٩٠ (ب ١٣٧) ، ٢/ ٨١٠ (ب٢) ، ٤ /١٣٧٦ (ب ١٤)، ٥/ ٢٠٤٤(ب ٥٦) ، ٦/ ٢٣٠٤ (ب ٧٥) ، ٣٣٠٦ (ب٩٩) .

بذلك الشر الذي يدخل في نسيجه ، مما يجعله يكثر من هذا التشخيص ، ولعل السبب في ذلك ، ليدل على شدة معاناته وانكساره وضعفه في مواجهة الزمن المحيط به ، وافتقاره إلى القوة التي تسانده للوقوف بوجه .

واعتماداً على ذلك نرى أن الزمان يعد أحد عوامل الخوف عند ابن الرومي مما جعله في صراع دائم معه ، وهذا الصراع قد يفضي به إلى العبودية له في بعض الأحيان ، حتى ليفقد الثقة به والاطمئنان إليه ، كما في قوله :

أعْجب بآمـــــن دَهْر وَهْوَ مبْـتركٌ يُـعْريهِ منْ وَرَق طـوْراً وَمنْ نجبِ

حَسْـبُ أمْـرئ مِنْ جنىْ دَهْر تَطاوُلهُ وَإنْ أجِـمّ فـَلمْ ينكبْ ولـمْ يُنبِ (١٥٤)

ومن هنا ، فالباحث يقف في صف من يقول: أن نظرة الشاعر للزمان أو الدهر ما هي إلا نظرة تشاؤم ؛ لأن الدهر من المحال أن يسعد السعداء ، إلا ويشقى بذلك الأشقياء ، يقول:

وَمُحـَـالٌ أنْ يَسْـعَدَ السّـعَداءُ الـ ـدهْر إلاّ بـِشِـقوَةِ الأشْـقِيَاءِ (١٥٥)

وقوله :

والحالُ من ســـعد يســـاعدنا طـورا ، ونحســن مُعْـقب نكدهْ

... ...

نبكـي علـى زمـن ومنْ زمـن فبكاؤنا موصـولة مُدَدُهْ (١٥٦)

وعليه فإن هذه الإشكالية التي يعيشها الشاعر، جعلت منه إنساناً متمرداً على الواقع يشك فيما هو صحيح وملموس ، وهذا ما دعا النقاد إلى اتهامه بالتطيّر (١٥٧)

---

(١٥٤) الديوان : ١/ ١٩٠ . مبترك : معتمد على دهره .

(١٥٥) م ٠ ن : ١/ ٩٨ .

(١٥٦) الديوان : ٢/ ٦٦٠ .

(١٥٧) التطيّر أو الطيرة : مشتق من أحد شيئين : مشتقة إما من الطيران كأن الذي يرى ما يسمع يطيّر كما يقول بعضهم :

عوى الذئبِ فاسْتأنسْت للذئبِ إذا عَوىْ وَصـوّت إنْسَـانٌ فكـدْت أطيّر

وإما من الطير : وهو الأصل والمختار من الوجهين ، فقد كان العرب كثيراً ما تتطير من الغراب ، ينظر : العـمدة في محـاسن الشعر وأدبه ونقده ، لأبي علي

الذي أثر في حياته ومزاجه ، وأعطاه عن الحياة صورة رديئة [١٥٨] وكذلك نشأ عنده الوسواس [١٥٩] ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان بعض الشيء ، بل راح يتصور أن الدهر يشايع الناس في نبذه واضطهاده ، وأنه لن يبرح عن محاربة ذلك العدو المجهول ، الذي يدعوه حيناً الدهر وحينا آخر القدر ، وما إلى ذلك من الألفاظ التي تختلف ظاهراً وتتفق ضمناً في دلالتها على أن الشاعر كان يعيش تحت وطأة هذا الوهم [١٦٠] ويتضح لنا ذلك في قوله :

بلْ تـعَاميْتَ غيْرَ أعْمَـــى عَن الحَقّـ ـق نـَهَاراً ي ضـــــــــحْوة غـَــرّاءِ

ظالِماً لـــــي معَ الزّمـَـان الذي ابْتزْ زَ حقـوْقَ الــكرَام للْوَمَـــاءِ [١٦١]

وما الزمان الذي يقصده الشاعر هنا ، إلا رمز لذلك العدو الغامض الذي ما برح ابن الرومي يشعر أنه يخاصمه ويوقع به ، وقد نراه يصرح بهذا العدو كما في قوله لأحد الولاة:

أتسلـُمـــني وأنْتَ أعزّ جـــــار لـــــدهر لا يزال عَليّ يعـدو؟[١٦٢]

الحسن بن رشيق القيرواني الازدي (ت٤٥٦ هـ) ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطـــبعة دار الجيل بيروت ، لبنان ، ط ٤، ١٩٧٢ ، ٢٥٩/٢-٢٦٠ ، وقد أشار الحصري (ت٤٥٣ هـ) ، في (زهـر الآداب وثـمر الألبـاب) إلى الفـرق بين الطيرة والفال ، فالطيرة أن يزعم المرء على عمل فإذا رأى ما يتطير منه رجع عنه ، أما الفال فإنه لا يرد المريد عما يريد : ٥٢٧/٢-٥٢٨ .

(١٥٨) ينظر : من حديث الشعر والنثر ، د . طه حسين ، دار المعارف ، مصر ، ط١٠ ، ١٣١/١٩٣٦-١٣٢ ، من تاريخ الأدب العربي ،العصر العباسي الأول (القرن الثاني) ، د . طه حسين ، دار العلم بيروت ، لبنان ، ط٤ ، ١٩٨٢ ، ٣٧٤/٢ .

(١٥٩) الوسواس : فكرة معاودة لا يستطيع الشخص التخلص منها ، على الرغم من أنه يدرك سخفها وتجردها من المعنى وعدم جدواها .. ينظر : ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية ، ٣٨٩/١ .

(١٦٠) ينظر ، فن الهجاء ، إيليا الحاوي ، منشورات ، دار الشرق الجديد ، ط١، ١٨٦/١٩٦٠ .

(١٦١) الديوان : ٧٠/١ ، غرّاء : بيضاء .

(١٦٢) م . ن : ٧٧٤/٢ .

ومما يتراءى لنا من خلال هذين النصين أن الزمان أو الدهر لا يكون وحده سبباً في معاناة ابن الرومي ((فللإنسان في بعض الأحيان سطوة قد تكون أشد من سطوة الدهر ، لأنه ابن زمانه الذي عاش فيه))[١٦٣] حتى نرى الشاعر على الرغم من تحامله على الدهر وتفجعه به ونقمته عليه ، إلا أنه يفضله على أحد أصدقائه وهو ((أبو إسماعيل بن نو بخت)) [١٦٤] حيث يجد قسوته تتعدى قسوة الدهر، إذ يقول :

ليْسَ ينْفَكّ مِنْ قِصَاصي إذا أحْـ سَنَ دهْـرٌ إليّ أوْ مِنْ عِقَابي
كُلّمَا أحْسَنَ الزّمانُ أبَى الأحْـ سَانَ يَا للّعُجَابِ كُلّ العُجَابِ
....
لِمْ – إذا أقْبَلَ الزّمَانُ بإخْصَا بٍ – تربّعْتُ منْكَ في إجْدَابِ؟ [١٦٥]

ولعلنا نجد أن هناك شيئاً ما يستوقفنا في هذا النص ، وهو نظرة الشاعر المتغيرة إلى الدهر ، فتارة نراه يكره هذا الدهر ويتشاءم منه وتارة أخرى يرضى عنه ويتفاءل به وما ذلك إلا لأنه ((كان يتعسف به يقين اللحظ التي يمر بها ، فهو عبد للحظة والانفعال اللذين ينزويان به وقد يخالفان نظرته العادية أو معتقداته)) [١٦٦] .

وما هذا الصديق ، إلا عينة من مجموع أولئك الناس الذين أخفق ابن الرومي إخفاقا ذريعاً في كيفية التعامل معهم ، حيث كان لاختلال أعصابه وكثرة

---

(١٦٣) الزمان والمكان في شعر أبي فراس الحمداني ، رسالة(ماجستير) ، ناظم حمد خلف ، كلية التربية ، جامعة الانبار ، ١٨/٢٠٠٢ .

(١٦٤) أبو سهل إسماعيل بن علي بن نو بخت من كبار الشيعة وكان فاضلاً عالماً متكلماً ، وله مجلس يحضره جماعة من المتكلمين ، ومن كتبه : الاستيفاء في الإمامة ، والرد على الغلاة ، ينظر ، كتاب الفهرست ، أبو فرج محمد بن إسحاق بن يعقوب ابن نديم (ت٣٨٥ هـ) ، تح: رضا تجدد ابن علي بن زين العابدين ، طهران ، (ب – ت) / ١٩٧ .

(١٦٥) الديوان : ٢٨١/١ .

(١٦٦) فن الهجاء وتطوره عند العرب ، إيليا الحاوي ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٣ ، (ب- ت) /٥٢٤ ، وينظر ، ابن الرومي فنه ونفسيته /١٣٣ .

تطيره وتشاؤمه . هو تعرضه إلى السخرية من قبل الناس وابتعادهم عنه وبغضهم له [١٦٧] فساءت بذلك علاقته بهم وأشتدّ غضبه وسخطه عليهم ، حتى انعدمت كل أواصر المحبة والتآلف بينهم ، مما جعله لا يرى فيهم إلا كل شر ورذيلة .

وبما أن الناس هم الصورة التي تحاكي الزمن ، فإن صلحت هذه المادة صلح وإن فسدت فسد [١٦٨] لذا نلحظ على شاعرنا دائماً ما يقرن هجاؤه للمجتمع بهجائه للدهر ، فهم صنو الزمان ومادته وخليطه المشارك في الشر ، ولعل سبب ذلك الإقران كما يرى إيليا الحاوي راجع إلى التوهم ، حيث يرى الشاعر أن فساد المجتمع يتأدى عن نوع من خبط في الحكمة التي تنتظم العالم [١٦٩] ولهذا نراه يتساءل : هل من العدل أن يستكثر عليه ما يستغله للأنذال والتافهين كالشرطة والكتاب ، وبهائم التجار الذين فازوا برغباتهم في ظل دهر يشبههم في سخفه وتلعبه واحتياله ؟ :

أمِنَ العْدل أنْ تَعُدّ كَثِيْراً ... لِي ما تسْتقلّ للأوقابِ
أتُرَانِي دُونَ الأولى بَلغوا ألآ ... مَالَ منْ شُرْطة ومن كتّابِ
وَتجارٍ مثْل البَهَائِم فازُوا ... بالمُنى في النّفُوس وَالأحْبَابِ
... ...
أصْبَحُوا يلعَبُونَ في ظلّ دهر ... ظاهر السّخْفِ مثْلهم لعّابِ [١٧٠]

ويبدو أن ذلك التصور الذي يسيطر على تفكير ابن الرومي هو دائماً ما يجعله يضمر نقمة وحسداً على نعمة الآخرين ، إلا أن ما يذكيّهما في نفسه ، شعوره بالظلم والاختلال الاجتماعي ، ويتبين ذلك في قوله :

لَمْ أكُنْ دُونَ مالِكِي هذِه الأمْـ ... ـلاكِ لوْ أنْصَفَ الزّمَانُ المُحَابي [١٧١]

---

(١٦٧) ينظر : من حديث الشعر والنثر /١٣٢ ، وينظر من تاريخ الأدب العربي /٣٧٤ .

(١٦٨) ينظر : الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام /١٩٠ .

(١٦٩) ينظر : ابن الرومي فنه ونفسيته /١٧٢ .

(١٧٠) الديوان : ١/ ٢٨٢ ، الأوقاب : جمع وقب وهو النذل الدنيء . وينظر بنفس المعنى : ١/ ٧٠ (ب ١٠٩) ، ١٧٤ (ب١ ، ٢) ، ٢٨٠ (ب ١٠) ، ٣ / ١١٤٥ (ب ١،٢) ٤/ ١٠٦٥ (ب ٢) ، ١٤٢١ (ب ١ ، ٢) ، ١٥٧٥ (ب ١٦ ، ١٧) ، ٦ / ٢٥٥٣ (ب ١،٢) .

إذن تلك المواجهة القاسية إزاء الناس ، وشعوره بعدم المساواة ، قد مثلت لنا انكسار الشاعر معنوياً ، ولا سيما عند إحساسه بالغبن من قبل الخلفاء ورجال الدولة ، فهو لم يحض بالمكانة عندهم ، كما هو حال معاصريه ، ولعل السبب في ذلك كما يرى بعض الباحثين يعود إلى ((سوء طالعه في قصور الملوك ، وجبنه عن اقتحام أجوائهم واستهانتهم بـه لضالة شخصه ، وميوعة أسلوبه المتجافي عن القعقعة والجلبات)) [١٧٢] أو يكون راجعاً إلى ((الواقع السيئ الذي كانت عليه الخلافة ، زمن المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي ، والدسائس الكثيرة في قصورهم ، هي التي نفرته عن أجوائهم وأبعدته عن أبوابهم))[١٧٣] .

وبذلك يتبين لنا أن السلطان يمثل زمن الشاعر بسطوته وعقابه ، فهو الذي يثير مخاوفه مما يجعله دائماً يكون على حذر شديد منه ، لذا يقول :

لاَ أَتّـذع السّـلـْطانَ في أيـّـامِهِ خوفاً لِسـطوتِهِ وَمرّ عِقابِـهِ

وَإذا الزّمَانُ أصَـابَهُ بِـصُرُوفِـهِ حَاذرْتُ رَجْـعَتـهُ وَوَشْكَ مثابِهِ [١٧٤]

وعلى النقيض من هذا ، يأتي السلطان ليكون مصدراً للقوة والأمان عند ابن الرومي ، فهو الملاذ الذي يحمي الناس ، وينتزع لهم حياة العز ، ويدفع عنهم شرور الزمان ، وشاعرنا كان بحاجة إلى ذلك النصير والمساند ، كي يتوارى تحت ظله الوارف ، وليمكنه من قهر الزمان ، لذا نراه يقول ، للقاسم بن عبيد الله :

إذا اسْتمْسكتْ كفي بـعروة قاسمٍ فلسْـتُ عَلَى صرْفِ الزّمان بهالكِ [١٧٥]

ومثل هذا قوله لإسماعيل بن بلبل[١٧٦] :

---

(١٧١) م . ن : ١/ ٢٨٦ .

(١٧٢) ابن الرومي في الصورة والوجود / ٢٨٢ .

(١٧٣) الأدب العربي في العصر العباسي ، د . ناظم رشيد ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، ١٩٨٩ / ١٣٣ .

(١٧٤) الديوان : ١/ ٢٤٦ .

(١٧٥) الديوان: ٥/ ١٨٦٤ .

(١٧٦) أبو صقر إسماعيل بن بلبل الشيباني ، ولي الوزارة للمعتمد في سنة (٢٦٥ هـ) وعزل في سنة (٢٧٧ هـ) ثم حبس وعذب إلى أن مات وذلك في سنة (٢٧٨ هـ) ، تنظر

لا أذم الــزّمان ما كـــــنت ترعى يا أبا الصـــــقر حرمتي وذمامي (١٧٧)

وعلى الرغم من ذلك التودد والتقرب الذي يظهره إلى الولاة ، إلا أنه لم يفلح في تحقيق أمانيه ، فالمتملقون في عصره يحصلون على المناصب والمنزلات العليا ، وأصحاب العلم والفطنة يتحرقون ألماً من الحسرة والخذلان ، فلم يصل إلى ما وصل إليه شعراء عصره ، لأنه ليس مخادعاً طلب الحق بقوة المؤمن بهما ، لكنه ضاع في عصر اختلفت به الموازين (١٧٨) وقد عبر عن ذلك بقوله :

دهـــرٌ علا قـــدر الوضـيع به وهـــوى الشريفُ يحـطه شرفهْ

كالبـــــحر يرســـــب فيه لؤلؤه سفلاً ، وتطـــفو فوقه جِـيفهْ (١٧٩)

ولو تأملنا هذا النص ، لوجدنا الشاعر ينعى العدالة الاجتماعية ، كما ينعى بؤسه ومصيره في مجتمع لا يأخذ بحق الجدارة ، بل بالاغتصاب الذي يقوم على الحيلة والكذب ، إذ تنعكس حكمة الأشياء ، وينعدم الاستحقاق فلا يرتفع المرء بفضائله بل بتنكره لها ، فهو يسمو برذائله بينما يقع أصحاب الحق والكفاءة في القعر ؛ لأن الدهر متقلب يرفع من قدر هذا ، ويحط من قدر ذاك ، وهو الذي نراه مهيمناً على قصيدة ابن الرومي ، ويمنحها شعوراً فيه حدة الصراع ومرارة الوقع المؤلم وإلى ذلك يذهب شاعرنا :

قـاتـَل اللهُ دهْـــرنـَا أوْ رَمـَـــــــاهُ باسْـــتِوَاءٍ فقـَد غـَدا ذا انـقـِلابِ

يَعْلـفُ النّاطقـِيْن مِنْ جَوْرِهِ الأجْـــ ـلالَ وَالنـّاهِقيْنَ مَحْـضَ اللّبَابِ (١٨٠)

أخباره في الوزراء وتحفة الأمراء من تاريخ الوزراء ، لأبي حسن بن هلال الصابي ،(ت ٤٤٨ هـ) ، تح : عبد الـستار أحمد فراج ، دار أحياء الكتب العربية ، يحيى البابي الحلبي وشركاؤه ، ١٩٥٦ / ١٣ ، ٤٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ .

(١٧٧) الديوان : ٦/ ٢٤٠٠ .

(١٧٨) ينظر : الهجاء عند ابن الرومي ، عبد الحميد جيده ، منشورات المكتب العالمي للطباعة والنشر ، بيروت ، ٧٢/١٩٧٤ .

(١٧٩) الديوان : ١٥٧١/٤ .

(١٨٠)الديوان: ٢٨٦/١ ، الناطقين : المفكرين . الناهقين : الذين يشبهون الحمير . محض اللباب : زبد الأشياء .

ونعتقد أن السبب الذي جعل ابن الرومي يؤكد هذا التقلب في الزمان ، ما هو إلا لكونه كان يدرك حتماً قدر نفسه ، ولا تخفى عليه مكانته من الفضل والاستحقاق ، ولكنه لم ينل ما كان يؤمله ، لذلك شعر أنه مغصوب في دولته وفي زمنه ، وهذه الإشكالية الجديدة تضاف إلى مجموع ما يعاني منه من الذل والانكسار إنه في ظني الأنحدار في مستنقع الهزيمة :

في دولتي أنا مغصوب وفي زمـــني عودي ظمـــــئٌ بلا ري ولا بلل (١٨١)

فلا جرم إذن إذا ما قلنا : إن الزمان قد ناصب له العداء ، وضيق عليه الرزق وحرمه من متع الحياة على حبــه لها ، وأخره حيث قدم أنداده ومن هم دونه ((فنبذ وضاع كجوهرة في قبر أو كمصحف في بيت زنديق))(١٨٢) .

ولكن على الرغم من ضنكة هذا الزمن وقسوته عليه ، نجده أحياناً يلملم أشلاء نفسه المبعثرة ، ويتماسك في وجه المصائب والآلام التي قد أحلها الدهر بساحته ، فهو لم يقع في ((شرنقة الذات العاجزة)) (١٨٣) ، بل تسلح بالشعر، لينتقم لنفسه من هذا الدهر وأهله ... بالهجاء أشد انتقام (١٨٤) فنراه يقول في أخبث ما قيل عنده في الهجاء ، منغصاً من قدر هذا الدهر وأهله :

آيستُ من دهـــري ومن أهـــــله فليـــــــــس فيهم أحـدٌ يرضى
إن رُمـــــــتُ مدحاً لـــم أجد أهله أو رمتُ هجــواً لم أجد عِرضـــا (١٨٥)

وأحيانا أخرى نراه يلتجأ إلى الصبر فيرى فيه منجاه من مكائد الدهر ، وهذا تسليم لإرادة الله وحكمته ، حيث يقول :

ولما رأيتُ الــدهر يؤذنُ صـــرفُه بتفريق مـــا بيني وبين الحبـــائبِ
رجعت إلى نفـــسي فوطنتُها علـــى ركوب جميل الصـــبر عند النوائبِ (١٨٦)

---

(١٨١) م . ن : ٢٠٤٩/٥ .

(١٨٢) ابن الرومي ، خليل مردم بك ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ٥٧/١٩٨٨ .

(١٨٣) الواقعية والإلتزام ، نبيل سليمان ، سوريا ، ٨٩/١٩٨٥ .

(١٨٤) ينظر : ابن الرومي ، خليل مردم بك /٥٧ .

(١٨٥) الديوان : ١٤٢١/٤ .

(١٨٦) م . ن : ٣٥٢/١ .

أو نجده يخلق لنفسه زمناً من اللامبالاة ، أو ((الهام شعري متمرد على الواقع لا يعرف الإذعان ، لذلك كان قطب الرحى فيه الرفض بكل إحيائاته)) [١٨٧] في مجتمع ما كان ينظر إليه إلا متطيراً أو متشائماً .

ومن أجل أن يتقاضى عن هموم ذلك الدهر ويتشاغل عن أحداثه . راح ينصرف إلى ملذات الحياة وأطايبها ويتهافت عليها تهافت من لا يحب أن تفوته المتعة [١٨٨] تاركاً هـذا الزمان على ما هو عليه ، لكونه يرى بأنه لا يمكن إصلاحه:

خلَّ الــزّمانَ إذا تَقاَعَسَ أوْ نَــجحْ واشكُ الهمومَ إلى المُــدامةِ والقدَحْ
وأحفظ فؤادك إنْ شَــربتَ ثــلاثة وأحْــذرْ عليه أنْ يـِطيرَ من الفرحْ
هذا دواءٌ للهُــــمُوم مــجرّبٌ فاسْمَعْ نصـيحة حـازم لك قدْ نصَحْ
ودع الزّمانَ ، فكَــمْ نصـيح حـازم قدْ رام إصلاح الزّمــان، فما صلحْ [١٨٩]

وما هذا التبرم في الحقيقة إلا تهرب من الواقع المؤلم الذي وجد الشاعر نفسه منطوياً تحت عذابه ، وأيضاً ليرفع عن نفسه مسؤولية فشله وتخاذله ، ليضعها على كاهل الزمن ((ليهدئ بذلك الصراع بينه وبين ذاته)) [١٩٠] .

وفي بعض الأحيان يتحول هذا الصـراع إلى نوع من أنواع التحدي ؛ لأن ((الإنسان ليشعر بضرورة التغلب على الزمان ، وهو لهذا قد يحاول عن طريق الفعل أن يجمع شتات ذاته في الحاضر، وكأنما هو يكتشف في الآن أقسام الزمان ، ليخلق من التحامها نوعاً من الأبدية))[١٩١] لذا نراه يعلن صرخته بوجه الزمان قائلاً :

---

(١٨٧) التجربـة الخلاقـة ، البروفيسـور ، س . م - بـورا ، ترجمـة سـلافة حجـاوي ، ط١ ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٧٠/٣٤ .

(١٨٨) ينظر : ابن الرومي حياته في شعره ، عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٧ ، ١٩٦٨/١٢٦ .

(١٨٩) الديوان : ٢/٥٦٨ .

(١٩٠) ابن الرومي فنه ونفسيته /١٤٣ .

(١٩١) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي /١٦ .

إنّ من ساءهُ الـــــزّمان بـــشيءٍ لأحـــــقّ امرئ بـــــأن يتَسلى
أترى أن أســـوء نفســـي لِمـــا ساء نـي الـــــدّهر لا لعـمري كلا[١٩٢]

ولذلك نزعم أن مهمة الشاعر تبقى عصية على الفهم ، لأنه يقدم لنا الزمان بحقائق أدبية لا تنفصم عن الواقع وأن تجاوزته ، فالحقيقة الأدبية ((هي تلك التي تقدمهـا لنا التجــربة الإنســـــانية الناشئة عن عــلاقة جوهرية بين الذات والموضوع)) [١٩٣] .

وهذه الحقائق هي خلاصة تجارب الشاعر مع ذلك الدهر، الذي كان معه في صراع دائم غير متكافئ كانت النتيجة ، أن أحدث له معاناة نفسية حادة وصلت به إلى حد التطيّر ، والتشاؤم ، فضلاً عن ذلك الشعور بالإضطهاد ، مما كان له إنعكاس كبير على مجمل حياته ، حيث جعلت منه إنساناً غير متكيف مع الواقع الاجتماعي الذي يعايشه ، فثقلت عليه صدمات الخيبة ، وساء ظنه بإنصاف الناس فوهن ما فيه من بقية عزم الشباب ، وترك السعي وانطوى على اليأس ، بعد أن فشل في إثبات وجوده بزمن لم يستعد له بعدة تعينه على مشاقة ، حتى أصبح نقيض الرجل الذي يصلح لمثل زمنه .

وابن الرومي لو كان بيده أن يلغي زمــانه بزمان آخر لفعل ذلك ، ولكنه كان يدرك حتماً بدوران عجلته ((فهو المتحرك أبدا والذي يحرك ما حوله في كل اتجاه)) [١٩٤] لذلك ضاع ابن الرومي في زمن لم يترك له إلا المعاناة والألم .

---

(١٩٢) الديوان : ١٨٩٣/٥ .

(١٩٣) قضايا الإنسان في الأدب المسرحي العربي المعاصر ، د . عز الدين إسماعيل ، دار الفكر ، ٢٣/١٩٨٠ .

(١٩٤) مشكلة الإنسان /٨١ .

المبحث الثالث

زمن الشباب والشيب

لا ريب في أن الزمن يمر ويتسارع ، وهو في حركة مستمرة لا تنقضي ، وما رحلة الإنسان فيه وتغير مراحل حياته إلا دليل على ذلك ، ومن بين أكثر تلك المراحل العمرية التي نجد الإنسان منشغلاً بها وتثير نوازع الهم والحزن فيه ، هي مرحلة إنقضاء الشباب وبداية الشيخوخة والكبر ، لأن الشباب يمثل لديه الربيع العامر بالبهجة والسرور و ((الثمر الحالم الزاخر بأنواع المتع والملذات))[١٩٥] وهو عزة نفسه وقوته المتمثلة بالحيوية والعطاء ، ولهذا فعندما يفقده يشعر بطبيعة الحال بالتغير وألم المعاناة . ويبقى بين الماضي والحاضر والمستقبل تتنازعه الآلام الكثيرة بين ندم وحسرة وخوف من المجهول [١٩٦] وما ذلك إلا أنه قد أدرك عدم قدرته على مواجهة متاعب الحياة مثلما كان يواجهها في شبابه بقوة وإرادة وجبروت ، أما في

---

(١٩٥) الشيب والشباب في الأدب العربي ، محمد حسن الشيخ علي الكتبي ، المكتبة الوطنية ، بغداد ، مطبعة الآداب ، النجف الأشراف ، ١٩٧٢ /٢٢٨.

(١٩٦) ينظر: الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي/ ١١٠ .

الشيخوخة فهو كائن يعيش على ماضيه أكثر ما يعيش على حاضره [١٩٧] حيث تنتابه أحلام اليقظة والتي لا يجد غيرها ميداناً لتحقيق الذات والتعويض عما فات ، فنجده يشيد بالماضي وبما حققه في أيام شبابه وباكياً على هذا الشباب الغارب الذي كان فيه أشد قوة وقدرة على الفعل [١٩٨] .

والشعراء كثيراً ما بكوا على شبابهم وتفجعوا عليه ، وكأنهم قد فقدوا عزيزاً عليهم حيث جاءت أشعارهم حافلة بذلك البكاء ، والى هذا أشار ابن خلكان في وفيات الأعيان بقوله: ((ما بكت العرب على شيء كبكائها على الشباب وما بلغت كنهه)) [١٩٩].

وقد ذهب أحد الباحثين إلى تعليل كثرة بكاء الشعراء في العصر العباسي على شبابهم قائلاً : ((وأكبر الظن أن ما شاع في عصرهم من الملاهي والملذات ، تلك التي تهالكوا عليها وأنغمسوا إلى آذانهم فيها ، هو الذي أفضى بهم إلى الجزع والهلع حين ودعوا شبابهم وفقدوا بفقده كل المتع فإذا هم يبكون عليه ، ويحنون إليه بكاءً وحنيناً لا انقطاع لهما ولا خلاص منهما)) [٢٠٠] .

ولعل أهم شاعر تفجع على شبابه وجزع من مشيبه .... هو ابن الرومي [٢٠١] فقد كان له في الشيب والشباب والبكاء على عهود النواظر والصبا ما يقل نظيره في الأدب العربي ، وما لا يدانيه فيه الهذلي وأبو العتاهية وأبو تمام ومن معاصريه

---

(١٩٧) ينظر: الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة ، فواد البهي السيد ، مطبعة دار التأليف بالمالية ، دار الفكر العربي ،مصر ، ط٢ ، ١٩٦٨ /٣٤٨ .

(١٩٨) ينظر: الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي / ١٠٠ .

(١٩٩) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خلكان (ت ٦٨١هـ)، تح : محيي الدين عبد الحميد ، دار السعادة بمصر ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ : ٢٤٤/٦ .

(٢٠٠) شعراء الدولتين الأموية والعباسية ، د. حسين عطوان ، ط١ ، الناشر مكتبة المحتسب ، عمان ، دار الجيل بيروت ، ٤١٥/١٩٧٤ .

(٢٠١) ينظر: مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني ، د. حسين عطوان ، دار الجيل بيروت ، ط١ ،١٩٨٢ / ١٥١.

البحتري وابن المعتز ومسلم بن الوليد والمتنبي والشريف الرضي وغيرهم ممن بكوا أماليد الشباب [٢٠٢] .

وقد يكون السبب المباشر الذي جعله يتصدر قائمة الشعراء بذلك البكاء والحنين إلى الشباب ، هو(الحرمان) والذي كما أرى كان سببه أمرين :

أولاً : لأنه لم يكن قوي الجسم والبنية في شبابه ولا في شيخوخته ، بل كان ضعيف الجسم نحيلاً ، فاصطلحت عليه العلل والأسقام الجسمية والنفسية ، فإذا صحته معتلة ونفسيته مضطربة [٢٠٣] .

ثانياً : أو يعود إلى ضعفه الجنسي والذي سببه استجابته العجلى في طريق كل غواية [٢٠٤] وإسرافه فيها جعله يفقد ذروة ذلك الشباب وعنفوانه . حتى تحولت شهواته التي لم تشبع إلى رغبات مكمودة تتحرق وتتآكل في نفسه ، لذلك فإن حنينه لشبابه ليس سوى أنين لتلك الرغبات [٢٠٥] .

ولهذا فهو كثير التفجع على شبابه ، يتحرق لفقده ، وحسرته عليه متجددة على مر الأيام ، وفقدانه له مصيبة المصائب التي تجري دموعه حتى تستنفدها ، وإنه ليشعر بأن لا يوافيه حقه حتى لو ذرف بحراً من الدموع ، وما أكثر أن صبر وتجلد على مصائب الزمن ، ولكن مصيبته بفقدان الشباب ، فهذا لا يطيق عليه صبراً ، كما في قوله وهو يصف تلك الجمرة المتوقدة بين أحشائه :

أبَيْنَ ضُلوعي جَمْـــــرَة تتـــوقّـدُ ... علــى ما مضى أم حســـرةٌ تتجـــدّدُ
خليليّ ما بعد الشّبـــــــاب رَزيـة ... يُجَـمّ لها مَاء الشؤون ويُعْـــــتَدُ
فلا تلحَيا إن فاض دمـــعٌ لفقـــده ... فقلّ لهُ بحر من الدمـــع يُثمـــدُ
ولا تعجبـــا للجلدِ يبكي فربّمـــــا ... تفطر عن عينٍ من المـــاء جلمَـدُ
شبـــابُ الفتى مجلوُده وعـــــزاؤه ... فكـيف وأنّـــــى بعـده يتَـــجلدُ؟

---

(٢٠٢) ينظر: ابن الرومي ، محمد عبد الغني حسن / ٥٦ .

(٢٠٣) ينظر: مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني /١٥٢ .

(٢٠٤) ينظر: ابن الرومي في الصورة والوجود / ٥٠ .

(٢٠٥) ينظر : ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره /٣٢٠ .

وفقد الشّبابِ الموتُ ، يوجد طعْمُـهُ صراحاً، وطعم الموت بالموت يفقدُ [٢٠٦]

فبكاء ابن الرومي هنا كان بدافع نفسي لشعوره ((بفقدان أهم وسيلة من الوسائل التي تساعده على تحقيق رغباته وهواه)) [٢٠٧] والتي بقيت حسرة معلقة في نفسه ، تشتد عليه كلما أشتد به ذلك الإحساس المحروم ، مما يجعله يكثر من اللوم والسخط على نفسه ، فنشأ بداخله صراع عنيف كان أشد إيلاماً عليه من الأحزان التي تعقب الموت أو الفراق [٢٠٨] ولاسيما بعد ما أدرك أن هذا الشباب لا رجعة لـه ، لأن كل الحبال التي تربطه به قد تقطعت وانفصلت ، مما يزيد تعلقه وشوقه إليه ، فهو كان يعني بالنسبة لـه، دولة يولي صاحبها على هذه الدنيا فتعطيه من خيراتها ما يشاء ، ولهذا نراه دائماً متلهفاً عليه وعلى نعيمه ولهوه تحت أفنـانه اللدان الرطاب ، في ظل شجرته ذات الغصون اللينة المخضلة ، ومصيبته به إذن لا يشعر بها إلا هو، حتى أخذ يذم من جعل مصيبة غيره منسية لـه مصيبته ، وعاب من تعلل بالتأسي بما نال غيره ، فيقول:

يَا شَبَابي ، وَأين منّـي شَبَـــابـي ؟ أذنَـتنـي حِبَـالُـهُ بانْـقِضَـــــابِ
دَولةٌ يغْمُرُ الزّمَـانُ فَـــــتَاهـــا سُوّدتْ بالسّـوَادِ سمْـيَا الشّـــبَـابِ
لَـهْفَ نَـفْسي عَلَـى نعيْـميْ ولَـهْوي تَـحْتَ أفْـنَـانِـهِ اللّدَان الـرّطَـــــابِ
وَمُعَـزّ عَـن الشّبـــــــَابِ مُـــؤسّ بمشـــيْبِ اللّـــــــدَاتِ وَالأتْـــرَابِ
قـلْتُ لمّا انْتَـحىْ يـعُدّ أســـــاهُ مِـنْ مُصَـــابٍ شَبَابُـهُ فمُصَـــــابِ
ليْـسَ تأسُوْ كُـلُـوْمُ غيْـري كُلُوْمَـــي مَـا بـــِهِ مَا بـِهِ وَمَا بِـي مَا بـِي [٢٠٩]

---

(٢٠٦) الديوان : ٢ / ٥٨٤- ٥٨٥. يثمد : الماء القليل .

(٢٠٧) الحكمة في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، أطروحة(دكتوراه) ، مظفر عبد الستار غانم ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٢ /٢٥٠ .

(٢٠٨) ينظر : الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ، اليزابيث درو ، ترجمة محمد إبراهيم الشوش ، منشورات مكتبة الميمنة ، بيروت ،١٩٦١/١٧٠ .

(٢٠٩) الديوان : ١/٣٣٤ -٣٣٥. الانقضاب : الانقطاع . اللدان الرطاب : أي في ظل شجرته ذات الغصون اللينة .

فهذه السيمفونية الحزينة التي يعزفها ابن الرومي على أوتار ذلك الشباب الراحل ، تظهر لنا مدى عمق الشباب ودلالته في ذاته ووجدانه ، فهو إلى جانب ما كان يتمتع به من النعيم واللهو تحت ظله الوارف ، كان الشباب أيضاً يمنحه ويعوضه العطف والوصال بعد شعوره بالخذلان من قبل أخلائه ، ولكن الآن وبعد إن رحل حق له أن يبكي عليه ويندبه ، كما يقول :

قدْ كنتُ أبكي مِنْ صريمــة خلّــة كَانَ الشّبابُ معوّضي أمْثـــالها

فألآن حقّ لِي البكاءُ علَى الــذي كَانَ المُضمّن عَطفها ووصَالهَا[٢١٠]

وكذلك كان الشباب لديه نعم المجاور والرفيق :

بَانَ الشّبَــابُ وَكَــــانَ لـــيْ نعْم المُجَاور والعـــشير [٢١١]

ولشدة شغفه به أخذ يصوره بأجمل صوره ، فهو عنده كالشمس لا تعرف فضيلتها إلا وقت الظلام ، ويكون الإنسان بأمس الحاجة إليها ، أو يكون كالشيء الثمين لا تعرف حقيقة قدره إلا بعد فقدانه ، كما في قوله :

كالشّمس لا تبْدو فضِيْلتهـــا حتّى تغشّى الأرْضُ بالظّـــلمِ

وَلِـرُبّ شـــــيءٍ لا يُبــيّنُــه وجْدانُهُ إلاّ مع العَـــــدمِ [٢١٢]

ولهذا كانت مأساة رحيل الشباب عن ابن الرومي ذات أثر نفسي كبير جعله ينهار بالتفجع والحزن عليه . بصوت رثائي حزين كأنه صوت عجوز ثاكل ، أو صوت خنساء ناحبة [٢١٣] حتى راح يستنكر عن عدم تعزية الناس له ، بتفجعه به ويرى أنهم ربما لم يعلموا بمصيبته :

فيَا أسَفاً ، وَيَا جزَعــاً عليــهِ ويا حَــزناً إلى يـَوم الحِســابِ

أأفجـعُ بالشّــبابِ ولا أعَــزّى ؟ لـَقدْ غفـَل المُعزّي عَنْ مُصـابي [٢١٤]

---

(٢١٠) الديوان: ١٩٦٥/٥. صريمة : العزيمة وقطع الأمر.

(٢١١) م . ن : ٨٩٧/٣ .

(٢١٢) م . ن : ٦/ ٢٣٤٤ .

(٢١٣) ينظر : ابن الرومي فنه ونفسيته / ٣٥١ .

(٢١٤) الديوان : ٢٥٨/١ .

فابن الرومي – كما نلاحظ – يائس من عودة الشباب ، بدليل أن رثاءه له جاء بعدة ألفاظ (أسفاً، جزعاً ، حزناً) وهذه الألفاظ كلها تشير إلى اليأس وانقطاع الأمل مما يجعله يعد الشباب مرثياً لا ينقطع رثاؤه حتى الممات ، إذ يقول :

سَأثْنى بآلاء الشّبيبْـة بَاسِـــطاً لِسَانـيْ بِـهَا حتّى أحيْنَ فأقبضَا (٢١٥)

وما رثاء ابن الرومي لشبابه . إلا لخوفه من الزمن الذي عاش معه وفيه واقترب به إلى نهايته(٢١٦) كما في قوله :

بـــانَ شَبَابـيْ فـعَزّ مطلبـُـهُ وأنْبَتّ بيني وَبيْـــنـهُ نَسَـبـُهْ
ولاحَ شيْبي فـَرَاعَ قَـالِيـــتَـي بَـلْ خُلّتـي بَـلْ خليْـلـتـي شَـهَبـُـهْ
بَـلْ رَاعَنيْ أنّـهُ دلـــيلُ بلـــى وَالـعودُ يـذوىْ إذا ذوى هـَدَبـُـهْ (٢١٧)

فالشاعر هنا يندب شبابه الراحل ، الذي أصبح عليه عزيزٌ مناله ، وانقطعت به صلته حيث المتعة واللهو الذي كـــان ينعم به مع المرأة ، ولكن هذه المتعة لم تدم ؛ لأن ظهور الشيب قد افسد عليه هذه السعادة ، وأفزع صاحبته بلونه الأبيض الذي جلا رأسه ، حتى راح يعده دليلاً على نهايته وفنائه ، وأن حاله كحال الغصن الذي إذا استطال به الزمن هدلت أوراقه وذبلت .

ولشدة خوفه على استمرارية ذلك الشباب ودوامه ، نراه في بعض الأحيان عندما يتحدث عن رحيله لا يذكر من ذلك الرحيـل إلا الاسم والباقي يلقيه على أيام الشباب ، أي يحاول أن يلبس الشيب حديث الشباب ، لكي يظهر الشيب حتى بصورته هذه شباباً راسخاً ، ولعل هذا مـــا يجعله يكرر الفعل (بان) ، كما في قوله :

بـــانَ الشّباب ونِعْم الصاحبُ الغـادي وكـــان ما شئـت من انس وإسعـادِ
بـــانَ الشّباب حميداً ، ما ذممـت لـَهُ عهْـداً ، وَلا ذم مـَـا زودت مـنْ زادِ
وَكـَانَ واللـهو مقرونين فـي قـــرن فانْبـَت حبلهما منـي لمـــــيعـادِ

---

(٢١٥) م . ن : ١٣٨٤/٤ .

(٢١٦) ينظر: نقد الشعر في المنظور النفسي /٨٨ .

(٢١٧) الديوان : ١/ ٣٠٠ .

وَقـدْ تـخايلــتُ فـي سرْبـــاله عُصُرا أعود فيـه مــن اللذات أعـــــيادي
إذ للشــباب حبـــــالاتٌ أصيدُ بهـَــا وغـرة تدّري وحشــي لمصـــطادي
أصْبي الفتاة وتصْبيني الفتــاةُ بـــهِ كــلا الـحبيبين منقاد لمنـــــقادِ (٢١٨)

فالشاعر يرى أن الشباب كان شفيعاً لكل لهو أو سوء كان يفعله ، وكأنه يحاول التلميح بأن الشيب لا يتسامح بأي شيء لذلك هو كفّ عن هذا ، ولأن الإنسان يميل دائماً إلى ما فيه سعادته ، حاول ابن الرومي مدح الشباب وأيامه من دون أن يذكر الشيب مع أن الدلائل كانت تؤكد وجوده من خلال النص نفسه .

فالتشبث بزمن الشباب هذا عند ابن الرومي عكس لنا صورة من صور تمسكه بالحياة ؛((لأن الحياة ليست أيام تتوالى ، وسنين تنقضي ، وإنما هي قدرة وممارسة وشروع ومحاولة لتحقيق ذلك الشروع)) (٢١٩) لكنها تمثلت لديه بالمتع والملذات وشاعرنا كما وصفه العقاد كان عابداً للحياة ، حتى أصبحت الحياة لديه دنيا يحرم ويحلل ويأمر ويطاع ، ولو عـارض أوامر الدين (٢٢٠) إذ يقول :

شربتُ وقدْ كان الشـبابُ مُحلّـــــلا من الرّاح ما كان الكتابُ مـــــحرّما
وقــدْ طابق الشـيبُ الكتـابَ فحرمـتْ علــى فيك تحريمين إن كنت مسلما(٢٢١)

فابن الرومي – كما نرى – يعطي لنفسه الحق في شرب الخمرة بزمن الشباب وهي بنظره محللة لـه ، ولكنها تحرم عليه بزمن الشيب والكبر ، لأنها جاءت مطابقة لما جاء نهيه في الكتاب ، وما ذلك الادعاء الباطل إلا لأنه ((كان همه الأكبر أن يحيا ، فهو مهيأ النفس للإحساس بالحياة ، ولو كان همه – على ما به من الخصـــاصة واللهفة . أن يطلب القوت وينصرف إلى ذرائــع العيش لما كان بالملوم)) (٢٢٢) ولكن ذلك الانهماك على المتع تحول لديه إلى نقمة ، لأن إسرافه فيها جعله يفقد القوة في حواسه شيئاً فشيئاً ، وكان أكثر ما أبكاه هو فقد القدرة على

---

(٢١٨) الديوان : ٢/ ٦٧٠ ، وينظر مثل ذلك : ٢٥٧/١ ــ٢٥٨ ، ٣٨٨، ١٣٨٤/٤ .
(٢١٩) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي /١١١ .
(٢٢٠) ينظر : ابن الرومي ، للعقاد / ٢٥٨ .
(٢٢١) الديوان : ٢٢٥٣/٦ .
(٢٢٢) ابن الرومي ، للعقاد /٢٨٦ .

التمتع بالحياة [٢٢٣] فالشباب عنده هو الحياة لا فرق بين فقده وفقد الحياة ، حيث يقول :

لَعَمْرُكَ : مَا الحَيَاة لِكُلّ حَيّ إذا فَقَدَ الشّبَابَ سِوَى عَذابِ

فَقُلْ لِبَنَاتِ دَهْرِي فلتَصبِنِي إذا ولّى بأسْهُمِهَا الصّيَابِ [٢٢٤]

إذن الشباب عند ابن الرومي لا يعدو أن يكون إلا وسيلة تحقق له تلك الرغبات الجامحة ، لذلك كانت مصيبته بفقدانه الهول العظيم على نفسه ، مما يجعله دائماً يشعر بالنقص والحرمان .

ومن هنا ظهرت الطبيعة ، فهي كما مر بنا[٢٢٥] ذلك الملاذ الحبيب الذي يعوضه عما يشعر به ويمنحه الأمن والأمل في الحياة ، لذا راح ينظر إليها على إنها شبابه الدائم ، فامتزجت روحه بروحها ، وبدا كأنهما جسد واحد لا تدري أين يبتدأ أحدهما وأين ينتهي الآخر ؟ فهما حنين واحد وشباب واحد وفاكهة واحدة وروضة واحدة [٢٢٦] وهذا ما يتبين لنا في قوله :

يُذكّرُني الشّبَابَ جِنَانُ عَدْن عَلَى جنَبَات أنْهَار عِذابِ

تفَيّء ظلّهَا نَفَحَاتُ ريْح تَهُزّ مُتونَ أغْصَان رطَابِ

إذا مَاسَتْ ذوَائبُهَا تَدَاعَتْ بَوَاكي الطّيْر فيْها بانْتِحَابِ [٢٢٧]

فقد يبدو للوهلة الأولى عند قراءة هذه الأبيات ، أن الشاعر كان يصف مفاتن الطبيعة بما فيها من أنهار و رياض وغير ذلك ، ولكنه في الحقيقة لم يرد بهذا قصداً ، وإنما أراد أن يعبر عن مشاعره وكوامنه الداخلية ، مشاعر الشوق والحنين إلى الشباب الزائل ((أنه الشعور الذي انتقل إلى العين عبر الخيال ، عبر الرؤيا الشعرية الصادقة ذلك أن الخيال ينتزع من الواقع واقعاً آخر أكثر

---

(٢٢٣) ينظر : حصاد الهشيم / ٣٣٣ .

(٢٢٤) الديوان : ٢٥٦/١ . بنات الدهر : حوادثه . الصياب : الصميم .

(٢٢٥) ينظر : المبحث الأول من هذا الفصل / ٣٤ .

(٢٢٦) ينظر : ابن الرومي ، للعقاد / ٣٠٣ .

(٢٢٧) الديوان : ٢٥٧/١ – ٢٥٨ . ماست : مالت . الذوائب : أعالي الغصون .

جلاءً)) [٢٢٨] لـه يقين وحس خفي في مكامن ابن الرومي ، ويمكن أن يتضح ذلك أكثر في قوله :

يُذكّـرُنـَي الشّبَابَ ريـَاضُ حَـزْن تَـرنـّم بَيْـنـهَا زُرْقُ الذبَـــــــابِ
إذا شَمْسُ الأصَائِل عَارَضَـتْهـَـــا وَقـَدْ كَرَبتْ تَوَارَى بالحِـــــجَـــابِ
وألقتْ جُنحَ مغْربـِهَا شُعَاعَـــــاً مَريـْضاً مِثْـلَ الحَاظِ الكَعـــابِ [٢٢٩]

فالشمس هنا في الواقع ((ليست شمس الروضة والحزن ، وإنما هي شمس حياة الشاعر التي شرع نورها يخبو ويخشاه الصقيع)) [٢٣٠] .

ويتوالى تفاعل شاعرنا مع أشياء الطبيعة ورموزها تفاعلاً وجدانياً وثيقاً جعله لا يفرق حين ينظر إليها بين حاله وحالاتها فقد ((خلع من شبابه عليها ، وخلع من شبابها عليه)) [٢٣١] حتى أصبح شبابه كأنه وميض برق خلب أو سجع حمامة آمنة على أيكها ، أو حنين ناقة إلى فصيلها :

يُذكّرُني الشّبَابَ وَمَـيْضُ بـَرْق وَسجْعُ حَمَـــامَةٍ ، وَحنـيْنَ نـَــابِ[٢٣٢]

فالبرق يشتمل على معنى الحنين ، وكأن غيومه المطبقة هي غيوم القنوط واليأس التي تعتريها أسلاك الحنين وكذلك سجع الحمام وحنين النيب ، فهما يوقظان لهفة الضياع والبعد والفراق ، أن حنين النيب المسنة يعلو ويتغور ويمتد ، ليطال أغوار العمر السحيقة التي يشتاق إليها [٢٣٣] .

ويبقى السؤال قائماً : ما الذي يشده إلى الشباب ويذكره به دائماً ويجعله يحن إلى أيامه المنصـرمة ؟ إنها لهفته المتوقدة وشـــوقه الذي لا ينتهي إلى المــرأة (محور اللذات) .

---

(٢٢٨) ابن الرومي فنه ونفسيته / ٣٤٢ .

(٢٢٩) الديوان : ٢٥٨/١ . زرق الذباب : لعله يريد بها النحل ، لأنها تألف رياض الحزن . كربت : كادت توارى وتستتر .

(٢٣٠) ابن الرومي فنه ونفسيته / ٣٤٦ .

(٢٣١) ينظر : ابن الرومي ، للعقاد / ٣٠٢ .

(٢٣٢) الديوان : ١/ ٢٥٨ .

(٢٣٣) ينظر : ابن الرومي فنه ونفسيته /٣٥٠ .

هذه المرأة التي جعلته متعجباً من أمرها معه ، فقد كانت في زمن الشباب تنظر إليه وكان يشتكي من سهام عينيها التي كانت تنفذ إلى قلبه فتكاد تقتله ، وهو في زمن المشيب يشتكي انصرافها عنه ويحزن لـه ، بل شعوره بالألم لصدودها عنه أشد من شعوره ، لسهامها التي كانت تنفذ إلى قلبه وتصيبه ، فيقول:

وكنتُ جلاء للعيون من القـــــذى فقد جعلت تقذى بشيـــبي وترْمَــدُ
هي الأعين النّجْل التي كنتَ تشتكي مواقعها في القلب ، والرأس أســودُ
فما لك تأسى الآن لمــا رأيتَهـــــا وقد جعلت مرمى ســواك تعـــمـدُ
تَشَكّي إذا ما أقصـدتْكَ سهامهـــا وتأسى إذا نكبن عنـــك وتكـــمـدُ
كـذلك تلك النّبْلُ من وقـعت بـــــه ومن صُرفت عنه من القوم مُقصـــدُ
إذا عدلتْ عنا وجدنا عُدُولـــهـــا كموقعها في القلب بل هو أجـــهـدُ (٢٣٤)

ويبدو أن هذه المعادلة القاسية التي وجد الشاعر المرأة متفاعلة معها وهي أمر (الشباب والشيب) جعلته متعجباً من أمرهما ، فالشباب يرمي بسهامه القاتلة فيصمي بذلك قلوب الحسان ويوقعهن في شباكه ، وهو بعمله هذا يلقى الرضى والحفاوة منهن ، أما الشيب البريء المسكين الذي لا ذنب له ، فلا يلاقي منهن إلا الجفوة والبعاد ، فيقول :

عجباً للشـباب يرمي فيصـــمـــى وظباءُ الأنيس عـــنه رواضـــي
والمشـيبُ البريء يعرضُ عنـــه أو يُلاقي بجفوةٍ وانقبـــــاضِ (٢٣٥)

فهذه الإشكالية قد تجعل ابن الرومي أحيانا يدافع عن مشيبه ، لا سيما بعد شعوره باليأس المسيطر عليـه وعلى وجدانه بخصوص مواصـلة المرأة ؛ لأن ((أشد ما يحزن الشاعر ما يفعله المشيب هو عزوف الغواني وصدودهن من بعد إقبـال ، وما يلقاه عن ذلك الضيف الثقيـل الذي حل برأسه المفرق بينه وبين أحبته))(٢٣٦) ولهذا نراه يقول لصاحبته اللائمة :

---

(٢٣٤) الديوان : ٥٨٥/٢ . القذى : ما يقع في العين فيجعلها تدمع . تكمد : الكمد الحزن الشديد .

(٢٣٥) الديوان : ٤ / ١٣٨٨ .

(٢٣٦) قضية الزمن في الشعر العربي : الشباب والمشيب ، د. فاطمة محجوب ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠/ ٥٦ ـ ٥٧ .

غُـضّي الملامــة قدْ كـفاكِ ملامــتي ضــيفٌ ثوى عندي بدار مُقـــامِ (٢٣٧)

فالشاعر هنا ، يطلب من صاحبته أن تغض البصر عن مشيبه وتكف عن لومها لـه ؛ لأن الشيب ضيف أقبل علية ومكانته عنده ، دار لا تليق إلا به .

وقد يتحول إحساسه بالشيب إلى يقين حقيقي يجعله يدرك أن لا مكان له مع النساء بسببه ، حيث يقول :

هيهات أيتها الكواعبُ كالدّمـــــى مالي بكنّ مع المشيب صديـــقُ(٢٣٨)

ومن أجل هذا نراه ينسحب من تلك الحرب الطويلة مع المرأة والتي هي بنظره حرب خاسرة لا محالة ، لكونها تمتلك الحجة القوية في صدودها عنه ألا وهي الشيب ، مما يجعله يعطيها الحق في هجره ، خاصةً عندما رأى آثار الشيب في رأسه وأدرك أنه قد كبر وهو في الخامسة والخمسين من عمره :

كبرت وفي خمس وخمسين مَكبــرُ وشـبت فألحـــاظ المــها منك نُفـرُ
إذا ما رأتك البيض صَدّتْ ، وربمـــا غدوتَ وطرفُ البيض نحوك أصورُ
وما ظلمتك الغانياتُ بصـــــدهـــا وإن كــان من أحكامــها ما يُجـوّرُ
أعرْ طرفك المرآة وأنظرْ فإنْ نبـــا بعـينيك عنك الشـيبُ فالبيـض أعْـذرُ
إذا شئت عين الفتى وجه نفســـه فعين سواه بالشــناءة أجـــدرُ (٢٣٩)

فذلك الاستسلام أمام المرأة عند شاعرنا – على ما يبدو – جاء بعد أن يأس في جميع محاولاته للقضاء على الشيب ، ولاسيما مع الخضاب الذي أدرك أن المرأة لا تحبذه ، لذا نراه يقدم نصيحة لكل من يخضب شيبه لنيل حب المرأة ، ومفاد هذه النصيحة : أنها إن لم ترفض خضابه فهي لاشك تخدعه في حبها مثلما يخدعها في خضابه :

لا تحســبنك خدعتهن بخدعـــة بل أنت ويْحك خادعتْك مُنـــاكـا
كذب الغواني في سواد عـــذاره فكذبنـــه في ودهّن كذاكـــا (٢٤٠)

---

(٢٣٧) الديوان : ٦/ ٢٢٦٦ .

(٢٣٨) الديوان: ٤/ ١٦٨٤ .

(٢٣٩) م . ن : ٣/ ١٠٨٣ ، وينظر مثل ذلك : ٤ / ١٤٨٣ .

(٢٤٠) م . ن : ١٨٤٧/٥ .

ولكأنّ ابن الرومي بعد هذه النصيحة قد أحس بأنه ربما يوجه إليه انتقاداً من قبل المتلقي أو الرجل المشيب حول تخضيبه لرأسه ، لذا نراه يجيب :

لمْ أخضّب الشّيب للغـوانـــــيْ أبْغـيْ بـِهِ عنْـــدهـــم ودَادَا

لكنْ خِضَابي عَلَـى شبـَـابـــــيْ لبـــسْت مِنْ بعـدِهِ حِـــدَادَا (٢٤١)

فالشاعر لم يخضب الشيب لغرض كسب ود الغواني ، وإنما خضابه جاء حداداً على شبابه الراحل ، وما الخضاب بنظره إلا مرضٌ وليس بدواء ، يمرض بذلك الشيب حيث يقول :

وَأعْنىْ وَأغْـرَىْ بالخِضَابِ ممرّضـَا شَبَاباً مَريْضاً حقّه أنْ يمْرضـَـا (٢٤٢)

وفي نهاية المطاف نرى ابن الرومي بعد ذلك البكاء الحار على زمن الشباب ، وبعد تلك المحاولات والصراع الطويل مع المرأة ، قد أدرك أن الشيب أمر واقع به لا محالة ولا مهرب منه ، لذا نراه يستسلم للأمر والواقع ، ويرضى به ويتعايش معه لا حباً به ، بل ليعيش آخر أيامه سعيداً من غير نكد يكدر عليه صفوة حياته ، ولهذا أخذ يمدح الشيب ويفضله على الشباب ، إذ يقول :

الشّيبُ أحْلم، والشّـبيْبة أظـــرَفُ وَالرّشْـد أسْلمُ، وَالغوايةُ أتْـــرفُ

ذهَب الشّبَابُ فبَانَ مَا لا يُرْتجـــىْ وَأتى المَشيْب فجَاء مَا لا يـُصْـــرفُ

وَكِلاهِمـَا لابدّ منـْهُ لِمـنْ نـَجـَـا مِنْ أنْ يعَاجله ردى مُسْـــتسلِـفُ

إلى قوله :

عجَـباً لِذمّي مَا يزيْد هدَايـتـــــي غضَباً لآخر كَانَ بيْ يَتعسّـــفُ (٢٤٣)

فالشاعر يرى أن الشيب هو علامة الرصانة والوقار للإنسان ، وهو أسلم له وأرشد ، أما الشباب فله أظرف ، لكنه للغواية أترف ، حتى بدا متعجباً من أمره ، كيف كان يذم الشيب الذي هو طريق للهداية والصلاح ؟ ويفضل الشباب الذي كان يظله ويقوده إلى طريق الرذائل والمنكرات .

---

(٢٤١) الديوان: ٨٠٧/٢ .

(٢٤٢) م . ن : ٤/ ١٣٨٤ .

(٢٤٣) م . ن : ٤/ ١٥٨٥ .

هكذا بدت لنا إشكالية زمن الشباب والشيب عند ابن الرومي ، فهو ما شغف بالشباب وتحرّق لأجله ، إلا كونه الوسيلة التي تحقق له جميع رغباته ولذاته المحرومة والتي باتت همه الأكبر في حياته ، و كره الشيب ، لكونه هو العائق الوحيد الذي يقف بوجه تلك النزوات الهائمة فيعرقل عليه مسيـــــرته ، ولهذا جعل ((الشباب هو الحياة ، وأن الشيب هو الموت))[٢٤٤] .

(٢٤٤) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني / ١٥٤ .

المبحث الرابع

الشـكوى

يقول شاعرنا

شكوى لو أني أشكوها إلى حجر

أصم ممتنع الأركان انفلقا (٢٤٥)

الشكوى عاطفة إنسانية معبرة عما تعانيه الذات ، عند الشعور بالحرمان أو الظلم الاجتماعي أو السيـــاسي أو انعــدام العدل والمســاواة وعدم الوفاء ، أو هي ((تعبير عن نفسية الشاكي نفسه التي قد تعاني اضطراباً نفسياً أو تشاؤماً أو شعوراً بالاضطهاد)) [٢٤٦] أو تعني ((التوجع من شيءٍ تنوء به النفس ، كالمرض والفقر والشيخوخة والحرب والموت والدهر والخيانة والغدر والكذب ، ويتجلى من خلال بث ما يعانيه ذو الشكوى إلى الآخرين ، وربما تعكس لنا خوف الشكاة من الإخفاق في تكوين علاقات متوازنة مع الواقع))[٢٤٧] .

فأسباب الشكوى إذن متعددة تكون قائمة على حسب الظروف التي تعترض الإنسان سواء أكانت نفسية أم اجتماعية أم اقتصادية .

وبما أن الشكوى هي وليدة الإحساس الآني المعبر عن الذات ، لذا فإن هنالك صلة وثيقة بينها وبين الشعر ، لكونهما يعتمدان على الأحــاسيس والعواطف الصادقة ، فالشاعر في هذا الاتجاه إنما يصور لنا مشاعره وعواطفه الإنسانية ، في

---

(٢٤٥) الديوان : ٤/ ١٧١٤ .

(٢٤٦) الشكوى في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف ، رسالة (ماجستير) ، فاطمة مظلوم زكم ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد ، ١٩٩٩/٥ .

(٢٤٧) ظـاهرة الشكوى فـي شـعر هذيل ، رسـالة (ماجستير) ، بتـول حمـدي ، كليـة الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٧ / ١٧ .

أرجوزةٍ صادقةٍ بعيدةٍ عن التكلف والافتعال . وعليه تعتبر الشكوى فناً من فنون الشعر الوجداني العميق [٢٤٨] لكونها تعد المتنفس الوحيد لدى الشعراء عند شعورهم بالضيق والمعاناة فهي . تخفف من الهم وتزيل الألم [٢٤٩] .

ولكون الشعر مرتبطاً بالنفس الإنسانية ، وما تعانيه من حزن وألم وسعادة ، فتأتي الشكوى لتكون انعكاساً للنفس التي تعرضت للمصائب والأحداث ، وهي مع ذلك متلونةٌ عند الشعراء ، فمنهم من يشكو دهره ومصائبه ، ومنهم من يشكو ألم الهوى وعذابه ، وطائفةً تشكو من الشيب وسوء الحال ، وجماعة تشكو من الناس وغدرهم ، ولكل واحدٍ منهم طريقته في بسط شكواه .

والغالب على هذه الشكوى التي يبثها الشعراء ، تكون موجهة إلى الله تعالى ، ليفرج عنهم هماً أو يزيل كربة ، أو تكون موجهة إلى ولاة الأمور والذين بأيديهم مصالح الناس .

وقد قدم لنا ابن الرومي أنموذجاً رائعاً للشكوى ، بلغت عنده مبلغاً تأسى له القلوب ، وذلك لما فيها من الإحساس بالمرارة والحرمان ، فليست الشكوى غريبة عن رجل ((عاش حليف النكد والمنغصات بين أبناء عصره)) [٢٥٠] ساخطاً على الأقدار ، غاضباً على ظلم الحظوظ حين تعطي من لا يستحق العطاء وتحرم من هو جدير بالإيفاء [٢٥١] .

وبما أن الشاعر ((عملية متميزة بعض الشيء داخل عملية كبرى هي المجتمع)) [٢٥٢] ، لذا نجد شاعرنا يشكو من عدم التكافؤ الاجتماعي ، في زمن

---

(٢٤٨) ينظر : فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، د . مصطفى الشكعة ، مطبعة المعرفة ، ١٩٥٢ / ٣٩٦ .

(٢٤٩) ينظر : محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء ، لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني (ت ٥٠٢ هـ) ، المجلد الأول ،١٩٦١، ٢/ ٤٣٨ .

(٢٥٠) دفاع عن شعراء ، توفيق الفكيكي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٥ / ١٥ .

(٢٥١) ينظر : ابن الرومي ، محمد عبد الغني حسن / ٥٦ ـ٥٧ .

(٢٥٢) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، مصطفى سويف ، مطبعة دار المعارف ، مصر ، ١٩٥١ /٣١٥ .

ضاعت فيه المقاييس واختلطت فيه الأوراق ، فكان لزاماً عليه أن ينقل لنا هذه المعاناة ، ليعكس لنا حقيقة الواقع الأليم وصورته الذي كان يعيشه .

وشكوى شاعرنا جاءت صادقة معبرة عما تعانيه النفس الإنسانية من مشاعر الأسى والتوجع ، بطريقةٍ جعلت من التجربة حياة معاشة ؛ لأن كل ((قصيدة ينبغي أن تكون تجربة إنسانية متميزة تصلنا بحقائق المجتمع وحقائق الوجود)) (٢٥٣) .

ولا شك في أن شاعرنا تملكته هذه العواطف والانفعالات الصادقة ، والتي كانت سبباً في إبداعه وهو يبث شكواه . ويمكن لنا أن نقسَم شكوى صاحبنا ابن الرومي وبحسب استقرائنا لهذه الظاهرة في شعره على ما يأتي :

الشكوى من الزمان أو الدهر

إن الناظر إلى أحوال الناس ، يجدهم دائماً في شكوى أبدية من ظلم الزمان أو غدر الدهر ، فهم يرونه السبب في تغير أحوالهم ((والشعراء من هؤلاء الناس الذين رماهم الدهر بسهامه ، وأصابهم بنوازله فذموه وشكوه)) (٢٥٤) .

وبما أن شاعرنا ((لم يبتسم له الدهر إلا ساخراً منه))(٢٥٥) فقد جاءت شكواه ، لتعبر عن حالة اليأس الذي يعيشه في مجتمع ضاقت فيه السبل ، وتعددت فيه الآراء ، حتى بات لزاماً عليه أن يقربنا إلى مجتمعه وقتذاك ، لنفهم الصورة ونعي الحقيقة .

فليس من الصعب علينا أن نتخيل تلك المعاناة عند ابن الرومي ، لأن ملامحها جاءت واضحة من خلال شعره ، حيث أخذ ينسب إليه كل ما حط به من رزايا ، وما أدركه من إخفاق ، وما أثر فيه من حرمان ، وما أورثه له من المرارة وألم الحسرة ، قد بسطها لنا الشاعر لتكون شاهدة على ذلك الدهر .

---

(٢٥٣) في النقد الأدبي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٢ / ١٩٠ .

(٢٥٤) الشكوى في الشعر الجاهلي (بحث) ، قحطان رشيد التميمي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ع ١٣ ، مطبعة المعرفة ، بغداد ، ١٩٧٧ / ١٤٤ .

(٢٥٥) أدباء العرب في الأعصر العباسية ، بطرس البستاني ، توزيع دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٩ / ٢٣٩ .

وتبدو بوادر تلك المعاناة في نصه الآتي الذي بث فيه شكواه ، لأنه أخذ يبوح بما يُخفي، ويعلن ما كان مستتراً ، مشبهاً إياه بتلك اللافته التي خلقت خصيصاً لـه ، لتفضح سنين عمره ، فجاء الدهر ليكون سبباً خالصاً في نشوء ملامح الانكسار عند شاعرنا ، وليعبر لنا عن أسباب الانهيار مختومة بأحرف بيضاء خطها في رأسه ليقول :

أمـــا رأيتَ الدهـر كـيف يجـــري؟
يُظـــهر مـــا أكتمـه من عمـــــري
بـأحرفٍ يخـــطها في شعـــــري
يمحو بها غضّ الشّباب النـضر
إذا مـــحا ســطراً بدا في ســطر (٢٥٦)

فالشاعر هنا ، قد خلق لنا انطباعاً خاصاً وموقفاً مهماً للتعبير عما لحق به من هذا الدهر بعبارات كشفت لنا عن معـــاناته ، إذ لاشك فيه أن تتابع الأفعال الآتية ، قد أبرز حركة الحدث ، وصوّر آلامه النفسية : (رأيت ، يجري ، يظهر، يخطها ، يمحو ، محا، بدا) فهذه النزعة التي يعاني منها الشاعر من خلال هذه المقطوعة ، والتي ابتدأها بالاستفهام ثم بتتابع الأفعال ، وما ألحق بها من الأسماء ، صورت لنا الحدث في حركة واضحة تزيد من حدة معاناته من الدهر وعمقها في نفسه .

ويبقى الصراع قائماً بين الشاعر والدهر ، غير خفي في كل موضـــوع من شعره ، متمثلاً بالمعنى النفسي، الذي يجد من الدهر حافزاً على بث ما استطاع من معاناته ، ومنفذاً للتشكي من عصره وهمومه ، فنراه يجعل من ذلك الدهر الخصم والحكم في آن واحد ، فهو متسلط بظلمه عليه ، وإذا ما شكاه اقرّ له بأن حكمه عادل فيه ، فيقول :

غـدا الدّهْرُ لـي خصمـاً وَفـيّ مُحكّماً فكـيف بخصم ضَالِـع وهو الحكم ؟

---

(٢٥٦) الديوان : ٣/ ١١١٧ .

يجور فأشكو جـــورَهُ وهـو دائِــباً يَرى جورَهُ عدلاً إذا الجوْرُ منه عمْ (٢٥٧)

وبما أن((التشكي يحمل غلّ الشاعر للزمان ودواعي الثورة عليه)) (٢٥٨) فشكوى ابن الرومي ، إنما جاءت لتعبر عن المعاناة الإنسانية بإطارها الفردي ، وتعكس ضروباً من الأحتجاج على العصر الذي وجد فيه نفسه شاعراً مجيداً لم يشفع لـه جهد التفوق ، إلا بالحرمان وغثاثة العيش ، لذا نراه يرسل تظلمه من الدهر قائلاً :

سوءة للـدهر إذ يـخـــــــــــــ ـلـط إخـــــلاصي بغـــــيْرهْ
ما عليه لــو كفـــانـي الـــــــ ـــقوت ، يـا قلـــة خـــــيْرهْ
لتـروا مـــــني ولـــــــــــياً رأيـكم أفضـــل ميْـــــرهْ (٢٥٩)

وأكثر ما كان يؤلم ابن الرومي ويزيد من حدة معاناته ، هو عندما وجد في الناس من هم أقل منه شأناً ، قد تسلموا مقاليد الأمور واكتنزوا الأموال واستطابوا ما شـــاء لهم من ملذات الحيـــاة ((بينما هــو لا يصيبه منهــا إلا الإمــلاق والضنا)) (٢٦٠) فتحولت آلامه إلى ثورة حاقدة على الزمان ، ترجمت بتلك الشكوى الساخطة المتبرمة والتي غالباً ما تعكس ذلك الواقع المزري ، والرافضة لتلك المقاييس المنحطة ، مصوراً لنا محنته ونكبته في زمنٍ قد تبدلت فيه الموازين ، وكثرت تناقضاته ، فأصبح الرأس منقاداً لذنبه رغم انفه ، لذا فهو لا يعجب له ، لأن عجائبه لا تنقضي وظلمه لا ينفد ، بدليل أنا نـــراه يعدد تظلمه من ذلك الزمن بـ(كم) الخبرية ، فيقول :

لا تـعـجَبَنْ للـزّمـــان إنْ كثُـــرَتْ مِـــنـــهُ أعَاجـــــيبُهُ وَلا ذرَبُـــهْ
فـالـــدّهرُ لا تنقَـضـــيْ عَجَائبُـهُ أوْ يَـتَـقَـضّى مِنْ أهْـــــلِهِ أربُـــهْ

---

(٢٥٧)الديوان: ٦/ ٢٣٠١ .

(٢٥٨) الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي / ٤٥ .

(٢٥٩) الديوان : ٣ / ٩٥٢ . ميره : جلب الطعام .

(٢٦٠) الفن ومذاهبـه فـي الشـعر العربـي ، د . شـوقي ضـيف ، دار المعـارف ، مصـر ، ط٧ ، ١٩٤٣ / ٢١٠ .

كَـمْ جـُـوْرَة للـزّمَـان فـَاحِـشةٍ قـادَ بـهَـا الـرّأسَ مـُذعِـناً ذنبُـهْ (٢٦١)

والذي يقضّ مضجع الشاعر ، ويزيد من آلامه أكثر فأكثر عندما يرى أن الارذلين يعيشون بغبطة وسعادة ، أما الأماجد فيعيشون على الكفاف والحرمان وقلوبهم تتفطر حيرة وعجباً :

حرْمَانُ ذيْ أدَبٍ ، وَحـظـوة جـَاهـل أمْـــرَان بـيـنـهمَا الـعـــقول تحـيّرُ
كـمْ ذا التـّفـكـّر في الزّمان وإنـّما تزْدَاد فـيْهِ عمـــى إذا تـَـتـفكـّرُ
الأرذلـونَ بـغبْـطـةٍ وَسـَـــــعَادة وَالأمـجَدون قلوْبـــهم تـتـفطـّرُ (٢٦٢)

فهذا التناقض الذي يعيشه الشاعر ، لدليل واضح على فقدان القيم وتبدل الموازين ، لذا بدا على شاعرنا أنه ((يعرف واقعه والآلام واقعه فينفجر غضباً وسخطاً ، ويتحرق أسى ومرارة لما هو عليه من إهمال وهوان)) (٢٦٣) فما كان أمامه إلى أن يبث شكواه إلى الله تعالى ، لينصفه من ذلك الدهر الذي تعاظم في ذنبه عليه ، والاستعانة به من الظلم ، ولكن بروحية المستسلم اليائس :

أصـــبـح الســـافل منـــا عاليـاً وهـــوى أهل المـــــــعالي والشرفْ
ربّ : انـصفـنـي مـن الـدهر فـــما لـي إلا بـــــــك مـــنه منتـصـفْ
فاستجب يـــاربّ ، وأرحـــم دعوة من لهيـف القلب ، ذي دمـعٍ ذرفْ
وأدلـنـا مـــن زمـــان جـــــائر واسمـــعنْ يارب منا وأنتصفْ (٢٦٤)

ومما لا يقبل الشك فيه ، أنّ الإحساس العميق بهذه الوحدة التي يحياها شاعرنا يعري الأشياء من منطقها الظاهر لعامة الناس ، لينقلنـا إلى مفرج الكروب مرة أخرى ، إنه العون الذي يطلبه الشاعر ، على زمنٍ تلونت فيه القناعات :

فإلى الله اشـــتكي ما ألاقـــي مـن زمـــان يـجشّم الحرّ جَـهدا

---

(٢٦١) الديوان : ١/ ٣٠٥ . الذرب : الحدة . اربه : حاجته .

(٢٦٢) م .ن : ٣/ ١١٤٥ .

(٢٦٣) الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ، د .علي جواد الطاهر ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦١ ، ٢/ ١٢٤ .

(٢٦٤) الديوان : ٤/ ١٥٧٥ – ١٥٧٦ .

حُرمَـتْ لذة الشــكاية نفــسي وَجَدَا صاحبي وأصبــحتُ عبدا (٢٦٥)

وتغدو تلك المعاناة من الدهر في بعض الأحيان ، وسيلة ينفذ فيها الشاعر إلى قلوب ممدوحيه من الولاة ؛ لأن السلطان هو القــوة التي تعينه على مواصــلة الحياة ولهذا السبب نراه يتوجه إلى الولاة ، ليجعل من الدهر مسرحا لعذابه وهمومه ، ومستجيراً بهم عليه ، وليصور لهم الدهر على أنه كائن مفترس ، أنها النجدة التي يطلبها الشاعر :

هـذا مقــامٌ يابنــي وائــل من مستــجيرٍ بــكُمُ عــائذِ
أنشــب فــيه الـدهرُ أظــفاره وعضّــه بالنــابِ والنــاجذِ
فأنْصــفوا منــه أخـا حرمــة لاذ بكُــمْ منه مــع الــلائذِ (٢٦٦)

فهذا الضعف المستكين الزاحف إلى نفس الشاعر ، وعدم قدرته على مواكبة ذلك العصر، جعل من شكواه تتحول إلى صرخة استغاثة أطلقها ابن الرومي إلى عنان السماء راجياً من الممدوح نفسه أن يعينه على الدهر ومشاقه ، والذي أصبح فيه أسيراً مقيداً رغم شعوره بأنه طليق ، ما تشبث الشاعر بهذا الممدوح ، إلا لكونه يمثل لديه رمزاً للأمان والطمأنينة التي يستتر بها الشاعر ، بل نراه يذهب إلى أبعد من ذلك ، حيث راح يضفي على هذا الممدوح روح الزمان ويلبسها إياه ، ليصبح ذلك الممدوح هو زمانه وقدره في آن واحد، كما في قوله :

فأغــثني – أغــاثك الله – إنــي في يد الدّهر مطــلقٌ مأســورُ
لا تدعني ، فأنــت آثر بالــحمــ ـد قديماً ، وفضــلك المــأثورُ
يا أخا العدل ، والذي فضله المبـ ســوط فــينا وبشــره المنشورُ
... ...
لســتَ تعتلُ بالزّمــان ولا المقــ ـدور ، أنــت الزّمان و المقدورُ (٢٦٧)

إن هذه المعادلة التي يعيشها الشاعر، ما هي إلا صورة جلية من صور التقهقر النفسي المأخوذ عن حــالة اليأس الواضحة ، التي وأدت الفرح وطلقت

(٢٦٥) الديوان: ٢/ ٧١٧ . جشم : تكلف .
(٢٦٦) م .ن: ٢/ ٨١٠ من قصيدة قالها في إسماعيل بن بلبل .
(٢٦٧) م .ن : ٣ / ٩٣٤ .

المنى ، فكانت تباشير الفرح لا تأتي إلا بأذن من السلطان ، وما بين الصحوة والخيال يتنبه الشاعر مرة أخرى ليعي الحقيقة ، إذ لا أذن صاغية ، وهذه هي الصورة المحطمة المرهونة بأسباب الانتكاس والخذلان :

وهل أنت تاركُ شكـــــوى الزّمان إذاً لســـت تشكو إلى مســـتمع (٢٦٨)

إذن فكل هذه الصور التي تقدمت لا تحتاج إلى تفسير أو تحليل ، لأنها تفسر نفسها بنفسها ، فشكوى شاعرنا وإن كانت صادقة ، فهي تعبر عن حالة اليأس والحرمان . لأن التجربة الشعرية لابد أن يتوافر فيها صدق الوجدان ، ليعبر الشاعر من خلالها عما يجد في نفسه (٢٦٩) وشكوى ابن الرومي من الزمان أو الدهر لم تتخيلها أية إشراقة أمل ؛ لأن التشاؤم كان سبباً خالصا في نفسية الشاعر المضطربة والتي ذاقت لوعة الألم والمعاناة .

الشكـوى مـن النـاس

في الغالب أفكار المجتمع تكون متناقضة ، وهذا أمر مسلم به ، والشاعر فرد من أفراد المجتمع ، لذا تتصارع في دواخله الهواجس ، والتي تكشف عن ذوي النفوس الوضيعة ، فتكون مدعاة للشكوى .

والمجتمع العباسي في القرن الثالث الهجري على وجه الخصوص ، كان زاخراً بهذه التناقضات ، فهو كمـــا وصفه العقاد كان ((أحسن الأزمان وكان أسوء الأزمان ، وكان عهد الحكمة وكان عهد الجهالة ، وكان عهد اليقين والإيمان، وكان عهد الحيرة والشكوك)) (٢٧٠).

ومع وجود هذه التناقضات في هذا المجتمع لا بد من أن تتغير طبـائع الناس ، فتسود المصلحة الشخصية حتى لو كانت على حساب الآخرين ، مما يؤدي إلى نشـوء الضغينة ، وتفكك العلاقات الاجتماعية ، عندئذٍ تتعالى الأصوات

---

(٢٦٨) الديوان : ٤ / ١٥٠٦ .

(٢٦٩) ينظر : النقد الأدبي الحديث ، د . محمد غنيمي هلال ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٢ / ٣٦٦ .

(٢٧٠) ابن الرومي : للعقاد / ١٣ .

بالشكوى ، فيشكو المرء من أقرب الناس إليه ومن إخلائه الذين هجروه بعد أن ألمت به الشدائد والمحن .

وابن الرومي واحد من ذلك المجتمع ، الذي لاقى فيه ما لاقى من أذى الناس وشرهم ، وخذلان الأصدقاء وابتعادهم عنه ، فجاءت شكواه لتعبر عما في نفسه ، بصور نقلت لنا ذلك الواقع المرير ، وكشفت عن تلك المعاناة القاسية التي لاقاها من أبناء عصره في وقت كان بأمس الحاجة فيه إليهم ، ليكونوا النصير والمساند ، وليخففوا عنه وطأة الهموم والآلام ، بعد أن عظمت عليه الفجائع بأهله وأحبته ، ولكن هيهات فقد خاب أمله فيهم ، ولم يهب منهم أحد حتى لمواساته ، لذلك جاءت شكواه لتعبر عن نفسه المنكسرة الخاطر بقوله :

عَرفْتُ مَـقاديْرَ الرّجـَال بـِنكْبـــــةٍ أفدْتُ بها غنماً وإنْ عُدّ مَغرمـــَـا
كَفـَانـيْ لعمْريْ أيّها النـّاسُ خـبْرتيْ بكمْ بعْدَ جهْليْ واغترارِي مَغْنمَا (٢٧١)

وما تلك المعاناة إلا قضاء وقدر . لا يد للمخلوق فيها ، ولا هي مما يجنيه الإنسان على نفسه أو يرده عن حوزته (٢٧٢) ولكن الناس ليتهم قدّروا هذا ، بل أخذوا يلومون شاعرنا عليها ويعدونها من ذنوبه وخطاياه ، وكان لومهم هذا بلاءً فوق بلاء وحسرة فوق حسرة ، استجمعت لديه لتكون نداءً يبثه إلى الله (ﷻ) بنفحاتٍ حزينةٍ يملؤها الأسى وينفطر لها القلب ، بقوله :

يـَاربّ مـــا أطـــول البلاءَ ومـــــا أكثـر في أن بُلـــيْتُ لوّامـــــي
يلومنـي النـاسُ أن حُرِمْتُ وَمـــا ألزمـــــني الله غيـرَ إحرامـــي (٢٧٣)

وتزداد لوعة ابن الرومي من خلطائه ، ولا سيما حينما استخدم بعض مظاهر الطبيعة في تجسيد ما يعتمل في نفسه من مظاهر الحرمان الذي يعانيه ، وربما تحولت الأحاسيس إلى ضدها حتى يمل وجوده ، إنها صورة من صور الحيف الذي يلاقيه الإنسان من أخيه الإنسان :

يـَا لـَقوْم أأثقلَ الأرْضَ شـَـخْصـي أمْ شكـَتْ منْ جفـَاءِ خلـقي امْـتِلاءَ

---

(٢٧١) الديوان : ٥/ ٢١٢٣ .

(٢٧٢) ينظر ابن الرومي ، العقاد /٢٠١ .

(٢٧٣) الديوان : ٦/ ٢٣٩٤ .

أنـا منْ خفّ وَاسْـــتدقّ فمَـا يُثْـــقلُ أرْضـــاً ولا يَـــسُدّ فضَاءَ (٢٧٤)

فكما نرى تبدو نزعة الشاعر المحرومة متجسدة بهذه الصورة القاتمة ، التي استغرقت هموم الذات ، لتكشف عن ذلك الوطيس الحامي الذي يكتمه في أغوار نفسه المولعة بالحنان ، وسط ذل الانفراد و الو حشة .

ويمضى ابن الرومي في بسط شكواه من الناس ، لينقلنا إلى الواقع الاجتماعي المحيط به ، واصفاً تلك المقاييس الاجتماعية المحنطة ، التي أحلت بين أبناء عصره ، ليخبرنا أن سطوة المال أقوى من رجاحة العقل ، وهذا هو الانهيار الذي يدلنا على فساد المجتمع :

ألا لا أراني أيـّـهـا النـّاس لاقيـــا مِنَ النـّاس مِنْ يرْعـىْ لِخيْر وَلا فضل
وَلا مُعظماً خـِـلاً لغـــيْر ثـرائـه وَإنْ كَانَ ذا تقْوىْ وإنْ كـانَ ذا عقل (٢٧٥)

ومما لاشك فيه أن المجتمع الذي يكون قائماً على أساس هذه المعايير المنقلبة ، لابد من أن تسود فيه مظاهر المكر والخـداع ، والتي وجدها شاعرنا قائمة بين الناس ، مما جعله يشتد عليهم سخطاً ، حتى راح يتمنى زوالهم كما زالت قبلهم قوم ثمود :

غدا النـّكْر بيْن النـّاس وَالرّب واحـد كمـَا كَانَ ، وَالأحـياء شتى عُبودُها
فيَا ليْتـها منْ أمـة صَـاح صَـائــح بها صـيْحة فاستـلحقتها ثمـودُها (٢٧٦)

ولعل أكثر ما زاد من معاناة ابن الرومي وترك جرحاً بليغاً لا مثيل لـــه في نفسه ، عندما وجد أن أقرب الناس إليه قد خذلوه ، فلم يكن أهله على ما يظهر أرفق به ولا أحسن رعاية له ، كما في قوله :

لـــي ابن عم يجر الـشر مجتـهدا علـّي قدْماً ولا يصـــــلي له نارا
يجنـى فأصلـي بما يجنى فيـــخذلني وكلما كان زنـداً كنت مســـعاراً (٢٧٧)

---

(٢٧٤) الديوان: ١ / ٨٢ .

(٢٧٥) م . ن : ٥ / ١٩٩٩ .

(٢٧٦) م . ن : ٢ / ٦٨٩ .

(٢٧٧) م . ن : ٩٨٧/٣ . الزند : العود الذي يقدح به النار . المسعار : الموقد للنار .

ثم نراه يسوق اللوم بعد ذلك إلى الأصدقاء ، والذين كانت مصيبته بهم لا تقل شأناً عن مصائبه بأهله وأحبته ،لأن الصديق فيهم كان يمثل عند ابن الرومي القيمة العليا للأخلاق النبيلة أنه الوفاء والحب والإخلاص والتضحية أنه الأخ الذي لم تلده أمه [٢٧٨] والمقدم لديه حتى على الحبيب [٢٧٩] ولكن مع تلك المكانة التي يكنها شاعرنا لهؤلاء الأصدقاء ، نراه متفجعاً بهم ومنصدماً بموقفهم منه ، بعدما وجدهم قد تخلوا عنه ، حينما أضرت بـه نوائب الدهر ، فقال فيهم :

مـعشرٌ كنـــتُ خلتهم قبل بـلوا ... ي أودّاء صـــــــفوة أصدقـــاء
صادفوا نكبتي فكـــانت لديـهم ... للقلوب الـمراض منـــهم شفاء
وأظـــنّوك أن ذاك وفـــــــاءٌ ... من موال يصـحـون الـولاء [٢٨٠]

ويبدو أن هؤلاء الأصدقاء لم يكتفوا بتخليهم عن شاعرنا ، بل عمدوا على خيانتهم له كما يقول :

وإخـوان تـخـــذتـهمُ دروعـــــــا ... فكانـــوها ، ولكنْ للأعـــــادي
وخلـــتـهمُ ســـهاماً صـــــائبات ... فكـــانوها ، ولكـــنْ في فؤادي
وقـــالـوا : قدْ صـــفتْ منا قلوبٌ ... لقد صـدقوا ، ولكـن من ودادي [٢٨١]

ولو وقف الأمر على حد هذه الخيانة ، لهان بعض الشيء ولكنهم وقفوا ضده وتعاونوا مع أعدائه عليه ، حتى جعلته هذه المحنة ينظر إلى الواقع المعاش نظرة المتألم المتجرح ، وكأن اليأس قد أحاط به من كل جانب ، لذا نراه ينقل لنا المأساة بعين التأوه والتحسر ومحذراً من الأصدقاء ، بقوله:

عـدوك من صـــــديقك مستفادٌ ... فـلا تســـــتكثرنّ من الصّحـاب
... ...
إذا انـقلب الصـديق غـدا عـدواً ... مُبيناً ، والأمـــور إلى انـقـلاب [٢٨٢]

---

(٢٧٨) الديوان: ١ / ٦٤ .
(٢٧٩) م . ن : ١ / ٢٣١ . (ب٨) .
(٢٨٠) م . ن: ١/ ٨٦ .
(٢٨١) م . ن : ٢ / ٨٠٩ .
(٢٨٢) م . ن : ١ / ٢٣١ . وينظر في المعنى نفسه ٤ / ١٦٩٨ .

ولهذا فلا تثريب عليه ، عندما يعلن عدم مصاحبته لهؤلاء الناس وابتعاده عنهم ، بعد أن تبين له غدرهم وخذلانهم ، فالحقيقة حاضرة بذاتها في واقع اجتماعي عاشه الشاعر ، حيث كان لتوالي الغدر من أصحابه أثر كبير في ذلك الإقرار الذي نراه يعلنه بقوله :

وزهّدني في الناس معرفتي بهم وطول اختباري صاحباً بعد صاحب
فلم ترني الأيامُ خلا يسرني بواديه إلا ساءني في العواقب
ولا صرتُ أدعوه لدفع ملمة من الدهر إلا كان إحدى النوائب (٢٨٣)

فبلوغ الشاعر لهذه النبرة من الشكوى ، أظهر لنا مدى خبرته بأهل زمانه والذين حاله معهم – كما يبدو – لا يسر، يتقرب لهم ويبعدونه ، ويحبهم ويبغضونه ، ويقف معهم في محنتهم ويتخلون عنه في محنته ، ولهذا ضاق صدره بهم وأشتد سخطه عليهم .

الشكوى من الشيب

يعد الشيب من أكثر العوامل المثيرة للشجن عند الشعراء ، لأنهم يشعرون فيه بهرمهم وذهاب نضارة شبابهم ، حيث إنتهاء المتعة واللهو واستقبال الضعف والوهن ، كما ويذكرهم بالفناء . فهو خطام المنية ونذير الموت (٢٨٤) .

وإزاء هذا الإحساس المؤلم بالشيب ، وقف الشعراء موقفا متشائماً منه مستنكرين وجوده ، وغير مرحبين بقدومه الذي أفزعهم ، فجعلهم في همٍ دائمٍ لا يزول ، ويعد شاعرنا أحد أولئك الشعراء المتفجعين بالشيب . حتى أن شكواه أصبحت مضرب الأمثال بين الأدباء (٢٨٥) ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الشيب قد غزا شعره وهو في مقتبل شبابه ، وآية ذلك قوله :

شعرات في الرأس بيض ودعج حل رأسي جيلان : روم وزنج
طار عن هامتي غراب شباب وعلاه مكانه شاهمرج

---

(٢٨٣) الديوان : ١ / ٣٥٣ .

(٢٨٤) ينظر : العقد الفريد ، ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ) ، تح : محمد سعيد العريان ، طبعة دار الفكر (ب – ت) : ٢ / ٣١٨ .

(٢٨٥) ينظر : ابن الرومي ، العقاد ، ١٢٠ .

حلّ في صـــحن هامتي منه لونا ن كمـــا حـــلّ رقعة شطرنـجُ
أيّها الشّيب لِـمَ حللتَ بـــرأسي إنّما لـي عـشرٌ وعشرٌ وبنجُ (٢٨٦)

فمعاناة الشـــاعر النفسية بادية في هذا النص ، فهو يلوم الشيب على نزوله بشعره ، وهو مازال في الخامسة والعشرين من عمره ، مصوراً بذلك شقاءه وتعاسته منه ((والحق أن أقدر الناس تعبيراً عن الشقاء من كان الشقاء في نفسه)) (٢٨٧) .

وابن الرومي على ما يبدو أراد أن يبرز شخصيته الأعجمية في تصويره للشيب ، من خلال إتيانه لمفردات القافية كلها أعجمية(زنج ، شاهمرج ، شطرنج ، بنج) وربما كان القصد من ذلك أن يميز نفسه عن غيره من الشعراء .

كما أن تصوره للشيب ، لا يخلو من المرارة والأسى ، لأنه يكشف عن خبايا نفسه الداخلية التي طالما بـاتت تخشى من ذلك الزائر المفاجئ القادم في غير موعده ، والذي راح يعده من عظائم الأمور ، ونكداً من نكائد الدنيا التي قد أحلت في ساحته ، وهماً آخر يضاف إلى سجل همومه رغم أنفه ، كما يقول :

ومن نكد الدنـــيا إذا ما تنـكـرتْ أمورٌ- وإن عُـــدّت صغارا -عظائمُ
إذا رُمتُ بـالمـنقاش نتفَ أشـاهبي أتيـــــحَ له من دونـــــــــهنّ الأداهمُ
فـأنتف ما أهـــوى بغـير إرادتـي وأتْركُ ما أقْـلـى وأنْفـي راغـمُ (٢٨٨)

---

(٢٨٦) الديوان : ٢/ ٥٠٥ . الدعج :السواد . شاهمرج : معربة من شاه مرغ ، وهو طائر أبيض كبير الجسم . بنج : كلمة فارسية بمعنى خمسة ، ينظر هامش الديوان نفس الصفحة – والبيت الأول والرابع منسوبان إلى أبى فراس الحمداني في ديوانه ، ٢/ ٩٥ ، شـــرح وتحـــقيق وتعليق ، سامي الدهان ، بيروت ، ١٩٤٤ .

(٢٨٧) فن الشعر : أر سطو ، طاليس ، مع ترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد ، تح : عبد الرحمن بدوي ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٩٧٣ / ٤٨ – ٤٩ .

(٢٨٨) الديوان : ٥ / ٢١٢٢ . أقلى : أكره أو أبغض .

فالتوجس الذي يظهره ابن الرومي من الشيب في هذه الأبيات يدل على نفسيته المضطربة والتي أعلنت الفناء ؛ لأن الشيب كما أسلفنا يعد نذيراً ينبئ بالموت ، وهذا ما صرح به الشاعر بقوله :

حلّ رأسي فراعني أن في الشّيـ ـبِ نَعِيّ الصّبا نذيَر الحِـــمام (٢٨٩)

كما أنه يثير لديه إحساساً بأن شبابه قد انقضى ، وهذا يعني نفور المرأة عنه ، هذا المخلوق الذي ألهب دماءهُ سنينَ ثقيلة ، مكرساً حياته لأجلها ولنيل رضاها ، ولكن الشيب أصبح حائلاً بينهما ، فقد أفقده شبابه الذي هو على يقين بأنه الشفيع الذي يقوده إلى قلبها وقلوب النساء جميعاً ، فـإذا ما ذهب الشباب فقد مكانة عندهن ، لذلك يقول :

يا بياض المشيب سـودْتَ وجهي عند بيض الوجوه سُودُ القرونِ (٢٩٠)

ونظراً لشدة هذا التأثير النفسي من الشيب ، وعمقه في نفسه ، أخذ يرسمه لنا بصورة شخص ضاحك ، يضحك على صاحبه مع ضحك المرأة عليه أثناء تعيرها له حيث يقول :

وَعَيّرتْني بشَيْبِ الرّأس ضاحِكَة منْ ضَاحكٍ فيْه أبْكَانِي وَأضْحكَ بي (٢٩١)

ولو أمعنا النظر جيدا في هذا البيت ، لوجدنا أن ابن الرومي قد قدم لنا صورة معبرة عن تلك المأساة التي لا تنقضي ، فالضحك هنا لا يأتي إلا للاستهزاء ، والضاحك الذي يقصده الشاعر هو الشيب ، فإذا ما استهزأ أحد من شخص ما يكون استهزاؤه أمام الناس ، وإذا ما خلد إلى داره انتهى ذلك الاستهزاء ، أما هذا الضاحك فإنه ملتصق برأسه أينما ذهب .

وتبرز قوة هذا الاستهزاء ، من خلال تكراره للفظة الضحك ثلاث مرات في بيت واحد (ضاحكة ، ضاحك ، اضحك) دلالة على شدة المعاناة من وطأة الشيب عليه.

---

(٢٨٩) الديوان : ٦ / ٢٣٦٦ .

(٢٩٠) م . ن : ٦ / ٢٤٨٣ .

(٢٩١) م . ن : ١ / ١٩٠ .

ولكي يزيد من دلالة معاناته من الشيب نراه يعدد آثاره السلبية في نص آخر ، ومنها أنه جلا رأسه بالبياض ، وأفسد بينه وبين الحسان ، وأوحش عنه كؤوس الخمرة ، حتى أخذ يظن أنه مظلوم وظالمه الشيب ، ولكأن القيامة قد قامت ، فيا لهول الموقف ! ويا لبراعة الأداء ! ما التهويل هنا إلا رمز من رموز المعاناة الأبدية فاستمع إليه :

أقـــام مشـــيبيّ علـي القـيامه وعمـــمني منه أخـزى عمـــامه
فافـسد بـــيني وبـــين المـــلاح وأوحـــش مني كؤوس المـــدامه
ظُلمتُ ولا حـــــاكم عـــــادل على الشيب يسمعُ منّي الظّــلامهْ (٢٩٢)

وقد كان لذلك الإحساس العميق بالشيب أثر كبير في نفسية الشاعر ، إذ تمخض لديه بحكمة مفادها : أن من الوفاء على الإنسان أن لا يبكي على شبابه ، إلا بدموع من دم ، لأنه لا يشعر به إلا زمن الشيب والهرم :

لا تلح منْ يبكـــــــي شبيبته إلا إذا لـــم يبْـــــكِها بِـــدم
عيْـبُ الشبيـة غـولُ سَكْرتِهـا مقدارَ مـا فيـهـــا من النّعـم
لسنا نـراها حـــــقّ رُؤيتـهـــــا إلاّ زمـــــان الشيب والـهرم (٢٩٣)

وفي النهاية نجد الشاعر بعد ذلك النزاع العنيف مع الشيب ، يقف منه موقف اليائس الذي لا حيلة له ، ليعلن استسلامه قائلاً :

وَقـلْـتُ مُسَلّـماً للشّيْـبِ : أهْـلاً بِـهادِي المُخْطِئـيْنَ إلى الصّوَابِ (٢٩٤)

نعم ، فالشيب يدل على بلوغ الإنسان الحكمة والخبرة في الحياة ، والإهداء إلى الطريق الأصح ، ولكن لنرَ الطريق الذي أختاره ابن الرومي بعد هدايته :

الآن حين أجدّ الشيـــبُ يطلبُنـــي أبادرُ الشّـــيبَ باللذاتِ عجْـلانا (٢٩٥)

---

(٢٩٢) الديوان : ٦ / ٢٤١١ .
(٢٩٣) م . ن : ٦ / ٢٣٤٣ – ٢٣٤٤ .
(٢٩٤) م . ن : ١ / ٢٥٥ .
(٢٩٥) م . ن : ٦ / ٢٤٤٠ .

وقوله :

لاح شـــيـــبي فرحت امـــرحُ فيه مـرح الـطـرف فـي الـعِذار المـــحلّى
وتولّى الشّـبـابُ فازدَدْتُ ركضـــاً فـي ميـــادين بـاطـــلـي إذ تـولى (٢٩٦)

نستشف من خلال هذه الأبيات أن شاعرنا يتميز. بنظرة فريدة لا نجد لها مثيلاً عند غيره من الشعراء ، فهو لا يرى في الشيب إلا حـــافزاً يغريه نحو الملذات (٢٩٧) وقد فسرّ الدكتور علي شلق هذه الظاهرة بقوله ((إنها انعكاس ضوئي لما يجري في الداخل من تحول الصبوات وفوات الرغبات)) (٢٩٨) أي أن الشاعر يحاول أن يرضي بداخله ذلك الإحساس المزعوم بالحرمان ، والذي قد خلفه الشيب لـه((فحين يضام الشاعر يسعى إلى البديل)) (٢٩٩) ولهذا فهو يحاول أن يعوض عن ذلك النقص الذي يشعر به ، وليخفف من حدة التوتر النفسي . فالإنسان لا يسعى إلى التعويض إلا ليسد النقص ، وليقلل من النقد الصـادر منه أو من الآخرين (٣٠٠) وعلى أساس ذلك نرى أن ابن الرومي يتعامل مع الشيب وكأنه في معركة عارمة يريدها في النهاية أن تكون لصالحه .

و بهذا يتبين لنا معاناة شاعرنا مع الشيب الذي وطأ شعر رأسه وهو في باكر أيامه ، مما جعله هائماً مبهوتاً به ، فكانت لـه معه أحاديث الصباح والمساء ، وطالت المداخلة ، لامع نجي يبثه النجوى ، أو مع نديم يبادله أنخاب المسامرة ، بل مع شقي أورثه أشد الحسرات .

---

(٢٩٦) الديوان : ٥ / ١٨٩٣ .

(٢٩٧) ينظر ابن الرومي ، خليل مردم بك / ٣٥ .

(٢٩٨) ابن الرومي في الصورة والوجود /٢١٢ .

(٢٩٩) حماسة البحتري ، تح : لـويس شيخو ، دار الكتـاب العربـي ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٦٧ / ١٢١ .

(٣٠٠) ينظر : علم النفس في حياتنا اليومية ، محمد عثمان نجاتي ، مكتبـة النهضـة المصـرية ، ط٢ ، ١٩٥٧ / ١٨١ .

الفصل الثاني

الرؤى الزمانية ونظرة الشاعر

المبـــحث الأول : الاغـــــتراب

المبـــحث الثاني: التشـــــاؤم

المبـــحث الثالث : المـــرأة

المبحث الرابع :الحياة والمـــوت

المبحث الأول

الاغـتراب

قد تعترض الإنسان خلال مسيرة حياته ، حالات من الهم والكدر فردية واجتماعية ، تجعله يعيش في واقع يشعر أنه غريب فيه ، وبعيد عنه كل البعد . وعاجز من خلاله عن تحقيق ذاته[٣٠١] .

فهذه التجربة الإنسانية العميقة الواعية التي تستمد عناصر تكوينها من روافد بيئية ، وثقافية ، وتاريخية ، واجتماعية متعددة ، منها ما يفيد من إحساس الإنسان ، بضياع المغزى الذي من أجله يجهد المرء ويكابد ، ومن أجله يعرق ويأرق ، وقد ينحرف صوب الأفكار المعتمة ، التي تغلف حياته بالتشاؤم والعدمية ، فيشعر إزاءها بعبثية الوجود واللاجداوة [٣٠٢] إذ هو يبحث عن ماهية الذات وجدوى فعلها ، وبسبر أغوارها الإنسانية ، في محولات وتساؤلات خائبة للتوصل إلى غموضها وطبيعة وجودها ، وهو ما يمكن أن نسميه بـ(الاغتراب) .

ويرى أهل الفلسفة أن الاغتراب ، هو ((شعور ينتاب الفرد فيجعله غير قادر على تغيير الوضع الاجتماعي الذي يتفاعل معه)) [٣٠٣] أو هو((الإحساس الفردي بالافتراق في الفكر والوجدان والتركيبة الذاتية عن المحيط ، فيصير الفرد غريباً عن الوسط الذي يعيش فيه ، وقد يصير الفرد غريباً عن ذاته أيضاً ، ويشعر أن أفكاره

---

(٣٠١) ينظر: موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، عبد المنعم الحنفي ، مكتبة المدبولي ، القاهرة ، ١٩٧٠/٣٧ .

(٣٠٢) ينظر: الزمن في شعر الرواد (السياب ،البياتي ، نازك الملائكة ، بلند الحيدري)، رسالة(ماجستير) ، سلام كاظم الأوسي، كلية تربية ، جامعة بغداد ،١٩٩٠ /٥١ .

(٣٠٣) مفاهيم في الفلسفة والإجتماع ، د . أحمد خور شيد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٠ /٤١ .

الخاصة هي فروض غريبة مملاة عليه بالضغط ، وأنه ينفذ مشيئة عـالم غريب عنه)) [٣٠٤].

وعلى أساس ذلك يمكن أن نعد الاغتراب ظاهرة إنسانية توجد في مختلف أنماط الحياة الاجتماعية ، وفي كل الثقافات . وأنه مفهوم شامل وواسع لكل حالات الغربة التي يعانيها الفرد من روحية وجسدية وذاتية وموضوعية وإنسانية وعاطفية وتأملية كونية [٣٠٥].

وإنّ المتتبع لبدايات هذه الظاهرة ، يجدها قديمة قدم الإنسان في هذا الوجود ، فمنذ أن تكونت المجتمعات الأولى نشأت معها ، وفي ظل تقاليدها المشاكل والأزمات التي كانت تتمخض بشكل أو بآخر عن أنواع من الاغتراب عانى منها الفرد ، وكانت تقوده حيناً إلى التمرد والعصيان ، وحيناً إلى الاستسلام والانعزال والانكفاء على الذات .

ولعل هذه المعاني والمفاهيم التي قدمناها للاغتراب نجد مضامينها وتجربة معاناتها قائمة لدى شاعرنا ، الذي تمخضت عدة عوامل أساسها نفسية واجتماعية في بلورة وتكوين هذه المحنة لديه ، والتي يمكن إجمالها بما يأتي[٣٠٦] :

---

(٣٠٤) نقد الشعر في المنظور النفسي /٣٢ .

(٣٠٥) ينظر : الإغتراب مفهوماً وأصطلاحاً وواقعاً ، د . قيس نوري ، مجلة عالم الفكر، م ١٠ ، ع ١ ، وهو عدد خاص بالإغتراب ، الكويت ، ١٩٧٩ / ٧٢ ٠ ومن الجدير بالذكر أن هناك فارقاً بين الغربة والإغتراب ، فالغربة تعني الأرتحال عن الوطن والبعد والهجر، وهو مفهوم إجتماعي بلا شك ، أما الإغتراب فهو حالة نفسية تنشأ عن الكبت أو الخوف أو الهجر أو القلق أو الحرمان أو العجز عن إتمام غاية تجعل الإنسان يشعر بالإغتراب وهو يعيش في وطنه ، وقد أشار إليه التوحيدي بقوله(فأين أنت من غريب ، قد طالت غربته في وطنه) ينظر : الإشارات الإلهية ، لأبي حيان التوحيدي ، تح : عبد الرحمن بدوي ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ،القاهرة ، ١٩٥٠ : ٧٩٠/١ .

(٣٠٦) اعتمدنا دلالة هذه المضامين ، من كتاب الإغتراب في شعر السياب ، أحمد عودة الله الشقيرات ، دار عمار للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط١ ، ١٩٨٧ / ١٢ – ١٦ .

. الانفصال عن العرى الاجتماعية .

. انعدام القدرة على مجابهة الآخرين والشعور بالخذلان .

. التطلع إلى تحقيق هدف ينعدم تحقيقه .

. تلاشي المعايير الاجتماعية المطلوبة والشعور بالوحدة.

والذي لاشك فيه أن من أكثر عوامل الاغتراب ، التي أثرت على مجمل حياة شاعرنا ، وكانت بمثابة ناقوس يرن في سمعه بين الحين والآخر . شدة إحساسه برروميته [٣٠٧] ؛ لأنه كان رومي الأصل من جهة أبيه ، وفارسياً من جهة أمه ، وهذا ما اتفق عليه القدامى والمحدثون [٣٠٨].

ومن هنا ، يبدأ اغتراب شاعرنا ، لأن الإنسان بطبيعته ميال دائماً إلى قوميته ، ويشعر بحب انتمائه لوطنه ، وهذه غريزة أودعها الله (ﷻ) في بني البشر ، لذا كان ابن الرومي محتفظاً بطبيعة جنسه ((حتى صارت روميته هذه التي يتشبث بها ويعلنها ، ولا يكتمها .. مفتاح شعره ونفسيته))[٣٠٩] ولعل ذلك الشعور بـ(عقدة الأصل) ، وليرد عن نفسه سهام الطاعنين فيه ، هو ما دفعه دائماً إلى أن يفتخر ويشير إلى ذلك الأصل في مواضع شتى من ديوانه ، حيث يقول :

آبـــائـــيَ الـرّوم تـوفيلٌ وتوفلـسٌ ولـم يـلـدنـي ربـعـيّ ولا شَـبَـث
ومـا ذهـبـتُ إلـى فـخـر عـلـى أحدٍ لـكـنـه الـقـول يجري حين يُبتعث [٣١٠]

---

(٣٠٧) ينظر : حصاد الهشيم / ٢٧٩ .

(٣٠٨) ينظر : معجم الشعراء ، أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى (المز رباني) (ت ٣٨٤ هـ) ، تح : عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي وشركاه ،١٩٦٠ /١٤٥ ،والأعلام : ٢٩٧/٤ ، وينظر ابن الرومي ،العقاد /٨٨ ، والفن ومذاهبه /٢٠٠ ، و تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، نقله إلى العربية ، د . عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، مصر، ط٣ ، ١٩٧٤ /٤٥ .

(٣٠٩) حصاد الهشيم / ٢٨١ .

(٣١٠) الديوان : ٤٠١/١ ، الشبث : القلة . وينظر مثل هذا المعنى في الديوان : ١٠٤٤/٣(ب ١٥) ، ٩٣٣(ب ١٦ ،١٧) ،٥ /١٩٦٠ (ب٨) ، ٢٥٣٢/٦ (ب٥٥)، ٢٥٥٥ (ب١٨) ، ٢٢٧٢ (ب٩٢) .

فهذا الاضطراب والتردد بين أن يكون أو لا يكون ، أصّل في نفسه القلق والهموم ، وحمل فخره شعوراً بالنقص ، مغلفاً بالرضى ، فهو يعيش مع الناس في ظاهر الأمر ، وبعيد عنهم في حقيقة الأمر ، وقد بدت هذه المعاناة واضحة ، كوضوح الشمس حينما راح يمدح الأخفش المعاصر له[٣١١] ويفضله على الأخفش القديم [٣١٢] ويذكر أنه غريب بين الاثنين ، وأنه بعيد عن المحاباة ،إذ يقول :

ذكر الأخفشُ القديم فقلنا : إن للأخفش الحديث لفضلا
وإذا ما حكمتُ والرّوُم قومي في كلام مُعرّب كنت عدْلا
أنا بين الخصوم فيه غريبٌ لا أرى الزور للمحاباة أهلا[٣١٣]

وعلى ما يبدو أن هذه الفكرة أصبحت مبدءاً لا يحيد عنه ، لذا نراه دائم الالتفات إلى مثل هذا المعنى ، كما في قوله:

رُبّ أكْرُومةٍ لَهُ لَمْ تَخَلها قَبْلهُ في الطّبَاع وَ التّرْكِيبِ
غرّبَتْهُ الخَلائق الزّهرُ في النّا س ، وَمَا أوْحَشتْهُ بالتّغْريبِ [٣١٤]

فالشاعر هنا ، كأنه يعني نفسه ويحتاط من أجلها ويصف حاله هو لا ممدوحه . وقد نجده يصرح بأنه غريب بين العرب وفي ظلهم ، وأنه فقد وطنه ، كما نتبين ذلك في قوله لبعضهم حينما بلغه أنّه يحسده ويعيب شعره :

أيّها الحاسدي على صُحْبتي العُسـ ـر وذمّي الزّمانَ والإخوانا
... ...

---

(٣١١) أبو الحسن علي بن سليمان بن الفضل المعروف بالأخفش الأصغر ، عالم بالنحو من أهل بغداد ، (ت ٣١٥ هـ) ، من كتبه شرح سيبويه ، والأنواء ، وغيرها ، ينظر: الأعلام :٢٩١/٤ .

(٣١٢) الأخفش القديم : هو عبد الحميد بن عبد المجيد مولى قيس بن ثعلبه ، أبو خطاب والمعروف بالأخفش الأكبر ، من كبار العلماء بالعربية وهو أول من فسر الشعر تحت كل بيت وما كان الناس يعرفون ذلك قبله ، ينظر الأعلام ، ٢٨٨/٣ ٠

(٣١٣) الديوان : ١٩٢١/٥ ــ ١٩٢٢ .

(٣١٤) م . ن : ١٤٠/١ ٠ الاكرومة : فعل الكرم كالمكرمة . لم تخلها : لم تظنها ، التركيب : تكوين الخلقة .

أعلى أنّني ظمِئْتُ و أضْحى كُلّ مَنْ كان صاديّا ريّانا؟
أمْ على أنني ثكلتَ شقيقي وعدمْتُ الثّراءَ والأوطانا ؟[٣١٥]

والمتأمل لقول الشاعر (ظمئت ، وعدمت ..الأوطانا) يجدها ألفاظاً تشير إلى الشوق والحنين إلى الوطن ، لذا فابن الرومي يشعر بمحنة الواقع المعاش إلى جانب شعوره بالغربة النفسية ، فهو على الرغم من انتمائه إلى العرب ولادة ونشأة ، لكن رابطة الأصل وإحساسه بفقدان الوطن مازالت تنخر في ذاته كونه غريباً عنهم وفي وطن غير وطنه .

فهذا الإحساس بالتفرد هو الذي جنى عليه وغرّبه عن النفوس أبناء عصره وأذواقهم ، فلم يألفوا ولم يطربوا له ، طربهم لاشباههم الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعاني على طريقتهم ، فكان يحدثهم عن طبع غير طباعهم ومزاج غير أمزجتهم ، ويطلع عليهم بشعر ليس فيه من العربية إلا كلماتها وحروفها ، أما معانيه فهي من معدن غير معدنها وعالم بعيد عن عالمها [٣١٦] فغرابة أطواره هذه هي التي جعلته هدفاً لكل ما في الطبائع الإنسانية من لؤم وتعاسة وسوء ظن ومجانبة [٣١٧] حيث أفردته عنهم إفراد الطائر الصادح في غير سربه ، لذا بدا شاعرنا يضيق ذرعاً بما يدور حوله ، وقد نراه ينحل ويتلاشى عما هو موجود في مجتمعه من روابط وأواصر ، فنراه يطالعنا بأبيات شعرية ، ليثير في نفسه كوامن الغربة التي يعيشها ، وهو بين أهله وأحبائه :

رأيت الدّهر يجرح ثمّ يأسو يؤسّي أو يعوّض أو ينسّي
أبت نفسي الهلاع لرزء شيءٍ كفى شجواً لنفسي رزء نفسي
أتهلع وحشة لفراق إلفٍ وقد وطنتها لحلول رمسِ ؟[٣١٨]

---

(٣١٥) م . ن : ٦/ ٢٤٥٨ ــ ٢٤٥٩ .

(٣١٦) ينظر : ديوان ابن الرومي ، اختيار وتصنيف ، كامل كيلاني ، مطبعة التوفيق الأدبية ، وبه مقدمة للأستاذ العقاد / د .

(٣١٧) ينظر : ابن الرومي ، للعقاد / ١٩٣ .

(٣١٨) الديوان : ٣/ ١١٦٨ .

فاختلاف ذلك الطبع أو بالأحرى تلك الحياة التي كان ينشدها ويرسمها بفرشاته الخاصة ، جعلت منه إنساناً ، كأنما ألقي به من زمن آخر بين أناس هم في وادٍ ، وهو في وادٍ آخر بعيداً عنهم . لا يصله بهم سوى خيوط رفيعة شفافة أقواها حسه وذائقة الجمال [٣١٩] ولهذا فهو يشعر بأنه غريب عنهم وعن عالمهم ، وله القول :

أحـمـدُ الله مُـبـدِئـاً ومُـعيدا حـمـدَ مـن لـم يـزل إليـه مُنيبا
أنـا فـي خِـطّـتي وأهلي ومـالي وكأنـي أمسيتُ فـرداً غريـبا [٣٢٠]

ومع هـذا فمن الخطأ الظن بأن شـاعرنا لم يحاول التقرب إلى أبناء عصره ، ويوثق علاقته معهم ، بل على العكس من ذلك ((فقد كان العطف حاجة من حاجات قلبه وضرورة من ضروراته ، ووقاء له مما كان يرهقه ويشتد على صبره))[٣٢١] حتى كان عطف الصديق يحي نفسه ويخلقه من جديد ، لأنه كان يشعر أن الانفصـال عن الآخرين يكون أكثـر عمقاً فيه حالة الإنقطاع التي يعانيها :

أرانـي وإن كثر المؤنسـو ن – ما غاب عني – وحـيداً فريـدا [٣٢٢]

كما كان شديد التودد إلى الناس ، لكنه لا يجد من يبادله المشاعر، فترجع نفسه متألمة منكسرة دائمة العتاب ، علها تحظى بالتفاته من أنيس قريب كان أم من بعيد ، إنه التمني في إلغاء حالة القطيعة التي يعانيها :

تودّدتُ حتـى لم أجـد مُتودّدا وأمللـتُ أقلامي عتاباً مُـردّدا [٣٢٣]

فالتودد الذي يبتغيه شاعرنا في هذا البيت ، لدليل أكيد على ما في نفسه من عاطفة محرومة نتج عنها حقيقة بائنة في أشعاره وهي أطالته للقصائد . فابن الرومي حين لم يجد هذا الإنسان الذي يبادله المشاعر في دنيا الواقع راح (يحيا) معه في

---

(٣١٩) ينظر : ابن الرومي ، خليل شرف الدين / ١٠ .
(٣٢٠) الديوان : ١/ ٢٣٨ – ٢٣٩ . خطتي : محلي أو مقامي .
(٣٢١) ابن الرومي ، للعقاد /١٥٢ .
(٣٢٢) الديوان : ٧٦٦/٢ .
(٣٢٣) م . ن : ٧٧٠/٢ .

عالم فنه وشعره ، فطالت بذلك قصائده خاصةً المدحية منها ، ونراه حيناً لا يجده مبـــاشرةً يتوجه إليه عبر الأشياء والمعاني فيؤنسها تارةً ويجسدها تارةً ويجردها تارةً أخرى [٣٢٤] .

وبمـــا أن الشـــاعر ((شخص متحرر من القوالب المنطقية والقوالب الواقعية)) [٣٢٥] فقد نشأت بين ابن الرومي ومجتمعه حالة تشبه العداء ، حينما شعر بأنه موزع بين عالمين لا يشعر بالاطمئنان في أحدهما ، وفي غمرة من الإحساس بالألم والتصدع والانكسار والحزن الاجتماعي ، لم يملك الشاعر إلا أن ينصرف إلى ذاته ، وإلى التحدي والتمرد على القيم والعادات التي وجدها فاسدة في مجتمعه من ضعفٍ ونقص ، فكان شعره يصدر عن حس صادق معبر عن نفسه الثائرة والناقمة على تناقضـات مجتمعه وموازينه المنقلبة المعكوسة[٣٢٦] كل هـذا قد أبـرز(الأنا) في شعره وفي حياته . لأن الآلام النفسية والروحية التي نعانيها هي التي تخلع على وجودنا الشخصي كل حالة من فردية وأصالة [٣٢٧] وابن الرومي ، كان يطمح في أن يعيش حياة منعمة تكون منسجمة مع نسيج أحلامه وآماله التي يسعى إليها ، لكنه اخفق في ذلك ولعدم تكيفه مع الظروف المحيطة به جاء شعره حافلاً بذكر نفسه ، كما في قوله :

وَرجَـــالٌ تغلّـبـُـوَا بـِزَمَـــــان أنـَـا فـيْـه وَفيْـهمُ ذو إغْـــتِرابِ

---

(٣٢٤) ينظر: ابن الرومي ، خليل شرف الدين /١١١ .

(٣٢٥) سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب ، يوسف ميخائيل أسعد ، دار الشـــؤون الثقافية العامة ، بغداد (ب ـ ط) ، ١٩٨٤ /١٧٠ .

(٣٢٦) ينظر : الديوان : ٢٧٩/١ ـ ٢٨٩ ، ٦٨٩/٢،٤/١٥٧١.

(٣٢٧) ينظر : الخبرة الوجدانية ، (مقال) ، إبراهيم زكريا ، مجلة العربي ، ع١٤٩ ، نيسان ، ١٩٧١ /١٥٢ .

غَـلَـبوني بِـــهِ عَـلـــى كُلّ حظٍّ غيْرَ حَـــظٍّ يَفُوْتُ كُلّ اغْتِصَـابِ
إنّـني مُؤمنٌ وَإنّـــي أخُـــو الحـقّ قِ علـــيْمٌ بِفِرْعِـــهِ وَالنّصَـابِ
قلْتُ :إنْ تغلِبُوا بِغالِبِ مغْلُوْ بٍ فَحَسْبي بِـغالِبِ الـــغَلاّبِ (٣٢٨)

والناظر إلى هذه الأبيات يجد الشاعر ((يعيش منفياً عن حاضره هائماً على وجهه ، في عالم لا يسوده فيه سوى صدى أشياء مهشمة)) (٣٢٩) فهو يتحدث عن الغربة في حياته ، ونحن نعلم أن أصحاب العقيدة والرسالة يعيشون في غربة بين أصحاب الواقع والربح والمال ، أنها غربة صاحب المصير بين قوم ذوي مصائر تافهة ، ولكن غربة ابن الرومي في الحقيقة ليست سوى غربة فشل ، يعني أطماع الناس ، لأنه عجز عن تحقيق أطماعه (٣٣٠) فكان الحظ الذريعة التي يتحجج بها ويعزو إليها سبب فشله كونه قد حالف غيره من ذوي الأموال ولم يحالفه ويناصره في حياته .

وهو إلى جانب هذا ينصح ولا يكاد ينتصح ، ينادي بالباطل ويدرك أن الحياة مشمرة للفناء ، وأن سعادته كتعاسته متساويين ، لكنه في الوقت نفسه ينتفض ويتحرّق لها في كل لحظة من لحظات عمره ، ولعل هذين التناقض والإلتباس كانا سبب وحشته وأنفراده(٣٣١) كما يقول :

كنـــت مستوحـشاً فأظهرت بخسا زادني وحشةً من الخلـــــطاء (٣٣٢)

---

(٣٢٨) الديوان : ١/ ٢٨٠ . وينظر الديوان ١/ ٧٢ (ب ١٦٤) ، ٨١ (ب ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧) ،٨٩ (ب ١٣٢) ، ٢٣٩ (ب ٧) ، ٣/ ١١٠٥ (ب٣) ،١٢٠٢(ب ١٩) ، ٤ / ١٣٣٦ (ب ٥٣) ، ١٥٣٢ (ب ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩) ، ٥ / ١٩٨١ (ب ٨٥) ، ٢٠٣٠ (٨٨) ، ٢٠٥٠ (ب ٥٤) .

(٣٢٩) الزمن التراجيدي في الرواية المعاصرة /١٥٩ .

(٣٣٠) ينظر : فن الهجاء وتطوره عند العرب /٥٢٠ .

(٣٣١) ينظر : ابن الرومي فنه ونفسيته /٣١١ ـ ٣١٢ .

(٣٣٢) الديوان : ١/ ٧١ .

فالشاعر – كما نلاحظ – تبدو عليه بوادر الضعف والإنكسار واضحة في قوله (كنت مستوحشاً) ، إنه اليـأس الذي يسكن نفسه ، والناتج عن مجانبة الخلطاء ، لشعوره بالوحشة معهم .

ولعل الذي زاد من دائرة هذه الغربة وبعده عن الناس ، هو فقدانه الأحبة فـ((الذي يفقد الحبيب تشطره الغربة شطراً دامياً ، وترميه في الآبار البعيدة التي لا قـاع لها ، مقذوفاً أبداً ، ونـــاشجاً أبداً لا أمل له في أن يحقق التـــلاؤم مع الزمن))[٣٣٣] ، لذا كان فقد الأحبة عند شاعرنا الصاعقة الكبرى التي هزت عرش حياته ، فتهاوت الدنيا تحت قدميه تافهة ، لا تساوي شيئاً فبفقدانه لهم عاش غربة مضاعفة وهو يعيش بين الناس ، وقد رافق ذلك الفقدان شعوراً بالخوف والقلق وعدم الاستقرار ، فنراه يطلق زفرات الأنين في رثائه لأمه ولأهله الراحلين ، فأمه كانت له خير أنيس وهي السلوة التي تهون عليه رزايا الدنيا وتخفف عنه همومه وآلامه ، فإليها يشتكي الشاعر وبها ينفرج كل هم وغم :

ألا من إليه أشْتكـــــي ما ينو بني فيُفرجُ عنّـــي كُلّ غمّ وكُلّ هــمْ [٣٣٤]

فما أقسى هذه الحال ! وهو يودع أحباءه واحداً تلو الآخر، لتصبح هذه الدنيا غريبة عنه ، وتتجمع الفجيعة لديه من كل جانب ، من الحياة والأحباء ، فأين يكون العزاء ؟ وبمن يلوذ الشاعر ؟ وقد ودع ولده (هبة الله) إلى مثواه الأخير ، ليقول :

أبُنـــيّ إنك والـــــــعزاء مـعاً بالأمـــس لـــفّ عليكـــما كفن

... ...

والآن حيـــن ظعنت عن وطنـــي سمج المـــقام وطـــاب لي الظعن

ما أصبـــحتْ دنياي لـــي وطنا بل حيـــث دارُك عـندي الوطـــن

مـــا في النـــهار وقد فقدتك مـنْ أنـــس ولا في الليل لـــي سكن [٣٣٥]

---

(٣٣٣) الإغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ،١٩٨٧ /١٣٥ .

(٣٣٤) الديوان : ٢٣٠٩/٦ .

(٣٣٥) م. ن : ٦/ ٢٥١٥ . سمج : قبح .

وقد ينحرف الاتجاه ، فالحياة لم تعد كما كانت عند شاعرنا ، ففقده لولده كان بمثابة المأساة الحقيقة التي قضّت مضجعه ، مما جعله يتمنى قدوم الموت كي يلحق به ، كما في قوله وهو يرثي أبنه (محمد) :

وأنـــتَ وَإنْ أفـردْت في دَار وحْشةٍ فإني بدَار الأنـس في وحْشـــةِ الفـرْدِ

أودّ إذا مَا الـمُـوْت أوْفد مـــعْشراً إلى عسْكر الأمْـوَات أني مِنَ الوفْدِ (٣٣٦)

ولنا أن نتصور مدى هذه الغربة الروحية الشديدة المسيطرة على ابن الرومي ، والتي وصلت به إلى أن يلجأ إلى الموت ، ليصبح لديه ملاذاً أميناً يلتقي فيه بابنه الذي حرمه منه .

فهذا التقلب للظروف التي يمر بها الشاعر ، كفيلةً بتجسيد إحساسه الفاجع بالغربة ، والتي ازدادت وطأتها عليه بحلول غربة أخرى ، كان لها بالغ الأثر في حياته ، ألا وهي (الشيخوخة والكبر) . فالإنسان في شيخوخته يشعر بالاغتراب إذا طال به العمر ، وانقطع عن أقرانه (٣٣٧) ولهذا يعيش مصيبة الحاضر وثقله عليه ، متأرجحاً بين ذكريات الماضي ، والخوف من مستقبل مجهول . لأن الوقت قد انتهى وأن المسرح من الآن فصاعداً قد أصبح ملكاً لجيل آخر (٣٣٨) .

ومن هذا المنطلق يرى شاعرنا أن حياة الإنسان بعد مشيبه لا تعدو إلا أن تكون حياة أسير :

رَأيْـتُ حيَاة الـمَـرْء بـــعْدَ مَشيْبه إذا زَاول الدّنْـيَا حَيَاة أســـيْر (٣٣٩)

وهنا إشارة إلى ذلك الواقع القاسي الذي يكون عليه في تلك المرحلة ، حيث الضعف والشعور بالذل والخذلان والذي يولد لديه الغربة والانقطاع عن العالم المحيط به ، إنه بحق تعبير حكيم عن تلك المعاناة . لأن الناس من طبيعتهم لا يواصلون فانياً (٣٤٠) لذا نجد شاعرنا يستنكر على أحد أصدقائه موقفه منه ، بعد ما

---

(٣٣٦) الديوان : ٢/ ٦٢٧ .

(٣٣٧) ينظر : الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي /١٠٤ .

(٣٣٨) ينظر : مشكلة الإنسان /١٨٨ .

(٣٣٩) الديوان : ٣/٩٩٧ .

(٣٤٠) ينظر : الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي/٣٣٩ .

نالت منه الشيخوخة والكبر ، فهو الذي كان يظنه ، إذا ما شاخ يبقى يواصله ويحسن رعايته ، لكنه تجاهل ما كان بينهما من ألفة ومودة ، فقال :

وخلّ كخلم السوء أنكرتُ ودّه ... وخلته أن نال من وجهي الكُبْرُ
يظل يُراعني بعينى شناءة ... يدل على بغضائها النظر الشّزرُ
رأى الدهر قد أودى بماء شبيبتي ... فأنكر مني الشيبَ، إنكارهُ النكرُ
كأنا تعاقدنا الخلالة بيننا ... على أنني بسلٌ على الدهر أو حجْرُ
ضمنتُ له أن لا أخون فظنني ... ضمنت له أن لا يخوّنني الدهرُ
تجاهل أحداث الزّمان، وإنه ... ليعلم حقاً أنّ قصرى له قصرُ (٣٤١)

وقد تجلى إحساس الشاعر بالغربة ، في زمن الشيخوخة أكثر، ليستمر في تأكيد انفصاله عن الآخرين ، وانفصال الآخرين عنه ، إنها ظاهرة رافقته في كل مكان حتى بدت الأشياء غريبة عليه:

كبرت فغيرك الغرّ الغُلامُ ... وغير قناعك الجعدُ السّخامُ
وأمسى ماء وجهك غاض عنه ... فماء شؤونك الفيض السّجامُ
وأصبحت الظباء مُجانباتٍ ... جنابك مالها فيه بغامُ
وقد يألفني ومعي سهامي ... فما هذا النّفار ولا سِهامُ
أأوحشها وقد نصلتْ نِبالي ... وأونسها وفي نبلي الحِمامُ؟ (٣٤٢)

ويأتي الشعر ليضيف بوادر المكابرة و الصدود ، حفاظا على ما تبقى من سنن الحياة الزائفة ، إنها العزة التي تسكن في حنايا النفس المعذبة :

أنا ذاك الذي سقته يد السقـ ... ـم كؤوساً من المُرارِ رواء
ورماه الزّمان في شقّة النفـ ... ـس ، فأصمى فؤاده إصماء
وأبتلاهُ بالعسر في ذاك والوحْـ ... ـشةِ حتى أملّ منه البلاء

---

(٣٤١) الديوان : ٣/ ٩٥٧ - ٩٥٨ .

(٣٤٢) م . ن : ٦/ ٢٢٨٠ - ٢٢٨١ . الجعد : الشعر . السخام : الأسود . البغام : يقال بغمت الظباء بغوماً ، أي صاحت على ولدها بأرخم ما يكون .

كـلّ هـذا لقيتُه فـأبتْ نـفْـسـي إلا تـعززاً لا أختـتاء (٣٤٣)

ويبدو أن الشاعر بعد هذا قد أحس بأن الزمن كالجدول الجاري سعيد ، بينما يتلاشى أبناؤه كما يتلاشى الحلم عند تطلع الفجر (٣٤٤) حيث نراه بعد أن فقد سبل التواصل مع أبناء جلدته قرر الابتعاد عنهم ، راضياً بوحدته التي بات يفضلها عليهم ، مقدماً بذلك أعذاره التي جعلته يهجرهم قائلاً:

ذقتُ الطـعوم فما التذذت كراحة من صحبة الأشرار والأخيار
أما الصديق فلا أحب لقاءه حذر القلى ، وكراهة الإعوار
وأرى العدو قذى فأكره قربه فهجرت هذا الخلق عن إعذار
أرني صديقاً لا ينوء بسقطةٍ من عيبه في قدر صدر نهار
أرني الذي عاشرته فوجدت متغاضياً لك عن اقل عثار(٣٤٥)

فانفراد الشاعر بهذه المعاني هيأ له جواً من الغربة الروحية . لأن الإنسان الذي يعجز عن الاتحاد بالجوهر الاجتماعي يقع في تجربة اغتراب نفسي مروراً صوب العزلة والإنفراد (٣٤٦) وإن أعراض هذه العزلة التي نجد شاعرنا يقدمها بجملة أعذار ، تعني أن علاقته بالعالم المحيط به قد تحطمت ووصلت إلى حد الانقطاع ، خاصة بعدما وجدهم لا ينظرون إليه ، إلا بعين السخرية و الاستصغار منغصين بهذا من علوّ قدره ومكانته مما جعله ينزوي جانباً عن مصاحبتهم :

وأعفيتُ نفسي من أناس أراهمُ يعدّونني رذلاً وما أنا بالرذل(٣٤٧)

---

(٣٤٣) الديوان : ١/ ٩١ ٠أختتاء : الخوف .

(٣٤٤) ينظر : اللامتناهي ، كولن ولسون ، ترجمة أنيس زكي حسن ، دار القلم للملايين ، بيروت ، لبنان ،١٩٦٣ /١٧ .

(٣٤٥) الديوان : ٣/ ١٠٣٨ ٠ القلى : البغض . الإعوار : كل شيء يستره الإنسان من أعضاء . قذى : ما يقع في العين من الشوائب .

(٣٤٦) ينظر : الإغتراب مفهوماً واصطلاحاً وواقعاً /٢١ .

(٣٤٧) الديوان : ٢٠٠٢/٥ . نضل : يقال (ناضله) أي راماه (فنضله) أي غلبه .

والملاحظ هذا الذم والإدانة للجماعة واستصغار الآخرين ، ما هو إلا خطاب واع لزمن يستخف بقيمته ، ليؤكد عدم اعترافه بالجمـــاعة ، وصراعه للانفصال عنها ، إنه خطاب التغيير والانتماء الذي يدور في خلد شاعرنا .

وعلى ضوء ما تقدم يمكن القول : إن فشل ابن الرومي الذريع في عالمه المعاش الذي نبذه وافقده أحبته ، وإخفاقه في تكوين علاقات طيبة مع أبناء عصره ، وضيقه بالحياة وكثرة همومه كانت سبباً في أن يبتدع له عالماً جديداً ، كان على يقين بأنه لا يخذله ويعوضه في عزلته عن كل ما قد فقده ، فكان هذا العالم متمثلاً بـ(الطبيعة) التي انصهرت مع ذاته ، حتى أصبحت له المغنيات والأولاد هذه الأشياء التي حرم منها في حياته :

منـــــظر معـــجبٌ تحية أنـف ريحـــــها ريـــح طيـــب الأولادِ
مَسمُـع مُـطرب إذا شئت مُـله لك عن كـــل طـــــارف وتـــلادِ
تتداعى بـــها حمـــــائمُ شـــتّى كالبواكي وكالقيـــــان الشوادي
من مثـــان مُمـــتـعات قـــــران وفـــراد مفجـــــــعات وحـــــادِ
تتغنى القران مـــهن فـــي الأيـ ـك وتبـــكي الـــفراد شجو الفرادِ (٣٤٨)

والناظر إلى هذه الأبيات يجدها قد ارتبطت برؤية الشاعر وحالته النفسية ، التي صبغت الطبيعة بتلك الأحاسيس حتى أكستها الحياة ، إذ امتزج حاضره بماضيه ، ولحظات سعادته بأيام بؤسه ، وعنف شهوته بعاطفة الأبوة ، وبشعور الخيبة والحرمان . فمنظر هذه الروضة وطيبها يملأ نفسه حناناً وعطفاً كرائحة الأولاد النجباء ، والحمائم ليست في الواقع سوى قيان باكيات طرباً ، سرعان ما تتحد وتفيض في عتمة نفسه حيث تمتزج بضميره المظلم البعيد ، ليشاهد الحمائم المتزاوجة القران ، والحمائم المفردة تلك تطرب لأنسها ورضاها ، وهذه تبكي الوحشة والانفراد(٣٤٩).

---

(٣٤٨) الديوان : ٢/ ٦٨٤ . طارف وتلاد : جديد وقديم. مثان : اثنتان . قران : اقتران. وحاد: وحيدات أو فرادى .

(٣٤٩) ينظر : ابن الرومي فنه ونفسيته / ٣٧ .

ومن المعروف أن الحمائم تهدل هديلاً لا تبكي بكاءً ، ولكن شاعرنا قد تجاوز هذا المظهر العادي المتشابه ، وأناط به واقعاً جديداً من واقعة ، فجعل الفريدة تبكي انفرادها كما يبكي هو وحشته ، وجعل القرائن تطرب وتنعم بالمتعة التي يتحسر عليها في انفراده[٣٥٠] لتكون هذه الأبيات بالنهاية أشبه بمعزوفة مأساوية متعددة الأنغام ، بعيدة الإيحاءات ، عنيفة الوقع تصور حياة نفس بكاملها بجميع آلامها وأمانيها وسعادتها المفقودة ، التي لم تجد إلا الطبيعة لتؤنس وحدتها وتحيي آمالها من جديد :

إذا شئْتُ حيّتني ريـــاحيْنُ جـنـّـةٍ ... علـــى سُوقها في كُلّ حـــين تنفسُ
وإنْ شئْتُ ألهـَاني سَمـــَـاعٌ بمثلـهِ ... حمـــامٌ تغنى في غصـــون تُوسوسُ
تُلاعِبُهَا أيْدي الرّيـــاح إذا جـــرتْ ... فتســمو وتحنـــو تارة فتنـــكسُ
إذا مَا أعَارتها الصّـــبَا حركـاتِها ... أفادتْ بـــهَا أنْس الحـيَاة فتؤنسُ [٣٥١]

فالشاعر هنا ، قد صور إحساسه المحروم الذي هو بحاجة إلى أنيس وأليف ، يخفف عنه وحشته وانفراده ، فجـاء بألفـــاظ توحي إلى ذلك ، ولتحل محله (رياحين ، الصبا ، الغناء ، هديل الحمام) ولعل البيت الأخير منها واف بهذا المعنى الذي يشير إلى تلك المظاهر المترجمة لحس الشاعر .

هكذا إذن عاش ابن الرومي غريباً مع نفسه ، وفي زمنه ومغترباً مع قومه ، فانسابت هذه الغربة إلى فنه حتى أفردته عن غيره من الشعراء ، وإذا كانت مهمة الشاعر نقل التجربة إلى الآخرين ، فقد مثل شاعرنا هذا الدور تمثيلاً صادقاً ، حيث جاءت غربته تبين لنا حاله ومعاناته التي اجتمعت عدة أسباب على إحداثها كان في مقدمتها عقدة الشعور بالأصل التي أثرت على مجمل حياته ، فضلاً عن إحساسه بفقدان الكيان الأسري ، وعدم الاستقرار في شيخوخته وهرمه ، وإخفاقه في معاملته مع الناس كانت سبباً في تلك المعاناة والاغتراب .

---

(٣٥٠) ينظر : ابن الرومي فنه ونفسيته /٣٧ – ٣٨ .

(٣٥١) الديوان : ١٢٣١/٣ .

المبحث الثاني

التـشاؤم

منذ أن وجد الإنسان ، وهو يعاني أزمة الحياة وما فيها من خير وشر، وأمل ويأس ، ونور وظلمة ، وسرور وحزن ، فليست حياة الإنسان مشرقة دائماً ، ولا مظلمة دائماً ، بل تلتقي الصفحتان ، تـارة تكون نقية صافية ، وتارة تكون كدرة قاتمة [٣٥٢] والعاقل الحكيم هو الذي يعجل ، فيبدد السحب التي تغشى ذهنه وتفكيره أحياناً ، ويسترجع تذوقه لجمالات الحياة وأفراحها ، أما من سيطر على ذهنه الحزن وتساورته الأوهام ، حتى لا يكاد يرى في زمنه المعاش إلا البؤس والظلام ، فذلك هو المتشائم الذي يعلل كل شيء بمنظاره الأسود القاتم .

وتأسيساً على ذلك يعرف التشاؤم بأنه ((نزعة اعتيادية في الذهن إلى رؤية كل شيء أسود قاتم ، وأخذ الجانب السلبي من كل شيء وإهمال ما عداه)) [٣٥٣] فهو((ليس صفة من صفات الشخصية ، وإنما هو سلوك خارج ناتج عن التأثير البيئي والظروف المحيطة فيه ، والخبرات التي يمر بها الشخص))[٣٥٤] .

والناظر إلى حال شاعرنا ، الذي أجمع مؤرخو الأدب العربي إلى تسمية منهجه في نظرته إلى الوجود (تشاؤماً أو طيرة) وكلاهما يشير إلى توقع الشر في الحياة [٣٥٥] يجده كان يعيش على أسطورة من الرعب والوهم ، التي تغشت ذهنه وتفكيره ، حتى أصبحت متلازمة مع وجوده كله ، وكأنه ولد وهو يحمل منظاره ذات

---

(٣٥٢) ينظر : دراسات في الشعر العربي المعاصر ، د . شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط٧ ، ١٩٥٩ /١٠٥ .

(٣٥٣) التغلب على التشاؤم ، عبد اللطيف شرارة ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٧٥/٩ .

(٣٥٤) التفاؤل والتشاؤم ، يوسف ميخائيل أسعد ، دار النهضة للطباعة والنشر بالفجالة ، مصر (ب – ط) ، (ب – ت) /٨ .

(٣٥٥) ينظر : ابن الرومي في الصورة والوجود /١٠٥ .

لون خاص به ، تغافل بها عن نعيم الحياة ، ولم يعترف إلا بوجود المصيبة ، لذا كانت نظراته وأحكامه للوجود ذاتية متشحة غالباً بالسواد والتشاؤم .

فهذه النزعة التشاؤمية المفرطة ، لابد وأن لها مسببات لعبت دوراً كبيراً في إحداث هذه الفوضى في حياته ، ومن هذه المسببات التي ركز النقاد عليها :هي كثرة الفواجع التي حلت عليه فأدت بالنتيجة إلى اختلال أعصابه فأصبحت الأشباح والأطياف كثيرة في وهمه (٣٥٦) كما كان عصر ابن الرومي نفسه هو المسؤول عن هذه الحالة ، بسبب وجود الاعتقادات السائدة في ذلك المجتمع حيث الإيمان بالسعد والنحس والفال والزجر، حتى أصبح مذهب الشك هو السائد فيه (٣٥٧) فضلاً عن ذلك أن شاعرنا لم يحصل على شيء مما طمح فيه – اللهم إلا الآمال والوعود الكاذبة ، فهي كل ما ناله من الدنيا فأصطدمت هذه الآمال بصخرة الواقع الصلدة ، وفشل في تحقيق مطامعه . ولهذا أسرف في ذلك التشاؤم وتمسك بتلك الطيرة اللامنطقية ، والتي ترتب على أثرها اتهامه باللعنة والشؤم من قبل الباحثين (٣٥٨) إلا أن شاعرنا نفى عن نفسه هذه اللعنة ، وأكد أنه ميمون مبارك ، فقال :

كَـذبَ الزّاعِـمُونَ أنّـي مشْؤُ مٌ كُلّ زعـم مُكَـذبٌ مَكْـذوبُ

بَلْ لِي اليُمْنُ - لا مَـحَالة - كالصّـبْ ـح إذا لاحَ ضَـوؤهُ المشْـبُوبُ (٣٥٩)

ولعلها تكون المصادفة وسوء الحظ وليست اللعنة مثلما قالوا ، فابن الرومي أراد أن يسلط مشاعره وأفكاره على هذه الحياة ، عساه أن يتفهمها أو يقهرها ، ولكن أنى لـه هذا إنها أقوى من كل فكر وشعور، لذا تراكمت عليه الظلمات وبانت الدنيا

---

(٣٥٦) ينظر : ابن الرومي الشاعر المغبون /٩ . و ينظر : ابن الرومي العقاد /٢٠٨ ، وابن الرومي الشاعر الوجل ، عبد الغني خماس ، مطبعة عصام ، بغداد ، ٢٢/١٩٨٦ .و ثقافة الناقد الأدبي / ١٤٥ .

(٣٥٧) ينظر : ابن الرومي ، محمد عبد الغني /٢٧ ، و ابن الرومي ، العقاد /٢١٥ .

(٣٥٨) لمزيد من الاطلاع يمكن مراجعة ، من حديث الشعر والنثر /١٣٢ ، ومن تاريخ الأدب العربي /٣٧٤ ، و حصاد الهشيم /٢٦٠ ، والهجاء عند ابن الرومي /١٠ .

(٣٥٩) الديوان : ١/ ٣١٩ .

التي يتشبث بها قاتمة السواد ، فلم تعد توضح مظهراً أو تجلو أمراً وأن إظلامها وحيرتها حولا كل ما في العالم إلى نوع من الوهم ، الذي لا واقع له ولا حقيقة فيه ، فكانت المحنة الأخرى التي تنتظره:

وأظـــلمت الدنيا وباخ ضـــــياؤها نهاراً وشمسُ الصّحْو حَيْرَى على القمم[٣٦٠]

فهذه النظرة الزمنية الحائرة لدى شاعرنا – كما أرى – لم تأت من فراغ ، بل جاءت من خلال رؤية موضوعية واقعية ، وهي حقيقة الكـون وأيله إلى الفناء والزوال ، وأن إدراكه لهذه الحقيقة وإيمانه بها ، هو ما جعله يستفسر عن معرفة الغاية والنتيجة قبل المذهب والأسباب ، لكن باب القدر يوصد دونه ، بل يشكل عليه ، مما جعله يفقد الثقة بالحياة ويعيش حالة من القلق :

ألا منْ يُرِيْنـــي غايتي قـــبل مذهبي ومن أيـن والغاياتُ بعد المــذاهب؟ [٣٦١]

فتحري ابن الرومي عن غايته قبل مذهبه أو بالأحرى أن إلحاحه وعذابه كما يرى إيليا الحاوي ، هو ما أوقعه في تلك الطيرة ، بعد أن عجز عن كشف الغيب جعل يتوسمه توسماً أو يفترضه افتراضاً ، ويتشبه به في المظاهر خاصة معتقداً بأن باب القدر لا يسفر بنواياه ، بل يوعز لنا بها من خلال المظاهر والأعمال [٣٦٢] .

ومن هنا نرى أن الزمن على حسب هذا المفهوم ، ما هو إلا مقدار أو مظهر لحركة الموجودات ، وبالتالي فهو عنده ذو وجود موضوعي أو عرض لوجود موضوعي ، وعليه فهو ليس من الأمور التي لا يمكن إدراكها بالحس [٣٦٣] ولعل ما يؤيد نظرتنا هذه قوله ((الفال لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثان))[٣٦٤] .

فهذا الاعتقاد الذي نلمسه عند الشاعر قائم على أساس إيجاد المعادل النفسي لجدل الخوف ، والسعي الدائب للبقاء والتمسك بأهداب الحياة ، من خلال ما

---

(٣٦٠) الديوان : ٦/ ٢٣١٠ .باخ : سكن .

(٣٦١) م . ن: ١/ ٢١٤ .

(٣٦٢) ينظر: ابن الرومي فنه ونفسيته / ٢١٠ .

(٣٦٣) ينظر : الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم / ١٦٥ .

(٣٦٤) العمدة : ١/ ٦٩ .

يعتقده من وسائل للوقاية من الشر المطل لشبح الموت ، لذا كان شديد التيقظ والتحسس ، متطيراً من أتفه الأمور ، حتى الأسماء كان يقلبها ويستخرج منها رموز الخير والشر ، ولنا في ذلك شاهد هو موقفه من أحد ممدوحيه الذي زعم الرحيل إلى مدينة (واسط)[٣٦٥] فتحركت ريح الجنوب حركة عظمت معها الأمواج ، فانكسر سكان زلاله[٣٦٦] فرجع ، فقال ابن الرومي معللاً سبب ذلك :

رأيتُ منكـــسرَ الـسّكان ظـــاهرُه هـــولٌ، وتأويـــلُه فالٌ لمنـــجاكا

كسرٌ لناكـــس داءٍ كنْـــتَ تحْذرُهُ وصـــحة لك تُحيـــنا بمـــــحياكا

لأن لفـــــظة(سُكّان) إذا قلـــبتْ حـــروفها (ناكس) لاشك في ذاكا(٣٦٧)

وكذلك كان علي بن سليمان الأخفش يعبث به كعادته ، فمر عليه في الصباح فدق الباب : فإذا قيل : من الطارق ؟ أجاب مرة بن حنظلة ، فتشائم بهذا الاسم وأقسم لا يخرج وكان هذا يضطره أن يعذب نفسه ، ويعذب من معه [٣٦٨] .

هكذا كان يمضي ابن الرومي في تداعي أفكاره ، وقدرته العجيبة على توليد المعاني ، واستخراج رموز الكلمات وأسرارها بما ينسجم مع نفسه المرهقة ، والتي لم يقتصر توجسها من الأسماء وحسب ، بل نراه يتشاءم من كل نشاز أو مظهر قبيح ، وله القول :

وَرَأيْتُ الحِمامُ في الصّـور الشّنْـ ـع ، وكـانتْ لوْلا القضاءُ قضاء [٣٦٩]

فالإنســان بطبيعته محب للجمال ميال إلى اقتناء كل ما ينمي حاجاته الروحية ، وفي سبيل ذلك يلتمس شتى الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق الانسجام مع

---

(٣٦٥) مدينة في جنوب العراق .

(٣٦٦) زلاله : نوع من السفن ، ينظر : هامش الديوان ٥/ ١٨٥٥ .

(٣٦٧) الديوان : ٥/ ١٨٥٥ ــ ١٨٥٦ .

(٣٦٨) ينظر : معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، عبد الرحيم بن أحمد العباسي (ت ٩٦٣ هـ) ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، عالم الكتب ، بيروت ،١٩٤٧ :١/ ١١٧ .

(٣٦٩) الديوان : ٩١/١ .

نفسه أولاً ، ثم الانسجام مع غيره من الناس ، وكلما أرضى حاجاته شعر بلذة والشعور باللذة يعني إعادة التوازن إلى جسمه ونفسه [٣٧٠] وابن الرومي كان يحتمي بالجمال ويتوارى فيه ، لكونه رمزاً للحياة واللهو، الذي هو فيض الحيوية الدافقة من الحركات الجياشة في الذات ، والقبيح هو الذي يشوه ذلك الوجود ويصبغه بالفناء الأسود ، ولهذا كان يفرح للمناظر الجميلة السوية وتنقبض روحه من المناظر القبيحة الشائهة . ولعلنا لا نبالغ إذا ما قلنا : إننا لا نكاد نعرف شاعراً في الأدب العربي يهتم للجمال اهتمام ابن الرومي ، فإذا فوّت قدراً من الأقدار جمال شيء من الأشياء على الناس بكى لفقده كأنه يبكي على ولده [٣٧١] وعليه كان يربط الأشياء في الوجود ظاهرها وباطنها ، برباط هش قائم على الأوهام ، بحيث لا يرى في الظاهر القبيح إلا عنواناً لحادث مشؤوم ينذر به الزمان ، ومن ذلك قوله : وقد رأى عجوزاً في إحدى عينيها نكتة سوداء ، وجارية حولاء ، فتطير من ذلك المظهر [٣٧٢] .

ويأتي الزمن ليضيف لشاعرنا محنة غريبة إلى الأسماع والأبصار، أنه كان يرى في اللحى لوناً قاتماً يغطي بياض الوجه ، لأن شاعرنا كان يتطلع إلى بهجة الحياة المفقودة ويتشائم من كل سواد . ولذلك فهو يعد عدو اللحى الأول في سائر الأدب الإنساني [٣٧٣] :

إنْ أنْتَ صادفْتَ أخا لحْيةٍ قدْ جلّلتْ منْ كبْر صدْره

فأقبضْ بيسْراك علَى أصلها وَضعْ علَى حلقومه الشّفره [٣٧٤]

فهذه اللحى الطويلة ، قد تبدو لنا شيئاً مألوفاً اعتدنا على رؤيته بين الحين والآخر، لكنها لدى ابن الرومي تمثل ((لحية القدر لحية الإنسان الذي لا ملامح ولا

---

(٣٧٠) ينظر : علم النفس في الفن والحياة ، د . يوسف مراد ، دار الهلال سلسلة شهرية للنشر والثقافة (ب- ط) ، (ب - ت) /٣٤ .

(٣٧١) ينظر : ابن الرومي في الصورة والوجود /٩٦ .

(٣٧٢) الديوان : ٢٤٥٣/٦ .

(٣٧٣) ينظر : ابن الرومي في الصورة والوجود /٢٥ .

(٣٧٤) الديوان : ١٠١٢/٣ .

إحداق له ، والذي يمثل البلاهة والفراغ . مشكله ابن الرومي بالنسبة للحى هي طرف من مشكلته مع نفسه وبالتالي مع الحياة)) [٣٧٥] من هنا نشأت النزعة لدى شاعرنا أنه يبحث عن مجهول ينتظره ، وما ذاك السواد ، إلا إشارة واضحة لذلك المجهول ، وهذه الرؤية قد تسمح لنا بتكوين صورة خاصة ، نجمعها من شتات الشاعر على أن الزمن له كيانه الخاص في تدوين الأفكار والمعاني لدى الإنسان ، باعتبار أن ((الصورة الأدبية للزمن تزودنا ببعض المفاتيح والأستبصارات ، لطبيعة ووظيفة النواحي الهامة للخبرة والحياة))[٣٧٦] .

وابن الرومي كان ينسج من أوهامه وهواجسه صوراً حية لزمن موهوم ، صبغها هو بصبغة خاصة به معبرة عن كوامنه . حتى أصبحت حيلة نفسية وواقعاً يسيطر على تفكيره ، ولعله أراد بذلك أن يبرر ذاته ، وليتخلص من وطأتها ، فأناط فشله بسبب من الغيب ، لشخص أو لعدو يتسور لا ينفك يقع بين أقدامه شباك نحسه [٣٧٧] ولأجله كان يكره أن يقع نظره على أي مظهر من مظاهر الشناعة ، وليجعل منه حبيس مرضه ، لأنه ليس مرضاً يرتبط بكارثة ، وليس اعتلالاً يؤمل شفاؤه حين يزول ، وعليه فقد حدد له اتجاهاً وحقق فيه سيادة غرض من أغراض الشعر على غيره من الأغراض ، ألا وهو الهجاء الذي اشتهر به . وفي النهاية هو مظهر لتشاؤمه اغمر به وجه الآخرين ... ووجه الوجود جميعاً [٣٧٨] حيث الأسماء والأشخاص وحتى ظواهر الطبيعة ، إذا ما أوجس منها خيفة ، أو كانت مناقضة للجمال وغير نافعة ، كما في رؤيته لمنظر شجرة عارية يابسة ، لا ظل لها فوجدها لا تصلح لتكون موضوعاً جميلاً بنفسه ، ولا نفع فيها من ثمر لجان ، وحطب لمحتطب لذا دعا عليها بالموت ، وأن تكون هدفاً لنوائب الدهر ، وألا يسقط عليها المطر ، ثم تأملها متطيراً من منظرها وخيل إليه تطيره أن شوكها ، ربما يخبئ

---

(٣٧٥) فن الهجاء وتطوره عند العرب /٥٠٩ .

(٣٧٦) الزمن في الأدب /١٣٦ .

(٣٧٧) ينظر : ابن الرومي فنه ونفسيته / ٢٠٤ .

(٣٧٨) ينظر : فن الهجاء وتطوره عند العرب /٤٩٣ .

الأفاعي ، إنها إذن مثالٌ للقبح الطبيعي ، وإن كان قد زاده قبحاً بما خلفه عليها من مشاعر النفور والكره ، ولعل شاعرنا هنا عندما بلغ من الكبر عتيا ، نظر إلى هذه الشجرة اليابسة وغير المثمرة فوجد حاله وحالها واحداً فتشائم من ذلك ، فقال :

أيَا شَـــجَراً بَيْنَ الرّســـيس فعَاقل ... مَنَـــحتكُ ذمّي صَـــادِقاً غيْرَ كاذِبِ
نديتَ ولـَــمْ تُورقْ ولسْـــتَ بمُثمر ... فكُنْ غرَضــاً مُستهْـــــدفاً للنـّوَائِبِ
فما فيكَ مـــنْ ظلّ لِغُلّ ظـــــهيْرَةٍ ... وَمَا فيكَ منْ جدْوى لِـــجَان وَحَاطِبِ
وَفيْـكَ على حِرْمانِكَ الـــخيْرَ كلّـــهُ ... من الشـــوك مـــا لا وكن فيه لآئبِ
وأحْسَـبُ ذاكَ الشّـــوكَ لا شكّ بيـنهُ ... أفَـاع ، فلا أسْقيتَ صَوْبَ السّحائِبِ (٣٧٩)

وقد يخيل إلى ابن الرومي أن الطبيعة ربما تريد النيل منه ، وأن الدهر يتشيع به ويعابثه ، ليحبس السماء عن الأرض حتى إذا ما غشيها شاعرنا هطلت عليه ليعوق بها سيره ، وليدحض بها مطيته :

إلى اللهِ أشْكو سُخْـــفَ دَهْري فإنـّهُ ... يُعابثنـــي مذ كنت غـــــير مُطائبِ
أبى أنْ يُغيْثَ الأرْضَ حتـّى إذا أرتمَت ... بـِرْحلي أتاهَا بالغُـيْوثِ السّـــوَاكِبِ
سَقى الأرْضَ منْ أجلي فأضْحَتْ مَزلـّة ... تمَايل صَـــاحيْهَا تَمَـــــايُلَ شَارِبِ
لِتعويْق سيْري أو دُحُـوْضَ مَطيّـتيْ ... وَإخصَابِ مُزْورّ عَن الـمَجْدِ نَاكِبِ (٣٨٠)

فهذا هو الدهر ، وتلك هي الحياة لها وجهان ، أحدهما يبدو اخضر ذا أوراق ملونة ، وآخر يكمن وراءه شبح الموت فكل شيء في هذا الوجود يتربص بابن الرومي ويكن له الشر (٣٨١) والمتأمل للأفعال التي وردت في هذه الأبيات ، يلاحظ ما فيها من حركة (يعابثني، يغيث ، ارتمت ، أتاها ، سقى ، تمايل ، لتعويق)

---

(٣٧٩) الديوان : ٢٩٢/١ ، الرسيس وعاقل : موضعان في نجد. وكن : عش . آئب : عائد . صوب : مطر .

(٣٨٠) الديوان : ٢١٤/١ ، مطائب : أخذ من طابه جعله طيباً لذيذاً ، يعني لا يصيبه بخير من الأذى . السواكب : المصبوبة . مزلة : موضع الزلل . تمايل : مال ذات اليمين وذات الشمال . دحوض : زلق .

(٣٨١) ينظر : ابن الرومي في الصورة والوجود /١١٣ .

والفعل عنوان الحدوث في الزمان ، والزمان حركة ، والحركة رمز للانتهاء والتبدل . والأفعال على ذلك كأنها خيوط نسجت لشباكٍ قد نصبت من قبل الدهر ، والذي ما انفك حتى بات يرسل عليه الرياح الجنوبية والتي كانت كثيراً ما تثير فيه منازع الرهبة والخوف بما تحمله من اضطراب وعصف يزعزع كوامنه ، ويظل يحوم حوله ليقبض روحه ، لولا قضاء الله تعالى وحكمته أن وقاه من هذه الرياح ، بعدما أصابه القنوط واليأس من عدم النجاة :

وكَمْ يـَــوْم أرَانِي المُــــوْتَ فيْهِ جُنُــــوْنُ المُـوج في هَوَج الجنوْبِ

وَقـَـانـــي شرّهُ مِـــنْ بعْـدِ يأسٍ دِفـــاعُ اللهِ دَفـّـــاع الرّيـُـوْبِ (٣٨٢)

وقد يمثل البحر لدينا أنيساً نتخذه عندما تضيف بنا الهموم وتشتد الأحزان فنحاوره ، ونشكو له حالنا ، وقد يطيل مكوثنا لديه ساعات وساعات ، نتأمل جماله وهدوءه ، ولكن ابن الرومي لا يرى فيه إلا رمزاً من رموز التشاؤم ، فهو لا يكاد يذكره حتى تذكر الروع ، أي خوفه من أهوال ركوبه ، بل الخوف من النظر إليه أو المرور به ، والأدهى من ذلك أنه لا يخشاه لكونه بحراً ، بل لكونه ماء . فهو يخاف من فكرة الماء إذا كان بحراً طامياً أم كوزاً صغيراً (٣٨٣) مما يجعله يتصور أن أمواج هذا البحر ما هي إلا فرسان تلوح لـه بالسيوف لتنال منه :

وأمّا بـَــلاءُ البـَحْر عَنْـدي فإنـّهُ طوَانـــي علـَى روْع مِن الرّوح وَاقِبِ

... ...

أظـَـلّ إذا هزّتـْــهُ ريـْــــــحٌ وَلألأتْ لـَـهُ الشّمْــسُ أمْوَاجاً طِوَالَ الغوَاربِ

كَأنـّـــي أرَى فيـْـــهنّ فرْسَانَ بهْمةٍ يُلِيْحُونَ نحْوي بالسّيُوفِ القـوَاضِبِ (٣٨٤)

وهنا يعي الشاعر الحقيقة ، لكنه يعيها بشكل مقلوب فينزف لوحده ، لأنه في هذا الموطن ينفي الجمـــال مع أنـــه يطلبه في موطن آخر ، إنـــه التشاؤم وفيه

---

(٣٨٢) الديوان : ٢٢٥/١ . الريوب : الشكوك .

(٣٨٣) ينظر : ابن الرومي فنه ونفسيته / ٢٢٨ .

(٣٨٤) الديوان : ٢١٦/١ . واقب : مستكن . فرسان بهمة : فوارس جيش . يليحون نحوي : يلمعون أليّ . القواضب : القواطع .

((يتصور الأشياء الصغيرة بملامح كبيرة))[٣٨٥] لا حقيقة لها إلا في عالمه المضطرب المتوجس ، الذي راح ينتزع عن الأشياء حقائقها المعروفة ، ويضع إزاءها حقائق أخرى مزيفة موسومة بالشرور والأذى .

ولعل هذا ما دعاه أن يكون دائم الحذر من المخاطر وصروف الزمن ، ويرى أن المرء إذا ظن شراً ، فيجب أن يخافه فرب شر يقينه مظنونه :

وَإذا مـَـــــا ظننت شراً فخـــــفه رُبّ شرّ يقيْـــــنه مظنـــــــونه[٣٨٦]

فهذا الحرص على الحياة وتشبثه بها ، وجبنه من المخاوف والمخاطر وعدم السعي ، هو ما أعماه عن النظر إلى ثمارها اليانعة ، حتى تملكه الفشل فلا يكاد يرى في الحياة ، إلا أشواكها التي أخذت توخز به وتنكد عليه :

وَمنْ يـَلـقَ مـَا لاقيْتُ في كُلّ مجْـتَنـى مِن الشّـوْكِ يزْهد في الثمار الأطايب[٣٨٧]

ويقول الدكتور علي شلق ((ربما اعترى شاعرنا نوعاً من تبلد الإحساس بوجوده منصرفاً عما يغري ، وهو النهم الشره غير شاعر بما يؤدي ، وهو الذي تعاقدت عليـه صنوف الآلام والفواجع))[٣٨٨] ولذلك ، يقول :

فرُحـْـــتُ لا أرْجُو وَلا أبْتـَـــــــغي وتاقـت النـّـــــفْسُ فكَفكَـفتهَا[٣٨٩]

لذا فهو لا يتركنا نقف طويلاً للحكم على تصاريف الحياة ، بل هو يدلنا على سخفها، ويرى أن بكاء الطفل ساعة ولادته ، إنما هو ناشئ عن إحساسه الغريزي بما سوف يواجه من صروف الأيام ، ويعلل سبب ذلك أن النفس ستشاهد فيها كل غيب سيشهد :

لِمَا تُؤذن الدّنيا بـهِ مِنْ صـــــروفِها يكـــــوْنَ بُكَـاء الطفل ساعة يولد

---

(٣٨٥) الرمزية في الأدب العربي ، د . درويش الجندي ، مكتبة النهضة ، مصر ، ١٩٥٨ / ١٥١ .

(٣٨٦) الديوان : ٦/ ٢٤٨٠ .

(٣٨٧) م . ن : ١/ ٢١٣ .

(٣٨٨) ابن الرومي في الصورة والوجود / ١١٠ .

(٣٨٩) الديوان : ١/ ٣٦٢ .

وإلا فمـــا يبكـــيه منـــها وأنـــها لإ فســـــح ممـــــا كـــان فيه وارغد
إذا ابْصَر الـدّنْيَا اسْتَـهل كأنـه بما سوف يـــلقى مـــن أذاها يهدد
وللنفس أحـــــوال تظل كأنـــها تشـــاهد فيهـا كل غيب سيشهد (٣٩٠)

ويبدو على أثر ذلك قناعته ويقينه ، بأن مصير الإنسان منذ أن يولد إلى أن يوارى التراب بوجهه ، فهو رهن لنوائب الزمن ، وحسبه من هذه النوائب فقدان شبابه :

أرَى المَرْءَ – مُذ يلقى التّرَابَ بوَجْهِهِ إلى أنْ يُوَارى فيهِ – رَهْـن النّوائبِ
ولوْ لمْ يُصَبْ إلاّ بِشـــــــرْخ شَبابـــهِ لكـــانَ قدْ استوْفى جَمَيْعَ المَصائِبِ(٣٩١)

ثم تشتدَّ حالة الإحباط واليأس لدى الشاعر ، ليكون الشر عنده حتمية من حتميات الوجود ، وضرورة من ضروریاته ، وعنصراً لا يمكن التغلب عليه في أي عصر من العصور ، لأنه شيء مشترك بين الناس ، وهو يؤكد هذا المعنى حينما راح ينفي فكرة الخير بينهم ،لأنهم لا يشتركون فيه ، ليكون الشر هو أصل الوجود :

والشّرّ بين النّـــــاس مـشتركٌ وَالخـــيْرُ فيْهم غيْـــر مشْترك (٣٩٢)

ولو قدر لنا التوغل إلى أعماق الشاعر ، ونسأله عن طبيعة الشر الذي يعينه بكونه مشتركاً بين الناس ؟ لأجابنا بقوله :

فيْنَا وَفيْـكَ طبيْـــــعَة أرْضيّـةٌ تهْـوى بنَـــا أبَداً لِـشرّ قرَار
هَبَطـتْ بـآدَم قبْـلنَا وَبِـزوْجـــهِ مِنْ جنّـــة الفـــرْدوْس أفْضل دَار
فتَعوّضَـا الدّنْيـا الدّنـيّة كأسـمها مِنْ تلكُـم الجنـــات والأنهـــار
بئستْ لـــــعمرُ الله تـلك طبيـــعة حرمـــتْ أبانا قرب أكْـــرم جار(٣٩٣)

فالشاعر يرى أن الشر غريزة متأصلة لدى بني البشر مكونة في طباعهم ، ولولا هذا الشر لعاش الناس منذ زمن أبيهم آدم وأمهم حواء ، بجنات الخلد متنعمين بما لذ

---

(٣٩٠) الديوان: ٢/ ٥٨٦ – ٥٨٧ .

(٣٩١) م . ن: ١/ ٢١٧ .

(٣٩٢) م . ن: ٥/ ١٨٦١ .

(٣٩٣) م . ن: ٣ / ٩٢٩ .

لهم وطاب ، لكن غلبت عليهم الغريزة فأنزلتهم إلى تفاهة الدنيا ومشاقها ، لذا لا يترجى الشاعر من هذا الخلق إنساناً صالحاً ، لكونه قائماً على هذه الطبيعة ، وهذه فرادة أخرى تضاف لابن الرومي ،لأنها لا تتوافر للكثيرين غيره ، إنها الروح المعاصرة التي لا يعبر عنها الشعراء إلا بشق الأنفس :

أبٌ وأمٌ لـهذا الـخلـق كلـهمُ كـلاهُما شـرّ مقرون بمقرون (٣٩٤)

وقد نراه ينفذ إلى أعماق الأشياء وأسرارها ، فيتساوى لديه الضر والأذى ، والخير والشر ، والكراهية والحب ، والغـالب والمغلوب ، فيمكث في حاضره لا يبالي ، يعتريه القلق ويصبح حينذاك كريشة في مهب الريح :

سَليـمُ الزّمـان كَمنْـكوبِهِ وَمـوْفورُهُ مِثْلُ مـحْروبِهِ
وَممنْـوحُه مِثْلُ مـمْـنـوعِهِ وَمَكْـسوّهُ مِثْلُ مَسْـلُوبِهِ
وَمـحْـبُوبه رَهْنُ مـكـروهِهِ وَمَكْـرُوهُهُ رَهْنُ مَحْـبُوبِهِ
ومـأمونه تَحْتَ مـحْذورِهِ وَمَرْجُـوّهُ تَحْتَ مـرهـوبِهِ
ريْبُ الزّمـان غَدا كـائِنٌ وَغالبُـهُ مِثْلُ مـغْلوبِهِ (٣٩٥)

ولعل إدراك الشاعر الواعي بعمق المأساة الإنسانية التي تسعى في حياة فانية ، هو ما جعله يحس هذا الإحساس بالفجيعة ، فأصابه نوع من عدم الاكتراث أو حالة من التساوي على الرغم من تناقضها، حيث امتلأت نفسه بالخوف والقلق والتشاؤم وسيطر عليه ذلك الإحباط التام ، خاصة بعد ما شعر بعدم إمكانية تحقيق أي هدف في هذه الحياة ، مع ما ذاقه منها من الحرمان ، وذل الفقر وويلات الغربة ، فلم يستطع بعدها أن يكتم سخطه على الناس ، وتمرده على القدر وضيقه بالحياة ، ولهذا توشحت أشعاره بأنغام التشاؤم ، وحسبنا شاهد يغنينا عن كثير من الأشعار التي تبين لنا عما لقيه من الدنيا ، قوله :

فـفَرْحَـة المـوْهُوبِ أعْـدِمْتُهـا وَتَـرْحَـة المسْـلُوب أرْدِفْتُهَا
لـوْأنّ عُمْـري مائَة هَـدّني تَذكّـري أنّـي نصّـفْتُهَا

---

(٣٩٤) الديوان: ٦/ ٢٤٦٣ .

(٣٩٥) م. ن : ١/٢٦٤-٢٦٥ . ترحة : الترح الهم ٠ محروبه : مسلوبه .

فكيـــف والآثار قدْ أصْبـَـــــحَتْ تُرْجـــف بالـــعمْر إذا قِـفْتـُـهَا ؟
كنزُ حيـــاة كـــــان أنـفقـتُه علـــى تصـــاريفَ تصَـرّفتُهَا
لا عُـــذر لـــيْ فـيْ أسَفي بَعْدَهَا عَلـَى العَطايَا ، عفـْتُهَا ، عفـْتُهَا (٣٩٦)

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا ، بأن التشاؤم عند ابن الرومي ناتج عن بصره العميق وإحساسه الدقيق من جهة ، وهو فرع لمذهبه في اللذة والألم من جهة أخرى ، فهو لو لم يفقد المتعة ووسائلها وكانت ظروفه جيدة ، ولم يكن سيئ الحظ لكان تشاؤمه حينئذٍ قليلاً(٣٩٧).

لذا ندرك أن زمن الشاعر مؤجل بين الحرمان وعدمه ، فحاضرهُ مكرّس لسلطة الآخر (الناس) وماضيه وما فيه من ألم وأمل ، ما هو إلا انعقاد لشعور وهمي بمصداقية الحياة ، لأن صروف الزمان كما نعلم ، تقف بالضد عندما يوجد انفصال وعدم اتساق بين الإنسان وبينه ، وشاعرنا كما أرى كان يبحث عن زمن آخر عساه أن يدفع به إلى التغير ، لكنه فؤجيء بخلق جديد يحطم تطلعاته في مشهد أشبه بطلسم مظلم .

---

(٣٩٦) الديوان : ٣٦١/١ .

(٣٩٧) ينظر : ابن الرومي في الصورة والوجود /١٠٢ .

المبحث الثالث

المرأة

يقول الدكتور صلاح عبد الحافظ : لا يمكن أن يفهم تأثير الزمن ، لدى الشاعر ما لم يفهم موقفه بالنسبة للمرأة [٣٩٨] ؛ لأن المرأة ((ليست مصدراً للحب والجمال والمتعة فحسب))[٣٩٩] بل هي كونٌ ممتلئ فرحاً وحزناً وخصباً وجدباً ، ودنيا يتصافح عندها الشاعر مع الزمن ، وهي إلى هذا أصل الحياة ، بسبب قدرتها على ولادة الحياة الجديدة [٤٠٠] .

وقد عبر الشعراء عن مكنون عواطفهم ومشاعرهم تجاهها بطرق مختلفة ، فمنهم من باح بمكنون قلبه وراح يتحدث عن أوصافها الجسدية بعواطف خالية من التحرج ، ومنهم من كتم حبه ولم يبح بسره وتحدث عنها بعواطف بعيدة عن كل ما يدنس تلك الصورة الجميلة ويحط من مكانتها .

أما شاعرنا فالمرأة لديه لا تعدو إلا أن تكون أداة للهو والتسلية [٤٠١] ومخلوقاً جميلاً فيه متعة للعين ومسرة للقلوب [٤٠٢] وموضوعاً للذة والمتعة ونسيان الوجود [٤٠٣] .

---

(٣٩٨) ينظر: الزمان والمكان و أثرهما في حياة الشاعر الجاهلي /٣٦٦ .

(٣٩٩) الحياة والموت في الشعر الجاهلي ، د . مصطفى عبد اللطيف جياوويك ، مطبعة دار الحرية ، بغداد ، ١٩٧٧ / ٢١٢ .

(٤٠٠) ينظر : الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام / ٢٠٥ .

(٤٠١) ينظر : أدباء العرب في الأعصر العباسية / ٢٤٨ ، وثقافة الناقد الأدبي / ٢٢١ .

(٤٠٢) ينظر: ابن الرومي ، العقاد/ ٢٩٧ .

(٤٠٣) ينظر : ابن الرومي في الصورة والوجود / ١٤٤ .

وهذه النظرة للمرأة لدى ابن الرومي ، نستطيع أن نلخصها بنظرة (نفعية جمالية مادية) إن صح القول ((و مثلها مثل الطبيعة)) [٤٠٤] فالطبيعة جميلة إذا أسعدته بنسيمها أو بثمارها وقبيحة إذا كانت غير ذلك ، وكذلك المرأة هي جميلة إذا حنت عليه وواصلته أو أسعدته ، فإذا أعرضت عنه أو لم تستجب له هجاها وألصق بها كل صفات السوء والقبح .

من هنا يتبين لنا بأن المرأة أخذت تشكل زمناً نفسياً لدى الشاعر، متمثلاً بإقبالها نحوه وصدودها تجاهه ، خاصة إذا ما أدركنا بأن الشاعر كان محروماً منها لأسباب وقفنا عندها سابقاً [٤٠٥] متعلقة بعلله الجسمية ، وإسراف طاقاته الجنسية في ملذاته ، ما أعقب ذلك من الضعف أو العجز ، يقول شاعرنا :

أرى مـاءً وبـي عطـش شديـدٌ ولـكـن لا سبـيـل إلـى الـورودِ [٤٠٦]

فالمتأمل لقول الشاعر هذا ، يجده يعيش حالة من القلق وعدم الاستقرار، فتحول الزمن لديه إلى زمن آخر خاص به مفروض عليه اتسم بالثقل والمكابدة ، وقد بدا ذلك واضحاً من خلال معرض كلامه مع زوجته الثانية ، إذ يقول :

لهـفَ نفسي على القِناع الّذِي محـ ـحَ ، وأعـقـبْتُ منـه شرّ عـقيبِ
مَـنـَع الـعيْنَ أنْ تـَقـرّ، وَقـــــرّتْ عَـيْـنُ وَاش بـِنـا ، وَعـيـْنُ رَقيبِ
نـَفـّرَ الـخِـلـــــمَ ثـمّ ثـنـّى فأمْسى خـبـّبَ الـعِـرْسَ أيـّمـــا تـَخـْبـيبِ
شَـعـَرٌ مـيـّتٌ لـِذي وَطـــــر حيْ ـــى كَـنـَار الـحـريق ذاتِ اللهيبِ
... ...
مـَعـَهُ صبـْوة الـفـَتـــــى، وَعـَلـيْهِ صَرْفة الـشـّيـْخ ، فهْوَ في تعْذيْبِ [٤٠٧]

وكأني بالشاعر وقد وضع يده على تلك الحقيقة المرة القاسية ، وهي أن المرأة تنفر من ذلك الضعف أو العجز ، الذي بات – كما يقول – يعذبه أن يرى

---

(٤٠٤) دراسات في الأدب العربي ، إنعام الجندي / ١١٢ .

(٤٠٥) ينظر الفصل الأول / ٥٦ .

(٤٠٦) الديوان :٢/ ٨٠٤ .

(٤٠٧) م . ن : ١/ ١٣٩ – ١٤٠ .

الجمال والفتنة أمامه من غير أن يشبع نهمته منها ، وكأن المرأة تتلذذ برؤيته محروماً من وصالها ، بعد أن عرضت أمام عينيه جمالها ، فسبت فؤاده ، ثم تركته يتحسر على وصالها الضائع ، إنها بالنهاية الصيد الذي نفر وهرب من الصياد :

ومن البليةِ منظرٌ ذو فتنةٍ نائي المنافع شاعفُ الأيناق

... ...

مُزنٌ يُمطْن الرّيّ عنْ أفْواهِنا ويُجدْنَ للأبْصار بالإبْراق

صيْدٌ حُرمناه على إغراقِنا في النزعِ ، والحرمانُ في الإغراق(٤٠٨)

فالمرأة على ذلك أصبحت ذات سلطان زمني، والشاعر واقع تحت أسارها ، مقيداً بعجزه عن مواصلتها ، حتى ليخيل إليه أن حرمانه منها سيلازمه طوال زمانه ، وأنه لو رآها في الأحلام فلن يقدر على مواصلتها ، وكل ما سيخلفه ذلك الزمن المحدود من الأحلام جنابة تلحق به وهو نائم ، كما يقول :

وَلقدْ مُنعْتُ من المرافق كُلّها حتى مُنعتُ مرافق الأحلام

... ...

وأرى الحبيبَ إذا ألمّ خيالهُ ومَرام قبْلته أعز مرام

إلا منازعة تَجُرّ جنابةً وتشب في الأحشاء أي ضرام

فأهب قد وجبَ الطهورُ ولمْ أنلْ ممّنْ هويت سوى جوّى وسقام (٤٠٩)

كما كان يخاف أن يزداد نفور النساء منه كلما تقدم به الزمن ، وطال به العمر ، أو بسبب هذا العجز ، وخشي كساد سوقه عندهن ، وقد صور بحرقة شديدة ما يحس به من نشاط تجاه المرأة ، وما يلاقيه بعد ذلك من إخفاق معها :

أخشى كسادي على النساء إذا أسْننْتُ ، والسن جمّة الخبل

وإنني من كسادهن على سنّي لأولى بالخوفِ والوجل

---

(٤٠٨) الديوان: ٤/ ١٦٦٦ ، شاعف : زائد . الأيناق : التأنق . مزن : السحب . يمطن : يبعدن . النزع : الاشتياق.

(٤٠٩)م . ن: ٦/ ٢٢٦٤ – ٢٢٦٥ .منازعة : اتصال ومجاذبة . جوى : اشتداد الوجد .

كـم مـن نشـاطٍ لهنّ عندي في الـ يـوم ، وكـم بـعد ذلـك من كسل ؟(٤١٠)

فهذه المفارقة تنذر بحدة الزمن الذي يجابه الشاعر، لتعبر عن رعب مفاجئ يعتري ابن الرومي ، ينبعث من اللاشعور ، حيث تجربة الماضي المريرة ، وخوفه من الآتي فهناك الضعف وعدم احتمال عبث الغواني ، كل هذه الأمور تجعله يستجدي من المرأة نظرة ولو عابرة :

ما تزاليـــنَ نظـــرة منك مـــــوتٌ لـــي مميـتٌ ، ونظـــرةٌ تخليدُ (٤١١)

فالشاعر – كما نرى يصور حاله حالما تطوف به نظرة إمرأة ، فإذا بالموت يغرقه في أمواجه ، وتارة يتجاوز زمان الناس ، فيرفل في مواعيد في جنة عينيها .

ولا غنى لنا من الإشارة هنا ، إلى أن شاعرنا استجاب لتمرده الاجتماعي ونظرته إلى المرأة على أنها ألعوبة بيد الرجل ، بيد أن هذا الاتجاه يتطور مع فكرة أن قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ، ولا يتحول مع الفصول ، وكأنه ينازع ، لكنه لا يموت وهذا ما حصل مع (شنطف وكنيزة)(٤١٢) إذ رأى الشاعر أن هذه المرأة تشكل مجالاً خصباً للطعن في مراميه ، وغاياته الشهوانية المكبوته .

ومن هنا ، كان ابن الرومي يعبث بأفكار مبهمة ، لا قدرة لها إلا أن تكون معيناً عليه مع الزمن ، وبذلك يكون زمن المرأة – في هذا الموطن – زمناً مقطوعاً عن الحاجة ، لكونه يغدر بصاحبه :

يـــعِدْنَ فمَا يُنجزْنَ وَعْـــداً لِوَاعِدٍ وَهُنّ لِمِيْـــثاق الخـليل نَوَاكِـــثُ

... ...

يُمنّينَنا منْهنّ نـــجحَ مَـــوَاعِـدٍ أكـــفّ بحَـــبّاتِ القـُلوبِ ضَوَابِـثُ

---

(٤١٠) الديوان: ٥/ ١٩٢١ . الخبل : التقصير في الشيء

(٤١١) م.ن : ٢/٧٦٥ .

(٤١٢) شنطف الكراعة ، وكنيزة : وهما مغنيتان أقذع ابن الرومي في هجائهما ، ولا سيما المغنية شنطف ، وهذا ما يبدو في ديوانه ، ينظر :١/الهامش ٢١٢ . وكذلك ينظر : ٢/ ٥١٠ .

... ...

وَيَحْلِفْنَ لا ينْقضْنَ فيْ ذاتِ بيْـنَنا علـــى الدّهْر معْهوُداً وَهُنّ حَوَانثُ (٤١٣)

وقد حاول ابن الرومي جاهداً دفع ما ترتب عليه من ذلك الزمن ، حيث الضعف والانكسار أمام المرأة ، معللاً ذلك حيناً ، ومنكراً حيناً آخر شاتماً وهاجياً ، ولكن ذلك لم ينفع كثيراً مع المرأة ، فاعرض عنه كثير من النساء ، فهجاهن مصوراً قبحهن من كل ناحية ، وأقبل عليه قلة منهن فخلدهن في شعره مصوراً جمالهن من كل ناحية أيضاً ، ولعلهن اقبلن عليه اتقاءً لشر لسانه ، لكنه اعترف في النهاية ، أنه لا يصلح للنساء بسبب قبح صورته على الرغم من شغفه بهن ، بل يصلح ليكون زاهداً يعتزل الناس ويسيح في الفلوات (٤١٤) ، إلا أن الشاعر ما أن يلبث حتى نراه يعاود الكرة مرة أخرى ، ليرد عن نفسه تلك الاتهامات ، من خلال بعض الإدعاءات التي راح يتشبث بها ، ولو بصورة محدودة إلى تبسيط ما تعقد في زمنه الحاضر، كون المرأة تمثل زخماً من التوترات وحدة المشاعر، التي تعكس مدى ضغط الظرف الواقعي عليه ، وهو محاولته تسليط الضوء عليها يجعله يستشعر – جزئياً – من عالم الأشياء ماضيه المزيف ، الذي يرتفع به إلى مستوى قضيته شاحناً الصورة بحرارة اللحظة التي قضاها معهن ، ليقدم تجربة واعية تقوم على البصيرة والفهم النافذ لعلاقاته المتشابكة ، والتي هي سبب أزمته فنراه يصف لنا إقبال النساء عليه وتهالكهن على وصاله ، وهو معرض عنهن فغدا مطلوباً لا طـالباً ومعشوقاً لا عاشقاً ، بقوله في قصيدة من ثمانية عشر بيتاً ، يذكر فيها تعلق المرأة به ، وسعيها خلف وصاله مظهرة ما بها من شوق وحنين إليه ، وعذاب من صده متمنية أن يرق لحالها ويصلها ، فاستجاب لرسول تلك المرأة بعد تروٍ وقصد ديارها متجاوزاً الحراس والأهوال فأقبلت عليه مع نسوة جميلات مثلها وهن يهللن فرحاً لرؤيته :

كَتَبتْ ربـّـةُ الثـّنـــــــايَا العِـــذابِ تتـــشكّى إلـــيّ طـــولَ اجتنـابي

---

(٤١٣) الديوان :١/ ٤١٣ .ضوابث : ضبث أي قضب عليه بكفه ٠ حوانث : الحنث أي الخلف في اليمين .

(٤١٤) م.ن : ٤/ ١٤٧٠ .

وَأتاني الرّسُـــــولُ عنْـهَا بقـــول لمْ تُبيّنْه فيْ سُـطُوْر الكِـتابِ
أيّهَا الظّـــــالمُ الّـــذي قدّرَ اللّـــ ـهُ بـــهِ في الأنَـــام طولَ عَذابي
لوْ علِمْتَ الّذي بجسمي من الـسّـقْـ ـم وضُرّ الـهوَى لكُنْـتَ جَـوْابي
فتَجشّمْتُ نحْـوَها الهَـولَ ، والحُرْ راسُ قدْ هوّموا علَـى الأبـــوابِ

إلى قوله :

فتبَاشَرْنَ بـــيْ ، وأشْـرَفْنَ نحْوي بشَـــهيق وَزفْـرَةٍ وانتِـحَابِ[٤١٥]

كما نراه يصف لنا إعراضه هو عن كثير من النساء ، اللواتي يتعرضن لوصاله لقبحهن ، أو لأنه يحب واحدة منهن أسمـها(وحيد) [٤١٦] ولا يعنيه غيرها :

وحِسـان عرَضْن ليْ قلتُ : مـهلاً عنْ وحيْدٍ، فحـقّها التّوْحِيـدُ [٤١٧]

أما الوجه الآخر للمرأة عند ابن الرومي ، فيكمن في مواصلتها له وعطفها نحوه ، وهنا يكون الزمن لديه زمنا إنسانيا يشعر فيه بروح الانتماء ، وبمكانته المرموقة ، وبالسعادة والمتعة ، ويتحول فيه من الإنكسار المعنوي الواقعي إلى واقع أكثر تماسكاً ، وهذا الإحساس لا ريب يعود إلى سيطرة اليأس المطلقة عليه جرّاء ما يلقاه من الصدود والنفار . كما تقدم – لتكون المرأة بذلك وسيلة من وسائل تحقيق التوازن بينه وبين الواقع الزمني المعاش . ورمزاً قائماً على التحول[٤١٨] ورمزها هنا الطهر والعفة محبوبة كانت أم أماً ، فأمه السلوة التي يجد بقربها الحنان والمودة ، ولا تصده عنها ، بل تحمل زلاته وأخطاءه وتغتفرها لـه مهما أسرف فيها ، على عكس النساء الأخريات ، لهذا لا نستغرب في أن يرثيها بقصيدة وصلت إلى مئتين وخمسة

(٤١٥) الديوان : ١/ ٣٣٠ . الثنايا : جمع تثنية الأضراس الأربع في مقدمة الفم . هوموا :هزوا . الانتحاب : أشد البكاء .

(٤١٦) وحيد : جارية مغنية ، أعجب بها ابن الرومي وأحبها ، وعشق غناءها وجمالها ، على ما يبدو في ديوانه ٧٦٢/٢ .

(٤١٧) الديوان : ٢/ ٧٦٤ .

(٤١٨) ينظر: ابن الرومي ، خليل شرف الدين / ١٣٨ .

أبيات [٤١٩] وكذلك الحال في رثاء محبوبته (بستان)[٤٢٠] والتي راح يبث بأبيات الوفاء لها بقصيدة بديعة ، وصل عدد أبياتها إلى مائه وخمسة وستين بيتاً ، جمع فيها كل معاني الطهر والعفة ، فجاءت بمثابة رثاءً لأمانيه الضائعة ، والتي أصبحت مجرد ذكرى عابرة يحن إليها مع ما يواجه من حاضر أليم :

سقْياً ورعْـياً لعيـشة معـكم أصبـحتُ من عـهدها بمـفتـقر
أمتعـني دهـرها بغبـطته علـى الذي كـان فيـه من قصر
كانـت لياليـه كـلها سـحرا وكـان أيامـهن كـالبـكر
لـهوٌ أطـفـنا ببـكر لذته وما فضـضنا خـواتم العُـذر[٤٢١]

فالشاعر في هذه الأبيات ، يتمنى حاله أن تدوم مع زمان(بستان) ، ولعل قوله (سقياً ورعياً لعيشة معكم) دليل واضح على ذلك ، كما أن حزنه عليها ، هيج شعوره بـ(الآن) وما سيؤول إليه ، فأخذ يسترجع ذكريات الماضي معها ، والناظر إلى قوله (أمتعني دهرها بغبطة) يجده قد أعاد ما يراه إلى الزمن مباشرة وما زمنها هنا إلا زمن السعادة لدى الشاعر ، فـ(بستان) إذن تمثل الزمن الماضي السعيد الذي سيفتقر لـه في حاضره .

وعليه فالمرأة هنا تمثل الزمن الذي يطلبه الشـاعر، ولأجله همومه قد تجمعت ، نتيجة أنشغاله بـ(بستان) . وكلما بدأت الهموم في الصدر خرجت الأبيات من الزمن الواقعـي الدهري ، واتجهت إلى زمن خاص بها [٤٢٢] ولا سيما إذا ما كان هذا الزمن يمثل لدى الشاعر زمن المتعة والبهجة ، ولهذا يطالعنا ابن الرومي بقصيدة أخرى لا تقل جمالية وعذوبة عن التي قالها في المغنية (بستان) ، ولكن هذه المرة في محبوبته (وحيد) التي أخذت تمثل لديه الزمن الحاضر الذي بات

---

(٤١٩) الديوان : ٦/٢٢٩٩ – ٢٣١٠ .

(٤٢٠) بستان : وهي جارية أم علي مغنية أعجب بها ابن الرومي وعشقها ينظر :الديوان ١/ الهامش ٨٣ .

(٤٢١) الديوان : ٣/ ٩٢٠ – ٩٢١ .

(٤٢٢) ينظر: الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي / ٣٥٨.

يتمناه بأن يقضيه معها ، فراح يصف جمالها وجمال صوتها ووصف أثر كل ذلك فيه وفي السامعين ، وكأنه يريد أن ((ينفس عن عاطفته ورغبته في أن يضع هذا النفيس ، في صورة تثير في كل من يتلقاها نظير عاطفته))[٤٢٣] فهي غادة وشمس دجن وظبية وقمرية ذات حسن يتجدد كلما نظرت إليها ، وصوتها بديع يتدفق عذوبة بلا إكراه ، إنها باختصار أحسن الأشياء ، ولكن مواضع الحسن فيها أمر صعب ، كما يقول :

وغرير بحسنها قال: صِفْها ... قلت : أمْران : هيّنٌ وشديدُ
يسهل القول إنها أحْسن الأشْـ ... ـياءُ طراً ، ويعْسرُ التحديدُ
شمس دَجْنٍ ، كِلاَ المنيريْن من شَمْـ ... ـس وبدْر من نُورها يستفيدُ
تتجلّى للناظرين إليها ... فشقيٌّ بحسنها وسعيدُ
ظبية تسكن القلوب وترعا ... ها ، وقمريّة لها تغريدُ
تتغنّى كأنها لا تُغنّى ... من سكون الأوصال وهي تُجيدُ[٤٢٤]

ولا غرابة في أن يكون الزمن من دون (وحيد) زمن شقاء كما يدعي الشاعر ، لأنها تصور الحب الذي أستولى على كيانه كله ، لذا فكل ما يصدر عنها قبيح أو حسن ، فهو محبب إليه ، لأنه ليس لها ند في الحسن والغناء ، وهي بهما شقاء ونعيم ، وحال شاعرنا معها حال المأخوذ على جوانبه جميعا ، فكل شؤونها تجري في وجوده ، فهي تتصور له من أمامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ، وفي قعوده ومسيره ، فكأن حبها غيب شيطاني أستحوذ على أموره كلها ، فلا يستطيع منه خلاصا :

ضلّة للفُؤاد يحْنو عليها ... وهي تزْهُو حَياتَه وتَكيدُ
سَحرَتْهُ بمقْلتيْها فأضحتْ ... عنده والذميمُ منها حميدُ
خُلِقتْ فِتْنةً : غِناءً وحُسْناً ... مالها فيهما جميعاً نَديدُ
فهْي نُعْمى يميدُ منْها كبيرٌ ... وهْيَ بلْوى يشيب منها وليدُ

---

(٤٢٣) وظيفة الأدب بين الإلتزام الفني والإنفصام الجمالي ، محمد النويهي ، القاهرة ، ١٩٦٦ – ١٩٦٧/ ٢٧٠ .

(٤٢٤) الديوان : ٢ / ٧٦٣ . غرير : هائم ، الطّر:الشدّ .

لِي حيْث انْصــرَفت عنـــها رفيقٌ من هـواها ، حيـــث حلّـــت قعيدُ
عن يميني وعن شمـــالي وقـُـــدا مي وخلـــفي ، فأيـن عنـــه أحيدُ؟
سد شيـــطانُ حُبـّــها كـُـلّ فجّ إنّ شيْـطان حبـــها لَـــمريد (٤٢٥)

ولأن الحبيبة تساوي الحياة عند الشاعر ، فهي الفرح الذي ينسي الكآبة والامتلاء الذي يقتل الفراغ ، والجمال الذي يبعث في النفس إحساساً بالراحة واللذة ، فتكون الحياة أكثر جدة وملاءمة وتآلفا(٤٢٦) لذا نرى ابن الرومي من شدة شغفه بـ(وحيد) أخذ يتصورها على أنها الحياة ، بل هي القدر فنزع بهذا من مشكلته العليلة الخاصة ... وربطها بمصير الكون (٤٢٧) ، إذ يقول:

بلْ هيَ العيْش لا يزال متى استُـــعْ رضُ يمْـــلي غرائـــباً ويـُـفيْدُ (٤٢٨)

وبقراءة متأملة لما تقدم ذكره يتضح لنا : أن المرأة أصبحت لدى الشاعر وكأنها معادلة وجودية ، إن أقبلت شعر بأن الزمن يمضي لصالحه ، وإن أعرضت كان العكس ، لذا فهو بحاجة شديدة إليها ، وبكامل صورتها من متعة وجمال وخصب وحنان خاصة بعد ما تبين لنا أن . ارتباطه بها ككيان مستقل كان ارتباطاً واهياً من الوجهة العلمية ، أي أن ممارسته كرجل معها كانت شبه معدومة ، لهذا أصبح يتحدث عنها كفكرة (٤٢٩) شغلت عقله وفي الوقت ذاته قلبه فلم يجد لها متنفساً ، ألا بـ(الطبيعة) التي أصبحت موحية له بمعطيات التجربة العاطفية . ولجوء الشاعر إلى الطبيعة ، يعطينا تصوراً زمنياً يرمز بتصويره إلى تصوير ، الحياة والموت ، والصراع بين الأحياء ونوازل القدر والزمن (٤٣٠) ، وإنا لنلاحظ على ابن الرومي ، أنه قد عقد صلة زمانية بينه وبين هذه الطبيعة ، التي راح يتأملها ويناجيها

---

(٤٢٥) الديوان :٢/ ٧٦٤ ـ٧٦٥ .

(٤٢٦) ينظر: الغزل عند العرب ، ج . ك – اندريه ، ترجمة د . إبراهيم الكيلاني ، مطبعة وزارة الثقافة ، دمشق ، ط١ ، ١٩٧٩ : ١/ ٧١ .

(٤٢٧) ينظر: ابن الرومي فنه ونفسيته /١٩٦ – ١٩٧ .

(٤٢٨) الديوان : ٢/ ٧٦٥ .

(٤٢٩) ينظر: ابن الرومي ، خليل شرف الدين /١٩٨ .

(٤٣٠) ينظر: الزمان والمكان و أثرهما في حياة الشاعر الجاهلي / ٩١ .

ويثور إليها على أنها المرأة ، دون أن تصده عن ملامستها متى شاء ، بل يجدها في انتظاره متى أراد لقاءها .

وهذه الصلة ربما تكون راجعة إلى امتزاج حسه الفني بحسه الجنسي [٤٣١] والذي سيطر على معظم شعره في هذا المجال ، لأنه يحب الحياة ويرى جمالها في الطبيعة والمرأة . وإنك لتتذوق الفاكهة فتذوق فيها طعم الشفاه والخدود ، وتجد فيها مس الضفائر والنهود وتجمع فيها بين وليمة الحب ووليمة البستان [٤٣٢] ومن ذلك قوله :

أجنتْ لك الوجدَ أغصانٌ وكثبانُ ... فيهنّ نوْعان تفّاح وَرُمّانُ
وفوق ذيْنك أعنابٌ مُهَدّلةٌ ... سُودٌ لهن منَ الظلماء ألوانُ
وتحت هاتيكَ أعنابٌ تلوح به ... أطرافهنّ قلوبُ القوم قنوانُ
غصونُ بان عليها الدهرَ فاكهةٌ ... وما الفواكه مما يحملُ البانُ
ونرجسٌ باتَ ساري الطلّ يضربُهُ ... وأقحوان منيرُ والنور ريّانُ
ألفْنَ منْ كُلّ شيءٍ طيّبٍ حسن ... فُهنّ فاكهة شتّى ورَيْحانُ [٤٣٣]

فالطبيعة على الرغم ما تمثله هنا للدلالة على المكان بصورته النباتية ، لكنها أصبحت لدى الشاعر ، رمزاً زمانياً من خلال تشخيصه إياها على أنها المرأة التي حرم منها ، حتى أنه يراها تتزين بأسلحة شتى من ثمار وعطور ، لإغراء الرجال مثلما تفعل المرأة عندما تتزين [٤٣٤] إنها أصبحت بحق((امرأة في حالة إقبال على الجنس ، والمرأة طبيعة في تألقها بالزينة والطيب))[٤٣٥] حتى ليخيل إليه أن الروضة التي لم يطرقها أحد من قبل ، عذراء في أوج زمن شبابها ونشاطها تتزين بأجمل ثيابها ، لتؤنس عشاقها وتبدد بجمالها المشرق حنادس الظلام :

---

(٤٣١) ينظر: ثقافة الناقد الأدبي / ٢٤٧.

(٤٣٢) ينظر: ابن الرومي ، العقاد /٣٠٣ .

(٤٣٣) الديوان : ٦/ ٢٤١٩ – ٢٤٢٠ .عناب : شجر شائك أحمر طعمه حلو . قنوان : قريبة دانية .

(٤٣٤) الديوان : ٣/ ٩٩٣ .

(٤٣٥) ابن الرومي فنه ونفسيته /٤٤ .

لـــهوت عن وصف الطـــلول الدارسه
بـــروضة عذراء غيـــر عـــانسه
جادت لـــها كـــل سمـــاء راجسه
رائـــحة بالغيـــث أو مـــغالسه
فأصبـــحت من كـــل وشـــي لابسه
كأنـــــها معشـــوقة مؤانســـه
...
تكـــاد تحـــت الظلـــمات الدامـــسه
تهـــوى إليـــها كل كـــف قابسه(٤٣٦)

هكذا كانت نظرة ابن الرومي للمرأة من خلال الزمن ، الذي أصبح منطوياً تحت سلطانها ، تتصرف به كيفما تشاء لتجعل من حياة شاعرنا ، أما جحيماً مقحماً بالمعاناة من خلال صدودها عنه ، أو جنة تطيب له ، ولو بنظرة تحيي ما فيه من نوازع اليأس القانط بين ثناياه المعذبة .

(٤٣٦) الديوان : ٣/ ١١٧٦ – ١١٧٧ . الدارسة : البالية . راجسة : مرعدة بصوت شديد ، مغالسة: آتية من الغلس وهو الظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح . قابسة : طالبه و أخذه .

المبحث الرابع

الحياة والموت

تبقى قضية الحياة والموت على مرور الزمن ، وباختلاف الأجيـــال محور الكون ، واللغز الغامض الذي شغل الإنسانية جمعاء ؛ لأن الحياة هي السر الإلهي الذي أودع الله عز وجل فيها أحلام الناس وآمالهم التي يسعون إليها ، والموت يعد ذلك الغول الذي يفتح فاه ، ليلقي بكل هذه الآمال والأحلام في هوة لا قرار لها . ومن هنا نشأ الصراع بينهما ، وهذا الصراع في جوهره صراع بين جميل مرغوب فيه يخاف عليه ، وجليل مرهوب منه يخاف وقوعه [٤٣٧] والذي حاول الإنسان بشتى الطرق تجنبه ، وإن لم يكن فتأجيل ميعاده [٤٣٨] فكانت ملحمة كلكامش من أقدم الملاحم التي حاولت ((ربط مفهوم الزمن في ضوء ما كان يتصوره إنسانها عصرئذٍ بعالم التغير والتجدد والديمومة)) [٤٣٩] ، لكنه آب في مسعاه ، خـائباً مكسوف البال ، بعد أن يأس في حيازة الوجود الأبدي ، وتأكد لديه أن ذلك محال ، وأن الموت نهاية كل الأحياء [٤٤٠] .

ولعلنا لا نستغرب من ذلك التشبث بالحياة عند الإنسان ؛ لأن حب البقاء غريزة متأصلة لديه ، ولهذا فهو يحرص جاهداً على أن يظل حياً .ومن أعز أمانيه ،

---

(٤٣٧) ينظر : روح العصر دراسة نقدية في الشعر والمسرح والقصة ، د . عز الدين إسماعيل ، دار الرائد العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٩/١٩٧٢ .

(٤٣٨) ينظر : خلاصة الفكر الأوربي (شوبنهور) ، عبد الرحمن بدوي ، دار النهضة العربية ، القاهرة (ب - ت) /٢٣٧ .

(٤٣٩) الزمان في ملحمة كلكامش (بحث) ، د . عناد غزوان ، مجلة الموقف الثقافي ، ع ٣٤ ، ٢٠٠١ / ٤٦ .

(٤٤٠) ينظر : ملحمة كلكامش ، ترجمة ، طه باقر ، منشورات وزارة الثقافة والأعلام ، ط٤ ، بغداد ، ١٩٨٠ / ١٧١ .

بل أغـــلاها أن يطول عمره أكثر فأكثر [٤٤١] وهذا مـــا يعلل لنا ((تعاظم الخوف في اللحظات التي يتعاظم فيها الإحساس بنهاية الحياة ، بفعل الزمن أو المرض)) [٤٤٢] ؛ لأن ذلك يعني زمن اقتراب الموت ، والذي هو خاتمة الحياة ، ونهاية هذا الإنسان الزائل .

وعلى هذا الاعتقاد ، فإن الموت لا ينفصل عن الزمن فهو واقع في إطاره ، فالخائف من المستقبل يعني خوفه من الموت [٤٤٣] ويأتي الشعر ليضيف إلى الفرد تعلقه في الحياة على وفق حقائق جديدة تبرز إلى الوجود في أثر الخلق الشعري ومن خلاله[٤٤٤] لتكون التجربة الشعرية علـــى ذلك المرآة التي تعكس لنا حياة الشاعر ، على أساس أنها قائمة على الصدق الوجداني والإحساس المرهف ٠ وشاعرنا جاءت أشعاره ترجمة ذاتية صادقة لحياته ؛ ((لأنها منبعثة من نفس لها حالة لم تكذب في التحدث عن ملابساتها)) [٤٤٥] وكأني به يريد أن يجعل ، حياته سجلاً باقياً على مدى الأيام ، يحمل في طياته أخباره وسيرته ، وليدون قصة شقائه وعذابه ، التي لم يتحرج في سردها .

فحياة ابن الرومي كانت عبارة عن سلسلة من الانهزامات والترددات ، جعلت من صاحبها ((ألعوبة القدر وأضحوكة البشر))[٤٤٦] فجاع وضمىء وحرم من أبسط الأشياء ، ومع كل هذا البؤس ، ظل مقبلاً عليها ، والأطرف من ذلك . أنه كان من أخلص محبيها ، بل من مدمنيها بين شرابها غير المدمنين ، وإنه ليود أن يجرعها مرة واحدة من فرط التعطش ، والخوف عليها لولا أنه يستعذبها ويتطيبها

---

(٤٤١) ينظر : شباب في الشيخوخة ، د. أمين رويحه ، دار القلم ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٢ / ٢٣ .

(٤٤٢) الإنسان بين الجوهر والمظهر ، أريك فروم ، ترجمة سعد زهران ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، آب ، ١٩٨٩ / ١٣٤ .

(٤٤٣) ينظر العزلة والمجتمع /١٢٨ .

(٤٤٤) ينظر: الزمن في الأدب / ١٤٠ .

(٤٤٥) ينظر : ابن الرومي في الصورة والوجود /١٠٢ .

(٤٤٦) ابن الرومي ، خليل شرف الدين / ٤٢ .

فيرتشف منها رشفة بعد رشفة [٤٤٧] وتبدو ملامـــح هذا التشبث في الحياة فيما يأتي : [٤٤٨]

- **تهالكه على اللذات الحسية والشهوية ببطن جاهلية وذائقية .**
- **وسواسه وتطيره ونفوره من كل ما يرمز إلى زوال الحياة .**
- **خوفه وجبنه من الغد والإغتراب .**
- **جزعه الشديد على فقدان الشباب وزهرة العمر ؛ لأن في ذلك فقداناً للقدرة على الأستمتاع بالحياة .**

وعلى هذا المنوال تمثل الحياة لدى شاعرنا ، الزمن الذي ينبغي عليه أن يعيشه بأي طريقة كانت ، فإذا أكتملت أسباب المتعة عند ابن الرومي ، فإن أسباب الاطمئنان لن تكتمل بعد ، لأن الزمن القادم محمل بالأسرار المخيفة التي لا يدري شاعرنا ماذا يخبئ خلفها القدر ، لذلك فهو يريد أن يغتنم وجوده قبل فنائه ، وكأن الحياة عنده عيش يستنفده الزمان ، فلا بد من استغلال هذه الحياة المستعارة ، كما يقول :

خذ نصيْباً من عيشك المستعار ... قبل ليل مصرّفٍ ونهار
فكان قد سفتْ عليك السوافي ... في بطون الملمّعات القفار
ليت شعري ، وأين إذ ذاك شعري ... كيف يعفو البلى على آثاري ؟
ليت شعري ، هل توجف الكأس بعدي ... بحداء اللحون والأوتار ؟
ليت شعري ، هل تلبس الأرض بعدي ... حَبَرات الرّبيع ذي النوار ؟
أو تهب الشمال عندي بليل ... فتميس الغصون بالأسحار
دَرّ دَرّ الصّبا ودَرّ مغاني الـ ... ـلهو لو أنها ديار قرار
يا قصار الأيام متعت لو كنـ ... ـت قصاراً موصولة بقصار [٤٤٩]

---

(٤٤٧) ينظر: ابن الرومي ، العقاد /٢٨٢ .

(٤٤٨) ينظر : ابن الرومي ، خليل شرف الدين /١٢٢ .

(٤٤٩) الديوان : ٣/ ١١٤٠.

والناظر إلى هذه الأبيات يجدها معاني تنبض بها نفس الشاعر التواقة إلى الحياة ، وإنك لتحس بدمها يتدفق في عروقه ، حيث الشراب والغناء والطبيعة بجمالها وسحرها الخلاب ، وبما أن الأبيـات تشير صراحة إلى ألفاظ الزمن الصريحة ، فهذا لا يعني أن معنى هذه الأبيات يخلو من الزمن الممثل بتجربة الحياة عند ابن الرومي ؛ لأنه قدم لنا رؤية ممزوجة بالتمني تخرج إلى طموح مقبل للتفاؤل بالمتعة والفوز .

وقد نراه يتعمد في أن يعطي للدهر قوة التمرد والعصيان على الإنسان ، ليعطينا فرصة الإتيان قبل حلول النوازل ، ولعل ابن الرومي لم يأت بلفظة الدهر هنا عبثاً ، إلا ولها أثر ووقع نفسي في حياته :

فـبـادر الـدهرَ بالمناعم والـــــ ـــلـذات وأحـْذرْ من وشك مُرْتحل

فإنْ تـعذرن أن يُـجبْـنكَ بـالـقـو وةِ فاحْـتلْ لـطـائفَ الحيل * (٤٥٠)

فالشاعر – كما نرى يدعو إلى مبادرة اللذات ، واستغلال الفرص ، لأن الموت واقع لا محالة ، وأنه قد يكون قريباً يحين في أية لحظة ، لذا فهو يطلب من الإنسان أن يبكي على أيام الحياة ،لأن أيامها قصيرة وهو معها في سباق دائم :

وابـــك أيـــــــام حـيـــاة أنـت مـنـهـا فـي سـباق (٤٥١)

ولأجل هذا نراه دائـماً يبحث عن زمن آخر مع زمانه علـه يجد فيه حياة أفضل ، ودليلنا على ذلك ، أنه كثير ما كان يبحث عن التغير ؛لأن قطيعة الموت هي الهاجس الأكبر الذي يفرض تلك الزمنية :

إذا طـاب لـي عيشى تنغصتُ طـيبه بـصـدق يـقيني أن سيذهبَ كالحلم

ومنْ كانَ في عـيـْش يُراعيْ زَوالــه فـذلـك فـي بؤس وإنْ كانَ في نعم (٤٥٢)

---

(٤٥٠) الديوان: ٥/ ١٩٢١ .

* ورد في هذا البيت خطأ عروضي في الوزن ، والصواب كما اعتقد هو :

فأن تعذرن أن يجبنك بالـ قــوة فاحتل لطائفَ الحيل

(٤٥١)م . ن : ٤/ ١٦٧٩ .

(٤٥٢) م . ن : ٥/ ٢١٢٩ .

وعليه ((فالخير الأكبر لديه أن يحيا الإنسان ، والشر الأكبر هو أن يموت ولا سيئة عنده لهذا الخير العميم ، إلا تنغيص ذلك الشر العميم)) [٤٥٣]

سَـوْأة لـلـحـيـاة ، والـمـوتُ حتمٌ ولـبـذل الـزّمـان واسترداده [٤٥٤]

فكراهة الموت لدى شاعرنا واضحة لا غبار عليها ، وخوفه وفزعه منه هو خوف تستشعره كل ذات إنسانية مصيرها العدم والفناء ؛ لأن الموت يعني ((فقدان أشياء يمتلكها الشخص هي الجسد أو الذات من أن يصير الشخص شيئاً مفقوداً)) [٤٥٥] غير أن ابن الرومي من شدة شغفه بالحياة وحرصه عليها ، كان مشغولاً بهذا الموت بدرجة كبيرة ، محاولاً الانتصار عليه ولو كان ذلك في عالمه الوهمي أعني (التطيّر) ، ولكن محاولاته هذه سرعان ما نجدها تتغير بعد أن يدرك فشله وعجزه ، ليقرر بالنهاية استسلامه وأقراره بحتميته ، وموقفه منه حينئذٍ شبيه بموقف المؤمن الذي يرى في الموت تعويضاً للوجود الفاني بالوجود الخالد .

ولا غنى لنا من الإشارة هنا ، بأن شاعرنا كان ((مسلماً مفطوراً على التدين ؛ لأنه كان مفطوراً على التهيب ، والإعتماد على النصير ، وهما منفذان خفيان من منافذ الإيمان والتصديق بالعناية الكبرى في هذا الوجود . ومن ثم أنه كان مؤمناً بالله خوفاً من الشك ، مقبلاً على التسليم بسيطاً في تسليمه بساطة من يهرب من القلق ، ويؤثر السكينة إلى شيء من الأشياء)) [٤٥٦] وقد تبدو هذه البساطة واضحة ، وذلك حينما راح ينكر على الحكماء شكهم في حفظ أجساد الأتقياء بعد الموت ، وحسبانه من فعل الدواء والحنوط ، فقال لأحدهم حين تذوق بعض الأجساد ليعلم ما فيها من عوامل البقاء :

يـا ذائـقَ الـمـوتَى لِتعلمَ هلْ بَقوا بَـعْـدَ الـتّـقـادم مـنْـهُمُ بِـدوَاءِ
بـيـّنْتَ عـنْ رعَـةٍ وَصِدْق أمانَـةٍ لـَوْلا اتـهـامُـكَ خَـالِقَ الأشْيَاءِ

---

(٤٥٣) ابن الرومي ، العقاد /٢٨٥ .

(٤٥٤) الديوان : ٧٠٧/٢ .

(٤٥٥) الإنسان بين الجوهر والمظهر /١٣٤ .

(٤٥٦) ابن الرومي ، العقاد /٢٢٩ .

أحَـسِـبْـتَ أنّ اللهَ لـيْسَ بِقادر أنْ يَـجْـعَـلَ الأمْـوَاتَ كـالأحيَاءِ ؟
وَظـنَـنْـتَ مَـا شَـاهَدْتَ مِنْ آياتِهِ بِلطيْفةٍ مِنْ حيلةِ الحُـكَـمَـاءِ ؟(٤٥٧)

إلا أن هذا الإيمان الذي يظهره ابن الرومي شيء ، وأداء الفرائض الدينية شيء آخر ، فقصارى الإيمان عنده تنزيه ربه ، والاطمئنان إلى عدله ورحمته ، ثم يدع لـه سبيله يلعب ويمرح كلما لذ له اللعب والمرح (٤٥٨) ولكن الموت يبقى هو العـائق الذي ينغص عليه تلك الحيـاة ، خاصة بعدما أخذ يتخطّف منه أهله وأحباءه ، فجعله يطلق الحسرات التي تخرج من أعماقه الحزينة ليقول في رثائهم جميعاً رثاءً صادقاً . ورثاء الشاعر لمن مات من أحبائه أو العظماء من قومه وممدوحيه يتصل بقضية الإنسان والزمن (٤٥٩) فقد قضّ الموت مضجع شاعرنا ، وذلك بانتزاعه لفلذات أكباده الذين هم زينة الدنيا التي تكتمل بهم سعادته ، فمحنته بهم محنة ليس بعدها محنة ، إذ يقول :

أوْلادِنـــــــا أنْتـمْ لَـنـا فـتـن وتـفـارقـون فـأنـتـمُ المحن
لـهْـفـيْ عَـلَـى سبْق المنيّةِ بي لـوْ بـيْـعَ لـمْ يوْجدْ له ثمن (٤٦٠)

ولتقارب المشاعر الإنسانية في موقفها من حدث الفقد ، وما يسببه من ألم وفجيعة ، نلمس على شاعرنا أنه انشغل بتعزية آباء المفقودين في أبنائهم ، وكأن موقفه هنا هو ((تعبير عن المشكلة بذاتها أو بما يمت إليها)) (٤٦١) فقد ماتت لعلي بن عبد الله المسيب (٤٦٢) ابنة ، فقال يعزيه فيها :

---

(٤٥٧) الديوان : ١/ ٩٣ – ٩٤ .

(٤٥٨) ينظر: ابن الرومي ، العقاد / ٢٣٠ .

(٤٥٩) ينظر : الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي / ٧٦ .

(٤٦٠) الديوان : ٦/ ٢٥١٦ .

(٤٦١) ابن الرومي فنه ونفسيته / ٢٦٢ .

(٤٦٢) أبو الحسن علي بن عبد الله بن المسيب الكاتب الشاعر ، من أصدقاء ابن الرومي في أواخر حياته ، مدحه ، وهجاه ، وعزاه في ابنته التي ماتت سنة (٢٧٨ هـ) ، ينظر :الديوان : ٦/ هامش ٢٦٢٣ .

أخـــا ثـقـتـــي أعززْ عليّ بنـــوبة مَـنـَاكَ بـــهـا صُـرْفُ القضاء المقدرُ
أصبْتَ وَمَا للعبْدِ عــنْ حـكـْم ربـه مَحيـص، وأمـر الله أعـلـى وأقـْهرُ
وَقدْ مَاتَ مِنْ لا يخلف الدّهرْ مـثـْلـه عـلـيك من الأسلاف، والحقّ يبْهرُ (٤٦٣)

وبطبيعة الحال إن الشاعر لا يمنحنا . وهذه هي حالة ابن الرومي – تعبيراً حرفياً عن ماهية الموت ، وإنما يتمثل لنا بوجه آخر ، ليقترح علينا رؤية جديدة يريد بها لنفسه الغلبة ، فيعظم الأفكار ويدلي بفكرة الموت ، وتبدو تحت ريشة شاعرنا علاقة درامية مع الإنسان ، تتمثل في تهديم الزمن لآثار الفعل الإنساني تهديماً يقف الشاعر عاجزاً لا حيلة له في دفعه ، وهذا ما يتجلى في نصه القادم ، الذي أخذ يرثي به خاله :

فـلـــو كـــان هذا الموت قرناً أطيقه لـــمـــا فـــاتـــني أخرى الليالي بثاره
ولـــو قـَبـلـــتْ مـــني الليالي فداءه لـــفـــاديـْتـُهـــا من تالدي بخياره
فـــأنـّى تـُفـــاديـــنـــي المنايا بمثله وكـيـْس المنايا كيسها في اختياره (٤٦٤)

وعلى ما ويبدو أن حالات الحزن الشديدة التي مر بها الشاعر جعلته يطيل التفكر في الحياة والكون ، مما أوجد نوعاً من العلاقة بين الأدب والفلسفة ((وهذه العـلاقة غير محسومة ، لأنه لا تزال العلاقة بين الفلسفة ودراسة الشعر علاقة مبهمة))(٤٦٥) إلا أنه ليس من الضروري أن تكون القصيدة المتعاملة مع الزمن متضمنة أفكاراً فلسفية عميقة ، ولكن لا بأس أن تكون في القصيدة بعض الأفكار الفلسفية ((على شكل معاني مطبوعة أو معانٍ عميقة نستنتجها نحن))(٤٦٦) وهذا ما حصل لابن الرومي ، الذي تجمع الأسى في نفسه وولد لديه نزعة فلسفية بدت واضحة في مراثيه ، فهو لا يكتفي بذكر الميت وإظهار الأسى والحزن عليه ، وإنما

---

(٤٦٣) الديوان : ٣/ ٩٥٢ .

(٤٦٤) م : ن : ٣/ ١١٣٤ . قرنا :القرن الكفؤوء في الشجاعة .

(٤٦٥) مفهوم الزمن كصيغة للخلاص عند اليوت (بحث) مجلة الأقلام ،ع(١٠) ، السنة (٨) ،١٩٧٣/ ٥٠ .

(٤٦٦) مفهوم الزمن كوسيلة للخلاص عند اليوت / ٥٠ .

راح يتحدث عن الحياة والموت ، والفناء والبقاء ، ومصائب الدهر بأفكار ومعان واضحة ، كما في قصيدته التي رثى فيها أمه ، إذ يقول :

فَـيـا آمِـلاً أنْ يَـخلد الدّهْرَ كُلّه سـل الـدّهْرَعنْ عادٍ وعنْ أختها إرمْ

يـُخَـبـّرك أنّ الـمـوتَ رسمٌ مُؤبد ولنْ تعْدو الرّسمَ الـقـديم الذي رَسَمْ

... ...

ألا كُـلّ حـيّ مـا خـلا اللهَ ميّـت وإنْ زعمَ التأميلَ ذو الإفك مـا زعمْ (٤٦٧)

إن إدراك الشاعر هنا لحتمية الموت وإستحالة الخلود ، هو ما جعله يتخذ من الأمم الغابرة الماضية أمثلة حية وشواهد ناطقة ، تنبئ عن عجز تلك الأمم وعن ضمانها البقاء الأبدي وتحاشي الفناء الذي لا يقاوم ، وربما كان الشاعر مدفوعاً إلى التذكير بالغابرين بدافع التسويغ للخوف الذي يستولي عليه حيال الموت وسطوته ، فضـلاً عن أن هذا التذكير يخفف من وطأة الصدمة التي قضت مضجعه ، فجعلته يطلق هذه التأملات المتسمة بالحكمة ، والتي يبدو أنها ولدت لديه نتيجة الخبرة الطويلة مع الموت ، فهو كان الرفيق الوفي الذي لم يتخل عنه ، بعد أن تخلى عنه أصحـابه . فضلاً عن ثقافته الواسـعة واطلاعه على علوم عصره (٤٦٨) وقبل كل شيء انقياده لإرادة الله عز وجل ، الذي أمده بالصبر على الرزايا ، وألهمه الحكمة ليصبح الموت والسلوان عنده أمراً مقدراً على بني البشر ، فالموت أن يقبض أرواح الأنام ، فإن الفاجعة فيه حتماً ستزول وتنقضي بمرور الزمن ، لكونه كالشعلة المتوقدة وإن طالت فلا بد من نهاية لها ، والإنسان كذلك سيألف فقدان من أحب ، على أنه لابد من لوعة للشوق أحياناً تصيبه كلما تذكر طيفه أو مر ذكره:

غدا الموْتُ والسلوان حتماً على الورى كِـلا ذا وهـذا لـلـفريقين راصـدُ

فـلا تـجـعـلـنّ الموت نُكراً فإنمـا حياة الـفـتـى سيرٌ إلى الموت قاصدُ

ولا تـحـسـبـنّ الـحـزن يبقى فإنـه شهاب حريـق واقـد ثـم خـامدُ

---

(٤٦٧) الديوان : ٢٣٠٢/٦ .

(٤٦٨) ينظر : ابن الرومي ، العقاد /١٠٣ .

ستألُـف فـقْـدان الـذي قـد فقدته كـإلـفـكَ وجْـدان الذي أنت واجدُ
عـلـــى أنّـه لابـد من لذع لوعة تهـبّ أحايينا كما هـبّ راقـدُ(٤٦٩)

وينقلنا الشاعر إلى إحدى الصور المألوفة ، لتذكير الناس بماهية الموت ، تتغير فيها الأهواء وتتلون فيها القناعـات ، بيد أن دلالة الخـوف بائنة على شاعرنا ؛ لأن فيها دلالة واضحة على عقاب من تقدم به العمر ، وحينما نعزو خوف النفوس يكون الانفعال في الإنسان مفزعاً ، وخبرة إنسانية رفيعة لتذكير المفجوع :

لا يـحْـزنـنّـك مـنْ يـَمُوْ ت فـَلـمْ يـمـتْ منْ ماتَ قبلكْ
مـا مـاتَ إلا مـنْ تـطـا وَل عـُمْـرَهُ وَأذيـْـقَ ثـُكْـلكْ
لا ذاق ثـُكـلـكَ ذائـقٌ حـتـى يـرى في الناس مِثلكْ (٤٧٠)

كما ذهب ابن الرومي، إلى أنه ليس في عرف الموت تمييز بين غني أو فقير، وقوي عزيز أم ضعيفٍ هين ، وإنما الخلق سواسية إذا حان الأجل والكل يفضي للمنية إذا وافته بلا مفاضلة ، وقد تمثل صدق ما يقول في رثائه للأمير محمد بن عبد الله الطاهر (٤٧١) الذي ألم به الموت ، على الرغم من عدد جيوشه الباسلة المجربة بكل قتال :

أنّ الـمَـنـِيـّة لا تـبقى على أحدٍ ولا تـهـابُ أخـا عز ولا حَشَدِ
هذا الأميرُ أتتهُ وهْوَ فـي كـثـفٍ كـالـليل منْ عُدَدٍ ما شئتَ أو عَدَدِ(٤٧٢)

والموت يفني الخلائق جيلاً أثر جيل ، والحي يدفن الميت لتستحيل الحياة في ذهن الشاعر ، إلى عملية دفن تتبادلها البشر فيما بينهم ، لا تتوقف وكأن الأجيال

---

(٤٦٩) الديوان : ٢/ ٨٠٠ – ٨٠١ . الشهاب : كالشهابة أي الشعلة من النار .

(٤٧٠) م . ن : ٥/ ١٨٨٨ .

(٤٧١) أبو العباس محمد بن عبد الله بن طاهر الخز اعي ، أمير حازم بن الشجعان من بيت مجد ورئاسة ولي النيابة بغداد في أيام المتوكل العباسي ، كان فاضلاً أديباً جواداً (ت ٢٥٣ هـ) في بغداد ، ينظر : الأعلام ٦/ ٢٢٢ .

(٤٧٢) الديوان :٢/ ٦٣١ .

مواكب يشيع الواحد الآخر والدنيا مأتم دائم [٤٧٣] :

مـــات الـخـلائـقُ مُذ نعاهُمْ ربّهم بـــل مُـــذ رأتْ عينٌ قريناً بائنا

... ...

ســاق الـخـلـيـلَ إلى الخليل فناؤه لـيـكـــون مدفوناً له أو دافنا [٤٧٤]

ويسعى الشاعر إلى إيجاد معادلة جديدة بين الرغبة في الحياة ، والخوف من تهديد الموت القادم ، الذي لا يفرق بين صغير وكبير ، إنه الشعور بقيمة الزمن ، ولهذا ألح ابن الرومي كثيراً على ماهية الموت فأصغ إليه :

رأيـتُ طـويـل العُمْر مثلَ قصيرهِ إذا كـان مُـفْـضـاهُ إلى غايةٍ تؤم

ومـا طـولُ عمر لا أبالكَ ينقضي وما خيْرُ عيش قصر وجدانه العدم [٤٧٥]

ومن منطلق الموت ، ومشكلة مرور الزمن يرسل ابن الرومي تصوراته عن الدنيا ، فيراها ليست بدار إقامة إذا تبصر بها الإنسان وتفكر، فهي فانية زائلة :

لـعَـمُـرك مـا الـدنـيـا بدار إقـامـةٍ إذا زالَ عـن عـين البصير غطاؤُها

وكـيـف بـقـاءُ الناس فيها وإنما يـنـالُ بـأسـبـاب الفناء بقاؤُها ؟[٤٧٦]

وقد تحول قصر الزمن ودنو الموت عند شاعرنا دلالة على الاتعاظ ، ليخبرنا بأن الإنسان يكذب ويخادع لجمع المال ، كما أنه لا يتورع عن شيء في سبيل تحقيق أطماعه من دون أن يتذكر الموت الذي سيعدمه عنها ويجعله من دونها :

ضَـلّـة لامْـرئٍ يُشَمّر في الجمْـ ـع لِعيْش مُشَمّر للْفَنَاءِ

دائِبـاً يَـكْـنُـزُ الـقَـنَـاطِيْرَ للوَا رثِ ، وَالـعُـمْـرُ دَائِـبـاً فـي انْقِضَاءِ

حَبّـذا كُـثْـرَة الـقَـنَـاطِيْر لوْ كَا نـتْ لِـرَبّ الـكُـنُـوز كنْزَ بَقَاءِ [٤٧٧]

---

(٤٧٣) ينظر : المثال والتحول ، جلال الخياط ، وزارة الأعلام ، بغداد ،١٩٧٧ /٥٩ .

(٤٧٤) الديوان : ٦/ ٢٥٩٣ .

(٤٧٥) الديوان: ٦/ ٢٣٠٢ .

(٤٧٦) م . ن: ١/ ١٣٠ .

(٤٧٧)م . ن : ١/ ٦٩ .

فـهذا هو الغباء الذي ننشغل فيه بأمورنا عن أمر الموت ، ونتغافل به عن الزمن الذي يمر على وجوهنا وأحداقنا وشبابنا ، أو الذي يتقتر ويحرم الراحة ليجمع قناطير الكنوز ويكاد لا يتخيل أنه امتلكها ، أو هي تهرب منه أو هو يموت دونها فتبقى هي شاهدة على غباوته ، ولا جداوة أنه الموت الذي يساوي بين الأشياء أمام العدم [٤٧٨] .

ولعل من الأمور التي جعلت الشاعر يتبصر بالزمن ، هو امتلاكه أدواته الشعرية التي تعطيه هذه القدرة ومن أهم هذه الأدوات (المعنى الشعري الذي لا يكون الشعر شعراً ولا الأدب أدباً إلا به)[٤٧٩] وما دامت هذه غاية الشاعر (فليس وراء الإحساس بالموت ، ولا استشعار العدم ، إلا كل رعب ينفي الجمال ، ويستأصل كل شعور بالإمتاع ، فالحياة متى انعدمت ، لا حديث إذن عن قبح ولا جمال)[٤٨٠] حتى إننا لنجد الشاعر يمدح الموت ويفضله على الحياة ، ويرى فيه ألف فضيلة لا تعرف ، ولعلها تكون الغرابة ،لأننا لم نعهد على ابن الرومي إلا كل حرص وتشبث بالحياة . ولو أعطينا أنفسنا حرية الفكر وتأملنا هذا التفضيل ، لنجد أن ابن الرومي من شدة انشغاله بالموت ، أصبح حاله كحال من أشتدت عليه الآلام ولا يتمكن من الشفاء منها ، فلا يكن أمامه حينئذٍ إلا أن يتمنى الموت فهو السبيل الوحيد الذي يستطيع أن يريحه من تلك الهموم أو الآلام ، وكذلك لأن الشاعر وجد في هذا الموت خلاصاً من الناس والأصدقاء الذين لا ينصفونه ، مما جعله يقول :

قدْ قلت إذ مدحوا الحياة فأكـــثروا : للمـــوتِ ألف فضـــيلة لا تـُـعرفُ

فـيـــه أمـــان لـقـــائـــه بـلقائه وفِـراقُ كُـلّ مُعـاشر لا يُنْصفُ [٤٨١]

وختاماً يمكن القول : إن الحياة والموت عند ابن الرومي يمثلان ثنائية متضادة قائمة على القبول والرفض ، فهو كان ((يعبد الحياة عبادة لا يبتغي عليها

---

(٤٧٨) ينظر : ابن الرومي فنه ونفسيته / ٣٠٣ .

(٤٧٩) النقد والدراسة الأدبية ، د . حلمي مرزوق ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٢ / ١١٩ .

(٤٨٠) م . ن : ١١٠ .

(٤٨١) الديوان : ٤/ ١٦٢٥ .

أجراً غير ما يبتغيه خلص العابدين ، فكان حياً كله لا مكان فيه للموت إلا الخوف منه والتفكير فيه))[٤٨٢] الذي بات ينغص عليه تلك الحياة ، فضلاً عن انتزاعه لإحبائه الذين ضاعت معهم آماله ، ومن هنا نشأت كراهيته للموت ، ولعل الذي يهون عليه نوازعه هو تسليمه لإرادة الله تعالى ، وإدراكه بنهاية الحياة .

(٤٨٢) ابن الرومي ، العقاد / ٢٨٢ .

الفصل الثالث

الصورة الشعرية

المبـحث الأول : الخيـــال

المبـحث الثاني : العاطـــفة

المبحث الثالث:الموسيقى الشعرية

الصورة الشعرية

توطئـة :

تعد الصورة الشعرية واحدة من أدوات الشاعر البنائية فهي . تعبر عن نفسية الشاعر ، ووعاء لأحاسيسه وفكرة تعين على كشف معنى أعمق من المعنى الظاهري (٤٨٣) أو هي طريقة خاصة من طرق التعبير ، أو وجه من أوجه الدلالة تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير (٤٨٤) وذلك من خلال الاندماج بين نسقين:الحسي الذي يتجلى ببراعة استخدام اللفظة .. والنسق الذهني أو المعنوي ، حين ترتفع الألفاظ إلى مستوى التأمل المعنوي العميق ، والنظرة البعيدة المدى في فهم الصورة فهماً متكاملاً (٤٨٥) مع ضرورة عدم الإغفال عن قيمة المجاز الفنية ، التي تغني الصورة وتلبسها ألقاً جميلاً ، من خلال ما يصاحبها من سعة الخيال ، وقدرة على التفكير في تصوير الأشياء ، لذا فإن الصورة الشعرية (تركيب لغوي لتصوير معنى عقلي وعاطفي متخيل ، لعلاقة بين شيئين يمكن تصويرهما بعدة أساليب ، إما عن طريق المشابهة أو التجسيد أو التشخيص)(٤٨٦) عبر وشائج أو قرائن تمنح الصورة الشعرية أبعادا فنية في غاية الجمال والروعة ، لأنها(تثير في المتلقي اليقظة والانتباه ، وتجعل أحاسيسه مستنفرة

---

(٤٨٣) الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجاً وتطبيقاً ، د .أحمد علي الدهان ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ،ط١ ١٩٨٦ ،١/ ٣٧٦ .

(٤٨٤) الصورة الأدبية ، د . مصطفى ناصف ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط٣ ، ١٩٨٢ /١٢٨ .

(٤٨٥) التحليل النقدي والجمالي للأدب ، د . عناد غزوان ، بغداد ، دار آفاق عربية ،١٩٨٥ /٨٩ .

٤٨٩) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة ، د . صالح أبو إصبع ، ط١ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ٣١/١٩٧٩ . ويعني بالتشخيص : إضفاء صفات إنسانية على كل من المحسوسات والماديات ، ينظر : الصورة الشعرية ، سيسل. دي لويس /١٢٣ .أما التجسيد : فهو ما يتم من خلال إكساب المعنويات صفات محسوسة مجسدة حيث تقدم الصورة أو الفكرة أو الخاطرة عن طريق إحساس مجسد . ينظر : الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة / ٤٤ .

، لإدراك العلاقات الجديدة الخفية بين المفردات وصولاً إلى إستيعاب أبعاد الصورة ، وهي تتكامل في خطوات وئيدة)[٤٨٧] .

لذا يمكن القول : إن عملية التصوير الشعري عملية فنية إبداعية ، تتوحد فيها الأشياء المعنوية مع الحسية ، فضلاً عن دور الصورة الرئيس الذي لا يمكن الاستغناء عنها ، لأنها وسيلة مهمة في الكشف والتعرف على جوانب خصبة من التجربة الإنسانية ، فيتوسل الشاعر بها عن حالات لا يمكن أن يتفهمها أو يجسدها بدون الصورة [٤٨٨] .

وشاعرنا كما يقول عنه أحد الباحثين ، كانت له عبقرية فذة في وصف المرئيات والمعنويات بما أتيح له من دقة التصوير وبراعة التشخيص وحسن التعبير [٤٨٩] إذ ينظر إلى الأشياء بعين مصور صنّاع لا يفوتها لون من الألوان تستنتجها خيوط الشمس في ائتلاف أو اختلاف وفي سطوع أو خفوت ، فهو فنان لا ينقصه إلا الريشة واللوحة ، بل لا ينقصه هاتان ، لأنه استعاض عن الريشة بالقلم واللوحة بالقرطاس فاكتفى بهما وأثبت في البديع ما لا تثبته الألوان والأشكال [٤٩٠] وتلك ناحية تميز بها أكثر شعراء العصر ، غير أن ابن الرومي زاد عليهم في أنه كان يوغل في فهم الأشياء فيعطيها ما ليس فيها [٤٩١] .

وسوف نتناول في هذا البحث الصورة الشعرية في موطني الخيال والعاطفة ، إذ يعدان رافداً مهماً من روافد الإبداع لدى شاعرنا ، فهو كما يقول عنه الدكتور طه حسين : كان قوي الخيال جداً ، وكان خياله بعيداً ليس بالقريب ، وكان قوي

---

(٤٨٧) الصورة المجازية في شعر المتنبي ، أطروحة (دكتوراه) ، جليل رشيد صالح ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٥/٤٠ .

(٤٨٨) ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د . جابر عصفور ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة (ب- ط) ١٩٧٤/٤٦٤ .

(٤٨٩) ينظر : الأدب العربي في العصر العباسي /١٣٥ .

(٤٩٠) ينظر : ديوان ابن الرومي ، كامل كيلاني ، المقدمة / ط .

(٤٩١) دراسات في الأدب العربي ، إنعام الجندي /٨٧ .

الشعور فإذا ألمّ بمعنى من المعاني تأثر به تأثيراً واضحاً وهذه خاصية مميزة من خصائص شعره [٤٩٢] .

(٤٩٢) ينظر : من حديث الشعر والنثر /١٣٧ ، ومن تاريخ الأدب العربي /٣٧٨ ٠

المبحث الأول

الخيــال الشعري

يعد الخيال مصدراً من مصادر بناء الصورة البيانية وتشكيل أجزائها ، فالأعمال الأدبية لا تذكر بمعزل عن الخيال ، لأن الخيال هو العنصر الوحيد الذي يساعد على تشكيل الواقع الخارجي تشكيلاً جديداً في العمل الأدبي ، والشاعر أقدر من غيره على الالتحام بالأشياء والموضوعات التي يتقبلها حسه . وفي درجة التوحد هذه يكمن الفرق بين خيال الشاعر وخيال الرجل العادي [٤٩٣] فالتعاطف مع الأشياء يكون أكثر خصوصية وأشد تكثيفاً وتهذيباً عند الشاعر [٤٩٤] .

وبمقدار قوة خيال الشاعر تكون قيمة قصيدته من الناحية التصويرية (والشاعر الحق هو الذي تبلغ عنده ملكة الكشف أقصى حدودها ، فإذا كل ما حوله في الوجود أرواح وأشباح وعالم من الرؤى والأحلام في عالم تتحول فيه الأشياء من صورة إلى صورة تحولاً مستمراً ، وكأنما تهبط عليه أنوار من السماء ، يرى خلالها روح الكون منبعثة في كل مظهر من مظاهره ، وفي كل شيء من إثباته ، بل يرى الأبد كله في اتساعه وفي أسراره التي تتفجر فيه)[٤٩٥] .

فالصورة إذن من نتاج خيال الشاعر ، والخيال هو (نشاط إنساني وفعالية لابد منها ، من أجل أن تكون المعرفة الإنسانية ممكنة)[٤٩٦] كما أنه (القوة التي

---

(٤٩٣) تطور الشعر العربي في العراق ، د . علي عباس علوان ، منشورات وزارة الأعلام بغداد ، (ب- ط) ١٩٩٥/٣٨ .

(٤٩٤) الصورة الشعرية /٧٤ .

(٤٩٥) في النقد الأدبي ، د . شوقي ضيف / ١٧٠ .

(٤٩٦) الخيال مفهوماته ووظائفه ، عاطف جودة نصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (ب - ط)،١٩٨٤ / ٢٤٠ .

بوساطتها تستطيع صور معينة أو إحساس واحد أن يهيمن على عدة صور ، أو أحاسيس في القصيدة ، فتحقق الوحدة في ما بينها وبطريقة أشبه بالصهر)[٤٩٧] .

ولهذا الخيال أنواع [٤٩٨] ومن عناصره المتعارف عليها عند العرب (التشبيه والاستعارة والكناية والطباق وحسن التعليل)[٤٩٩] ، لأن في كل صورة من هذه الصور(ميزة لتقوية المعنى أو تجسيده أو إلحاقه بما هو أقوى منه ، استجابة لقوة العاطفة والانفعال)[٥٠٠] .

وقد ربط شاعرنا صوره البيانية ، التي سيقتصر البحث عليها من تشبيه واستعارة وكناية ، بمواقفه وأحاسيسه عن طريق تجربته المرة في الحياة .

أولا : التشبيه[٥٠١]

وهو من أساليب البيان المهمة ، في مجال التصوير الشعري ، ولعله من أقدمها في الشعر العربي عموماً [٥٠٢] فيه تتكامل الصور وتتدافع المشاهد [٥٠٣] على وفق أسس فنية تستطيع نقل ((الشعور بأشكال وألوان من نفس إلى نفس وبقوة

---

(٤٩٧) كوليردج ، محمد مصطفى بدوي ، دار المعارف ، مصر ،(ب- ط)،(ب- ت) / ٥٨ .

(٤٩٨) الخيال التوليفي ،الخيال الإبتكا ري ، الخيال البياني أو التفسيري ، وهو خير طريقة للوصف ، لأنه قائم على الإدراك الجمالي للأشياء وأسرارها ، ينظر أصول النقد الأدبي ، د .أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٨ ، ١٩٧٣ /٢١٢ -٢١٨ .

(٤٩٩) م . ن / ٢٤٩ .

(٥٠٠) الأسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، د . أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ، ط١٩٧٦،٧/١٠٤ .

(٥٠١) يعرفه أهل البلاغة بأنه (الدلالة على مشاركة أمر لأمر آخر في المعنى) ينظر ، الإيضاح في علوم البلاغة ، للقزويني (ت٧٣٩ هـ) ، تح : لجنة من أساتذة اللغة العربية بالجامع الأزهر ، مطبعة السنة المحمدية (ب – ت) / ٢٢٣ .

(٥٠٢) ينظر : فنون بلاغية ، د . أحمد مطلوب ، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع ،الكويت ،١٩٧٥ / ٢٧ .

(٥٠٣) أصول البيان العربي ، د . محمد حسين علي الصغير ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ،١٩٨٦ / ٦٤ .

الشعور ، وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء))[٥٠٤] ؛ ليؤدي بذلك ((رسالة ذات أثر وليحقق أغراضه النفسية من علم البيان ، فهو من هذه الناحية لا يقل عن الاستعارة أو الكناية))[٥٠٥] .

وبما أن التشبيه خلق فني يعبر عن موقف شعوري خاص ، فقد عمد إليه ابن الرومي ، واتخذ منه وسيلة لنقل أفكاره ومشاعره إزاء الزمن وأهله ، كما في قوله

دهرٌ علا قدْرُ الوضيع به وهوى الشريفُ يحطّه شرفُهْ

كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلاً ، وتطفو فوقه جِيفهْ [٥٠٦]

فالشاعر هنا ، يطالعنا بلوحة عبّر فيها عن زمنه الذي علا فيه قدر الوضيع ، بينما أصبحت مكانة الشريف مهددة وكرامته مهدورة ، وقد أوضح الشاعر الموقف في البيت الأول ، ولدعم المحاور الدلالية والتوصيلية لهذا البيت ، جاء بصورة المشبه به وهو (البحر) في البيت الثاني مقابلاً إياها بصورة الدهر في البيت الأول ، ليتحقق الانسجام بينهما ، وقد أجاد الشاعر في اختيار اللؤلؤ الذي يقابل الشريف في ذلك الزمن ليؤكد ضمناً وباختصاره للفظة (يرسب) أن وجوده في القاع لا يحط من قيمته ، وكذلك وفق الشاعر في اختياره للفظة (جيفه) مقابلاً إياها بالوضيع ، ليوضح بأن ارتفاع الجيف في البحر لا يضيف شيئاً لقيمتها المنحدرة .

وبهذه الموازنة الرائعة بين المشبه والمشبه به ، خلق الشاعر صورة تشبيهية ، تمنح الخيال فرصة مسايرتها لاستكناه جمالياتها الدقيقة ، تلك الجماليات التي حولت الدهر وأهله إلى بحر فيه من اللؤلو والجيف ، لاسيما وأن الشاعر قد راعى في الصورة أدق السمات ومنها المقابلة ، ليجعل كل طرف من أطراف التشبيه ، ما يقابله من المشبه به ، فتكون بذلك الصورة مكتملة أدت الغاية وكشفت عن الواقع .

---

(٥٠٤) فصول في البلاغة ، د . محمد بركات حمدي أبو علي ، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع ، عمان ، ط١ ، ١٩٨٣ / ٢٦٤ .

(٥٠٥)البلاغة فنونها وافنانها ، د . فضل حسن عباس ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، ط١ ،١٩٨٧ / ١٨ .

(٥٠٦) الديوان : ٤/ ١٥٧١ .

وكان لليل الطويل المحمل بالهموم والشيب الذي أورث للشاعر المعاناة دور في تحريك خياله مرة أخرى ، ليجعلهما معاً في لوحة واحدة ، لا تقل روعة عن اللوحة التي قد سلفت من خلال بيتين متوازنيين ، كأنه أراد من خلالهما أن يخفف من حدة الألم وحرقة المشاعر :

ربّ لـــيل تراه كالـــدّهر طــولا قد تنـاهى فليــس فيـه مـــــزيدُ

ذي نـــجوم كأنهن نجوم الشـّـيْـ ـــب ليـست تغور لا بـل تزيدُ *(٥٠٧)

فالناظر إلى هذه المقطوعة يجدها صورة مركبة ، متكونة من صورتين ، الأولى شبه الشاعر الليل بالدهر الذي لا ينتهي ، للدلالة على ثقله وطوله عليه ، وقد زينت هذا الليل نجومٌ كثيرة مشعة لا تختفي بل تزيد ، ثم أردف تلك الصورة بصورة أخرى وهي أن نجوم هذا الليل شبيهة بنجوم الشيب التي تتكاثر في الرأس ، للدلالة على اللانهاية والتكاثر والبياض .

فهذه الصورة بتفصيلاتها تدل على اتساع خيال الشاعر، وقدرته التوليدية على تشكيل لوحاته ، فهو لم يكتف بصورة واحدة ، ليبين من خلالها معاناته ، بل مزج صورتين مختلفتين ، لتؤدي دلالة واحدة ، والسبب في ذلك ، هو الرغبة في تهويل الموقف من خلال بيان معالم الأشياء ، وهذا ما يدل على إحساسه العميق بالزمن ، والذي يتضح أكثر في صورته الآتية :

أول بـــدءِ المشـــيْب وَاحِـــدة تُشْـــعِل ما جـاورتْ من الشـّعر

... ...

مثْـــلَ الحـريْق العظيم تـــبدؤه أولَ صـــول صـــغيْرة الشرر(٥٠٨)

---

(٥٠٧) م . ن :٢/ ٨٠٥ .

* ورد في هذا البيت خطأ عروضي في الوزن ، والصواب كما اعتقد هو :

ذي نجوم كأنهن نجوم الـــشـ شَـيْب ليســت تغور لا بل تزيد

(٥٠٨) الديوان : ٣/ ١٠٣٤ .

إن المتأمل لهذه الصورة يجد فكرتها تدور حول النهاية والفناء ، وهي الهاجس الأكبر الذي كان يراود تفكير شاعرنا ، وذلك لتعلقه بالحياة ، لذا فهو سريع الانفعال بالصور مباشرة ، سريع الالتقاء في حيز المحسوس المتوهم ، فانظر إليه كيف ألتمعت في ذهنه فكرة بداية الشيب في البيت الأول ، والمتمثلة بالشيبة الواحدة ، وكيف استعار لها لفظة (تشعل) ليوحي بابتداء العد التنازلي للحياة ، مع ملاحظة أن الحركة الزمنية هنا بطيئة ، ثم كيف قابل هذه الصورة مشبهاً إياها بصورة أخرى نراه قد أبدع فيها ، وهي فكرة (الحريق) وبدايته المتمثلة بالشرارة الصغيرة ، مع الملاحظة كذلك أن الحركة الزمنية هنا سريعة ، فكلا الصورتين إذن في نهاية المطاف توحي إلى الزوال .

ولعل ذلك الإحساس الذي يسيطر على تفكير شاعرنا ، بنهاية الحياة وانقضاء متعـها، هو ما جعل خياله يحلق بعيداً ، ليقدم لنا صورة أخرى عمد فيها إلى تحديد الزمن وسرعة انقضائه ، تمثلت بالشباب ، كما في قوله :

رأيْـــتُ سَواد الرّأس واللهو تحـته كَـلـيل وحُلــم بـــات رائيه ينعمُ

فلـــما اضمـــحلّ الليلُ زال نعيْمـه فلم يبـْق إلا عـهـدهُ المـــتوهّم (٥٠٩)

فابن الرومي هنا ، يطالعنا بصورة كنائية تشبيهية ، فقوله (رأيت سواد الرأس) كناية عن الشباب ، ثم شبه ذلك الشباب ومافية من اللهو والمتع بالليل والحلم ، ليدل على الزمن المحدد ، والذي هو وجه الشبه بين الصورتين ، وقد جاءت أداة التشبيه (الكاف) لتجسد هذه السرعة المقصودة ، ولتستوعب هذه الصورة قلق الشاعر واضطرابه .

ولما كان الجمال هو الوجه الأمثل الذي يبتغيه ابن الرومي ، ليستعيد من خلاله توازنه ، ويتطلع إلى بهجة الحياة المفقودة ، فإنه ما أن يلبث حتى نراه يصوره ويجسده بصورة المرأة المحبة ، والتي أصبحت لديه لوحة فنية رائعة ، امتزجت بها عواطفه ، مع ما يضفيه عليها من صفات الزمن الموضوعي ، لتكون بذلك انعكاساً جديداً لمشاعر بالية مرهقة ، ومن ذلك قوله :

---

(٥٠٩) الديوان : ٥/ ٢٠٩٢ .

يـغيمُ كلّ نـــــهار من مجــامـرها ويُشْمِسُ الليل منْها فهو ضَـــحْيانُ
كـأنـّها وعُــثانُ النـّد يشــملُـها شمـسٌ عليـها ضبابـاتٌ وأدجـــانُ
شـمسٌ أظلت بلـيل لا نجــوم لـهُ إلا نـجـومٌ لها في النـّحرِ أثـمــانُ (٥١٠)

فالشاعر هنا ، يطالعنا بصور متلاحقة الانسياب ، نغمة تلو نغمة ، توحي للقارئ بالجمال المنبعث لتلك المرأة ، التي تجلس في ذلك المكان المقدس وقد تحول نهارها ليلاً ، نتيجة للدخان المتصاعد في المجامر الملأى بالبخور ، ولكن ذلك لا يطمس من محاسنها ، فهي شبيهة بالشمس الطالعة في الليل تخفف من ظلمته ، وهنا إشارة إلى جمالها وحسنها وبياضها وهيبتها ، ثم عاد الشاعر ليؤكد هذا المعنى ويفسره بكلمة (ضبابات) فهي شمس عليها ضبابات وأدجان ، أما كلمة (نجوم) فالشاعر يعني بها أسنانها الشديدة البياض ، المشعة كإشعاع نجوم الليل .

إنها صورة تعبر عن فيض من شعور رقيق يتماشى مع ما أراده الشاعر من تصوير جميل ، لا يخلو من الدقة في نقل الجزئيات التي تعبر عن خصوصية الخيال وجمالية الأسلوب .

و يتبين للقارئ من خلال هذه المعالجة التشبيهية ، أن خيال الشاعر أخذ نحو الانحسار ، في عالم بعيد عن المنطق ، لأنه برأينا – ظل يفتش عن آدميته في زمن لم يكن مأموناً ، أضف إلى ذلك الصراع بين الشاعر وذاته ، وهو يفتش عن المجهول .

ثانياً : الاستعارة

(٥١٠) م . ن : ٦/ ٢٤٢٣ .

جاءت الاستعارة في الموروث النقدي والبلاغي ، لتدل على (نقل المعنى من لفظ إلى لفظ ، للمشاركة بينهما مع طي ذكر المنقول إليه)[٥١١] فتخلق بذلك صوراً فنية يتجاوز فيها المألوف ويضفي على الأشياء غير المتنفسة ، أفعالاً وأقوالاً يحاكي بها ذوات الأنفس على أن الإضفاء ، يجب أن تراعى فيه النسبة الظاهرة ، إذ كلما زاد التشبيه وضوحاً كان أجود وأحسن وكلما كان أقرب كان أسرع إلى الفهم [٥١٢] لذا فهي (فن قولي قد يجمع بين المتخالفين ويوفق بين الأضداد ، ويكشف عن إيجابية جديدة لا يحس بها السامع في الاستعمال الحقيقي)[٥١٣] من هنا تكون الاستعارة (أشد افتنانا وأكثر جريانا وأعجب حسنا وإحسانا وأوسع سعة ، وأبعد غوراً ... وأسحر سحراً ، وأملأ بكل ما يملأ صدراً ويمتع عقلاً، ويؤنس نفساً)[٥١٤] .

وقد استطاع شاعرنا من خلال هذا الفن أن يقدم لنا صوراً فنية امتزجت بأحاسيسه ، معتمداً في ذلك على التشخيص والتجسيم [٥١٥] كوسيلة بنائية في الشعر ، مصوراً بها الزمان والدهر بصورة تخرج إلى المجاز ، لأن مقتضى الحال ، كان يتطلب ذلك الأسلوب ، ومن ذلك قوله :

---

(٥١١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لأبي الفتح نصر الله ضياء الدين بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري (ت٦٣٧ هـ) ، تح : أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، مطبعة النهضة مصر ، ط١ ،١٩٥٩، ٨٢/٢ .

(٥١٢) ينظر:التلقي والتأويل مقاربة نسقية ، د . محمد مفتاح ، الدار البيضاء ، بيروت ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، ١٩٨/١٩٩٤ ـ ٢١٠ .

(٥١٣) الصورة الفنية في المثل القرآني ، د . محمد حسين علي الصغير ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ٢٠٠/١٩٨١ .

(٥١٤) أسرار البلاغة في علم البيان ، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، علق حواشيها محمد رشيد رضا ، الناشر دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٨ / ٣٢ .

(٥١٥) التجسيم هو (جعل المعنويات محسوسة من خلال إضفاء الحركة عليها بعد منحها صفات المخلوقات المتحركة لتتحول إلى حسيات تسمع أو تلمس أو تشم أو تذاق) ينظر : الصورة الفنية معياراً نقدياً ، عبد الآله الصائغ ، دار الشؤون الثقافية ، ط١ ، بغداد ١٩٩٠، ٤١٨/ .

لقدْ أنشَبــتْ حــادِثات الزّمــان مَـخَالِبهــا بــيْ وَأنيــابـها (٥١٦)

فالشاعر هنا يصور الزمان على هيئة حيوان مفترس ، ولكنه لم يصرح باسم ذلك الحيوان ، وإنما رمز إليه بشيء من لوازمه وهي (المخالب والأنياب) التي يعض أو ينهش بها ، على سبيل الاستعارة المكنية ، فتأتي هذه الصورة لتعكس إحساسه بالمعاناة ، إزاء ما يفعله الزمن به ، ولتصوير ما ينتابه من الخوف وفقدان الهمة في مسايرة الواقع ، وهذا ما يجعله يشخص الدهر بعدة صور ، مضيفاً عليه صفات إنسانية تشير إلى (المكر والغدر والخديعة .. وغيرها) ، كما في قوله :

ولا تــعذل الـدّهر في غـــدره بإخـــوانهِ فعـــليهِ طـــبعْ (٥١٧)

يطالعنا هذا البيت الشعري بصورة استعارية قصيرة ، حيث استعار الشاعر للزمان صفه (الغدر) وهي صفة إنسانية رامزاً بذلك إلى تقلبه وعدم الوفاء ، وهذه الصورة لا تخلو من المبالغة في التعبير ، فالشاعر هنا لا يطلق خياله ، بيد أنه يرسم لهذا الخيال إطاراً ثابتاً ، كما في القادم من هذين البيتين :

غدا الـدّهرُ لـيْ خصماً وَفيّ مُحكّماً فكيْف بخصْم ضالع وهو الحـكمْ ؟

يـَجوْرُ فأشْكوْ جـوْرَهُ وهو دائباً يرى جوْرَهُ عدلاً إذا الجور منه عمْ(٥١٨)

فالصور الإستعارية هنا متعددة وهي (خصماً، محكماً ، يجور) وهذه صفات كلها إنسانية إلا أن الشاعر قد البسها للدهر على سبيل التشخيص ، ليكوّن لديه صورة مجسمة لإنسان يخاصمه ويزيد في ظلمه له ، وفي ذات الوقت يكون هذا الخصم الحاكم الذي يقر بأن حكمه عادل فيه ، إذا ما الشاعر اشتكاه ، وهنا إشارة واضحة تعكس مدى وطأة الدهر على الشاعر ومدى سيطرته عليه .

---

(٥١٦) الديوان : ٣٣١/١، وينظر بنفس المعنى :٢١٠/١(ب٥) ،١٩(ب١٣٧) ، ٢٣٥(ب٣٥) ، ٨١٠/٢ (ب٢)، ١٢٧٦/٤ (ب١٤) ،٢٠٤٤/٥ (ب٥٦) ، ٢٣٠٤/٦ (ب٧٥) ، ٣٣٠٦ (ب٩٩) .

(٥١٧) الديوان: ١٥٠٦/٤ .

(٥١٨) م . ن : ٢٣٠١/٦ .

وبما أن تخيلية الشاعر كانت راجعة إلى ملازمة الخوف والتشاؤم والطيرة ، الصادرة عن بناء فسيولوجي [٥١٩] يجعله يتصور الخيال والحلم حقيقة ، فينفعل لها لذا لا نستغرب عليه شعوره ، حينما يصور الموت ويجسده كأنما يراه ماثلاً أمامه ، إذ يقول :

ورأيــتُ الحِمام في الـصور الشّنـ ـع وكـانـت لـولا القضـاءُ قضاء [٥٢٠]

فالصورة الاستعارية في هذا البيت تكمن في قوله (رأيت الحِمام) ، والموت لا يرى ، إلا أن الشاعر جسده من خلال الصور القبيحة التي كانت توحي له بهذا الهاجس الذي يسكنه .

وفي صورة استعارية أخرى ، ليست بالدلالة البعيدة عن هذه الصورة ، يقدم لنا الشاعر لوحة يملؤها التشاؤم والقنوط ، لشمس تغادر الحياة في وقت المغيب :

إذا رنـقتْ شـمسُ الأصيل ونفـضـتْ عـلـــى الأفق الغربيّ ورسا مـُذعذعا
وودّعـــت الدّنيا لتقضي نـَــحْبها وشَـوّل باقـــي عمـرها فتشعـشعا
ولاحـــظت النـــوّار وهْيَ مريضـــة وقدْ وضعتْ خدّاً إلى الأرض أضْـرعا
كمـــا لاحـظتْ عُـوّاده عين مُدنـفٍ توجـــع من أوصـــابـه مـــا توجّـعا
وظلّتْ عيـونُ النـّور تخْضلّ بالنـدى كمـا اغرورقتْ عينُ الشـّجّي لتَدْمـعا
... ...
وبيْنَ أغـضّـا ء الفِـراق علـيهمـا كأنّهمـا خـــلاً صـــفاءٍ تودّعـا[٥٢١]

فالناظر إلى هذه الأبيات يجدها صوراً انطلقت من حدقة حسية فارغة ، وجلت إلى ضمير النفس ، موحدة فيه بين غروب شمس الأصيل وغروب شمس الحياة ، متخيلة في المساء ملامح الموت والفناء [٥٢٢] وكأن الشاعر هنا لم يصف مشهداً للشمس وقت الغروب ، بل مشهداً لأحتضار إنسان معتمداً في ذلك على التشخيص

(٥١٩) ينظر : ابن الرومي في الصورة والوجود / ٢٢١ .
(٥٢٠) الديوان : ٩١/١ .
(٥٢١) الديوان : ٤/ ١٤٧٥ .
(٥٢٢) ينظر :ابن الرومي فنه ونفسيته /٥٦ – ٥٧ .

والتجسيد ، ليضفي على هذه الصورة الحياة ، فقد شاع في البيت الأول الإصفرار أو الشحوب ، واصطبغ البيت الثاني بحرارة الوداع وقرب انتهاء الأجل ، وطفح البيت الثالث بهذه النظرة الأليمة التي ترسلها الشمس وهي مريضة إلى الكون في كثير من الأسف والتلهف ، ودل البيت الرابع على هذه المشاركة الوجدانية بين الشمس المحتضرة وعيون الروض الباكية عليها ، وكشف البيت الأخير عن هذا الفراق بين الشمس والطبيعة ، تلك بشحوبها واصفرارها وهذه بحزنها ودموعها ، كأنما حبيبان صفيان في موقف من مواقف الوداع .

فالصورة كما نرى تضفي إلى فضـــاءات واسعة في التشكيل الصوري للقصيدة ، وكأن الشاعر قد لون الصورة بلون واحد ، هو لون السواد الحزين ، مما جعلها تحمل مسحة قاتمة بفعل الفضاء الذي منحته الاستعارة بسبب تعالق وتلاقح التشبيهات الحسية ، وقد أجاد الشاعر في إجراء هذا التشكيل ، لإيصال المعنى إلى المتلقي ، وجعل التشخيصات متداخلة ومتفاعلة مع بعضها في إنتاج هذه الصورة المبتكرة ، كما كان للتراكيب اللغوية دورها في هذا البناء التشكيلي ، مما يدل على قدرة الشاعر التصويرية الرائعة ، في رسم هذه اللوحة ، التي جاءت تمثل صدى صادقاً لمشاعر الخوف والتوجس التي تكنها نفسه المضطربة .

وتستمر صور الشاعر المستحضرة من خزين الذاكرة بالأنثيال ، لتوقظ الأيام الليالي ما في نفسه من ذلك الهاجس ، ولتؤكد فعل الزمن الذي بات يخشاه :

إنّ اللّيالـي والأيـّام قـد كَشَـفـتْ منْ كيْـدهـا كُلّ مسْـتور ومـكنون

وَخَبّرتـنا بإنّـا مِـنْ فرائِسـهـا نواطـقاً بفصـيح غير ملحون (٥٢٣)

فالشاعر هنا ، يشخص الليالي والأيام على هيئة حيوانات مفترسة ، وإن لم يصرح بها ، لكنها بائنة من خلال السياق ، فهي تتحين الفرص للقضاء عليه ، بعد أن كشفت عن مطامعها المعلنة والخفية للنيل منه .

وللأيام صورة أخرى حاول الشاعر من خلالها بيان معاناته منها قائلاً :

تحكّـمتَ الأيـّامُ فـي ذاتِ بيْـننا فقَـلْلنّ منه بالفِـــراق نصيبي(٥٢٤)

---

(٥٢٣) الديوان : ٦/ ٢٤٦٣ .

فالشاعر في هذا البيت يشبه الأيام بالإنسان الذي يمتلك ناصية الحكم والقرار، إلا أنه حذف المستعار وبقي على هذه الصفة من صفاته ، ليترك أمام الذهن مهمة تحديد وجه الشبه بين المستعار والمستعار له ، ليخبرنا بأن حظه من رؤيته للحبيبة كان قليلاً، لأن الأيام التي جمعته بها سرعان ما حكمت عليه بالفراق والابتعاد عنها .

ويمضي بنا الشاعر في معرض استعاراته الزمنية ، ليضعنا هذه المرة أمام لوحة الشباب ، فيقول :

أمْسى الشّبَابُ رداءً عنكَ مُسْتَلَبَا وَلنْ يَدُوْمَ عَلى العصْرَيْن مَا أعْتقبَا (٥٢٥)

فالصورة الاستعارية في هذا البيت ، تتجلى في قوله (رداءً عنك مستلبا) فقد استعار الشاعر الثوب وهو أمر حسي إلى الشباب وهو أمر معنوي ، ليقرب حقيقة أن الشباب للإنسان رداء يحميه من أهوال المرض ومتاعب الشيخوخة وسخرية الناس ، ولكن زينة هذا الشباب غير ثابتة ولا يدوم لها حال .

ويأتي الربيع ((ليضيف إلى معانيه محصولاً جديداً من الخبرات النفسية ، ومشاعر أعمق من مشاعرنا العادية))(٥٢٦) ليكون لديه بمثابة الأمل الذي بات ينتظره ، لذا فهو يرسمه بصورة جميلة ، بعد أن أضفى عليه إحدى الصفات الإنسانية وهي (الضحك) ، ليوحي إلى ابتداء الحياة للطبيعة من خلال تزينه لها بالنبات وانتشاره :

ضَحكَ الرّبيْعُ إلى بكا الدّيم وغدا يُسوّي النبت بالقِمم (٥٢٧)

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول : إن هذا الشعور هو الذي يسبق كل تشخيص لابن الرومي ، أو كل صورة مشخصة في شعره سواء تكلم عن يوم ، أو خليقة أو

---

(٥٢٤) م.ن : ٣٣٣/١ .

(٥٢٥) الديوان: ٣٣٦/١ .

(٥٢٦) الأدب وفنونه ، دراسة ونقد ، د . عز الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٣ / ١٢٠ .

(٥٢٧) الديوان : ٦/ ٢٣١٩ .

فترة من العمر أو معنى محسوس وغير محسوس [٥٢٨] ، لتكون الصورة الاستعارية بذلك منفذاً لخياله الخصب بعد أن تضيق عليه طرق القول ٠ فالشاعر عندما يحاول تحديد انفعـــالاته ومشـــاعره إزاء الأشياء ، يضطر إلى أن يكونها استعارياً [٥٢٩] .

ثالثاً : الكناية [٥٣٠]

لم يقتصر إبداع شاعرنا في استخدامه لفني التشبيه والاستعارة وحسب ، بل كانت الكناية جزءاً لا يتجزأ من ذلك الفن ، بما أضافته من مسحة جمالية زادت من رونق شعره وتألقه ، وذلك بإعطائها لإشارات رامزة بجانب الدلالة الإشارية التي تبعد التركيب اللغوي عن المباشرة [٥٣١] فضـــلاً عما تتركه من مبالغة لطيفة تضفي ((بها على المعنى حسناً وبهاءً هي في الإثبات دون المثبت ..... أو في عرض القضية وفي طيها برهانها))[٥٣٢] لما لها من تأثير ووقع في النفوس من حيث إبرازها أو إخراجها للمعاني مصورة بأحسن تصوير ، لائتلاف هذه المعاني مع الألفاظ فتأتي الصورة أكثر بلاغة . وأشد تأثيرا وذلك بحكم ما تقوم عليه الكناية وتستند إليه من كونها تصويراً قائماً على الظاهرة [٥٣٣] .

---

(٥٢٨) ينظر : ابن الرومي ، العقاد / ٣٠٦ .

(٥٢٩) ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي / ١٤٥ .

(٥٣٠) الكناية تعني : أن يكنى عن الشيء ويعرض به من دون تصريح ، ينظر ، الصناعتين ، للعسكري ، أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت٣٩٥ هـ) ، تح :علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ ، دار الفكر العربي (ب – ت) /٤٠٧ .

(٥٣١) في البلاغة العربية ، د . رجاء عيد ، دار غريب للطباعة ، القاهرة (ب- ت) /٢٥٢ .

(٥٣٢) علم البيان ، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية، بيروت ،١٩٨٥ / ٢٢٣ .

(٥٣٣) ينظر : الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، د . نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط ٢، ١٩٨٢ / ١٧ .

وقد أعتمد ابن الرومي في هذه الصورة ، على الإيحاء والتلميح ، وذلك لتنشيط الخيال وإثارة انتباه المتلقي ، فيكون أكثر تفاعلاً معه ، ومن ذلك قوله وهو يتذكر أيام شبابه :

وَكنْتُ إذا فوّقتُ للّشَخْص لمْـحَتي طوَتْ دُونـه سَهْباً مِنَ الأرْض سَرْبَـخَا
وكنتُ يُناديني المُنـادي بِعَـفْوِهِ فيَغْتالُ سمْعي دون مُدعاهُ فرْسَـخَا
فحَالتْ صُرُوفُ الدّهْر تنْسَـخ جدّتي وَمَـا أمْلـيَتْ منْ قبل إلاّ لتنسَـخَا
وأصْبـحْتُ عَمّاً للفـَتَاةِ مُوَقّـراً وَقد كنتُ أيـّام الشّـبَابِ لهَا أخَا (٥٣٤)

فالناظر إلى البيتين الأول والثاني ، يجد الشاعر قد ركز فيهما على حواسه ، ولا سيما حاستي البصر والسمع ليجعل منها كناية عن الشباب ، لأن المرء عندما يصل إلى مرحلة الشيخوخة تضعف لديه هاتان الحاستان ، فيكون بأمس الحاجة إلى دليل أو ترجمان ، أما قوله (فحالت صروف الدهر) فهنا أسند الفعل إلى غير فاعله الحقيقي معتمداً المجاز ، ليلفت نظر المتلقي إلى أن الدهر هو السبب إلى ما آلت إليه حالته من تدهور وكبر سن ، فجعله عماً للفتاة ، موظفاً هذا الاستخدام (عماً للفتاة) ليكنى عن كبر سنه بعد أن كان أخاً لها .

فهذه الكنايات المتتابعة تشكل مع بعضها صورة مكتملة ، تؤكد بوضوح المعاناة التي يحس بها الشاعر ، جرّاء تحول الزمن وتبدل أحواله .

وفي صورة كنائية أخرى يقترب ابن الرومي من هذا المعنى ، ولكن في سياق تصويري أجمل ، إذ يقول :

رُزئْتُ شـبابي عودةً بعد بـَـدْأة وَهـُنّ الـرّزايـا بـادئـاتٌ وعـُـوّدُ
سُلِبتُ سـوادَ العارضين ، وقبـــله بـيـاضـهـمـا المحمود إذ أنـا أمْرَدُ
وبُدّلتُ من ذاك الـبيـاض وحـسنهِ بيـاضـاً ذمـيـمـاً لا يـزال يُسَـوّدُ

---

(٥٣٤) الديوان : ٥٧٤/٢ . سربخا : السربخة تعني الأرض الواسعة المضلة

لشــتّان ما بيْـنَ البياضَيْن : مُعْـجبٌ أنيـق ، ومَـشْـنوءٌ إلى العين انكدُ (٥٣٥)

لعل أول ما يلفت النظر إلى هذه الأبيات ، هو ما شاع فيها من انتشار للظاهرة اللونية وتنقلها واختفائها في ملامح الشاعر ، الذي أرتبط اللون لديه بالزمن أرتباطاً وثيقاً حمل أبعاداً نفسية وفنية ، تفصح عن خيال خصب ، ومعاناة بائنة . فالألوان لا تتجمع لأسباب تزينية فقط ، بل إنهـا تأتي لتترجم الانفعالات والأحاسيس ، فتكشف بذلك عن جوانب أكثر ذاتية (٥٣٦) وابن الرومي كما يبدو كان شديد التأثر والاهتزاز للألوان (٥٣٧) فقوله (سلبت سواد العارضين) كناية عن الشباب ، الذي دلت عليه اللحى السوداء ، أما قوله (ذاك البياض) فهو كناية عن جماله وجمال وجهه ، لكن هذا الشباب المتمثل بسواد اللحى ونضارة الوجه سرعان ما تبدل لديه إلى (بياض ذميم لا يزال يسوّد) وهنا كناية عن الشيب والكبر .

وينقلنا الشاعر بعد هذه الصورة التي أخذت الألوان تتلاعب بها ، ليكون مع أهل زمانه واصفاً حالهم ، ومشفقاً على الراجحين منهم ، ليقول في كناية جميلة ، وبإيحاء عميق :

طَـارَ قَوْمٌ بـِخِـفّـةِ الـوَزن حَـتّى لحقـوا رفْـعَـة بِقَـابِ الـعُـقَـابِ

وَرَسَـا الـرّاجِـحُـوْنَ مـنْ جِـلّـةِ النـّا س رُسُـوّ الـجِـبَال ذاتِ الـهِـضَابِ (٥٣٨)

فابن الرومي ، كمـا نرى يقدم لنا فئتين من النــاس تجاوزت بينهما المسافات ، فأما الفئة الأولى فهم الذين أرتفعوا لخفة عقولهم حتى صاروا في المستوى الذي يحلق فيه طائر العقاب ، وهنا كناية عن ارتفاع السفهاء ، أما الفئة الثانية فهم إجلاء الناس الذين ثبتوا في مكانهم ، كما تثبت الجبال الشامخة ، وهذه كناية عن انخفاض ذوي الحصافة والعقول الراجحة .

---

(٥٣٥) م . ن : ٢/ ٥٨٥ .

(٥٣٦) حوار الرؤية ، ناثان توبلر ، ترجمة فخري خليل ، دار المأمون ، بغداد ،١٩٨٧ / ٩٩ .

(٥٣٧) ينظر : ثقافة الناقد الأدبي / ٢١١ .

(٥٣٨) الديوان : ٢٧٩/١ . العقاب : طائر .

والملاحظ في هذه الصورة ، أن الكناية جاءت من خلال التشبيه ، وهذا ما يعرف بالتزاوج الصوري [٥٣٩] وفيه تتضح الكناية من خلال التشبيه أو الاستعارة ، ويوضح إيليا الحاوي علاقة الكناية بالتشبيه بقوله ((الكناية هي المشبه به ، لأنها تفي بغرض التشبيه من الظاهرة الأولى القائمة في متنها ، بدلاً من أن تستعار وتنقل إليها من سواها))[٥٤٠] .

وبما أن التلويح يعد أسلوباً كنائياً ، فيه إشارة إلى المعنى المراد عن طريق المعنى القريب [٥٤١] فإن ابن الرومي حين يفتخر بأصله يترفع عن المعنى المباشر ، فيلجأ إلى الكناية علها تحدد له صفة تكون بمثابة الرد الحاسم على كل من كان ينكر عليه أصله ونسبه ، في زمن طالما شعر فيه بالوحشة والاغتراب ، ليقول :

أنـا ابـن ذوى الـتـيجان غيرَ مـدافع وهلْ يُدْفَع الصّبْح الأغر المشـهّر[٥٤٢]

فقوله (أنا ابن ذوي التيجان) كناية عن سيادته وعلوّ منزلته ، وقد برز كذلك في هذا البيت التشبيه الذي جاء متوحداً مع الكناية ، عندما شبه نفسه وهو ابن الأكابر بالصبح الذي لا يمكن لظلمة الليل أن تحتل مكانه عندما يستقر في مقره ، مشكلاً بنية ذات قدرة تعبيرية تحمل في طياتها جمالاً فنياً ، وقدرة على التأثير فضلاً عن الجدة .

وعلى أساس تلمس ((حركة الزمن في ضوء ما مسقط من حالات شعورية ، وغير شعورية على مسار الفعل أو الحدث))[٥٤٣] فإن ابن الرومي يحطم الزمن

---

(٥٣٩) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة /٦٢ .

(٥٤٠) الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي ، إيليا الحاوي ، سلسلة الثقافة للجميع ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٨/١٩٨٠ .

(٥٤١) ينظر : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، د . مجيد عبد الحميد ناجي ، ط١ ، بيروت ، ٢٢٩/١٩٨٤ .

(٥٤٢) الديوان : ١٠٤٤/٣ .

(٥٤٣) تأثير الزمن في الوجدان وعلاقته بثنائية الحياة والموت (بحث) ، د . عبد الكريم راضي جعفر، مجلة الأديب المعاصر ، بغداد ، ع ٤٥، ٤٦/١٩٩٣- ٤٧ .

الميقاتي ، من خلال وعيه للزمن وعياً داخلياً ، ليرسم لنا صورة كنائية تتواءم مع حالته الوجدانية ، فيرى اليوم شهراً ، والشهر عام ، بعد أن غابت عنه الحبيبة ليكني بذلك عن ألم الفراق والبعد الذي يشعر به :

أظنّ اليومَ قدْ غابتْهُ شهراً وشهراً لا أراها فيه عاما(٥٤٤)

فهذه الصورة ، كما يبدو عليها الارتباط الوثيق بالحالة الانفعالية للشاعر ، والتي ترجمها على وفق ما يراه ، من إحساس عميق للزمن ، من هنا يمكن القول أن إبداع شاعرنا جاء مرتبطاً بالأفكار والصور التي توقظها العاطفة .

المبحث الثاني

العاطفة (٥٤٥)

إذا كان الخيال عنصراً أساسياً في بناء الصورة ، فإن العاطفة هي التي تعطي لهذه الصورة فعاليتها وحيويتها ، لأنها مرتبطة بتجربة الشاعر ، والتجربة عمادها الأحاسيس والمشاعر ، وما يتميز به المبدع من روح شفافةٍ تتأثر في المواقف وتنفعل لها (٥٤٦) لذا لا يختلف اثنان في أهمية العاطفة ودورها في الشعر فهي

---

(٥٤٤) الديوان : ٢٤١٠/٦ .

(٥٤٥) ونعني بالعاطفة : هي حالة تمتلك الإنسان وتأخذ عليه مشاعره ، وتستحوذ على مواهبه وملكاته ، وهي تتفاوت من إنسان لآخر قوة وضعفا ، بل إنها تتغير عند الفرد نفسه من آن لآن ، تبعاً للظروف والبيئة وهي صدى الحوادث والمرئيات التي يعيشها الإنسان ، وهي المقياس لمدى استجابته لذلك ، ينظر أصول النقد الأدبي / ١٨٠ وبعدها .

(٥٤٧) البناء الفني لشعر الحب العذري في العصر الأموي ، أطروحة (دكتوراه) ، سناء حميد البياتي ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ١٩٨٩/ ٢١٧ .

(٥٤٨) ينظر : رثاء الأبناء في الشعر العربي ، د . مخيمر صالح موسى ، مكتبة المنارة الزرقاء ، الأردن ، ط١ ، ١٩٨١/ ٥٨ .

التي تهذب أو تنظم أفكار الشاعر ، وتضفي عليها طابعاً خاصاً يحس القارئ بمذاقه الخاص[٥٤٧] وفي ذلك يقول ارشيبالد مكليش ((إن بناء المعاني في الشعر قد لا يكون فقط بناءً مشوشاً تنظمه العواطف ، بل قد يكون بناءً يتحدث عن أمور غير حقيقية ، ولكن العاطفة تجعله حقيقياً صادقاً)) [٥٤٨] والشاعر عند التصوير ((يندمج في الأشياء ويضفي عليها مشاعره ، وقد قيل في هذا المعنى : إن الفنان يلون الأشياء بدمه)) [٥٤٩] ووفق هذا التصور كانت العاطفة رفيقة الصورة ؛ لأن ((الصورة الشعرية هي رسم قوامه الكلمات المشحونة بالإحساس والعاطفة)) [٥٥٠] كما أنها لا تصير دالة على عبقرية أصيلة ، إلا بقدر ما تكون محكومةً بانفعال طاغ ، لذا فالصورة لا قيمة لها بدون العاطفة ، كما أن العاطفة لا أثر لها بدون الصورة ، ولهذا قيل: ((أن العاطفة بدون صورة عمياء ، والصورة بدون عاطفة فارغة)) [٥٥١] .

أما معيار هذه العاطفة فهو صدقها الخالص ؛ لأن صدق العاطفة ((هو الذي يجعل التجربة صادقة مؤثرة ، ويجعل الشاعر موفقاً في اختيار ألفاظه وقوافيه وتصويره)) [٥٥٢] دون أن يكون له أي أثر من شأنه أن يؤدي إلى النفور أو الشذوذ ، إنه الصدق الذي ينبعث من منطلق العمل الأدبي ، وبذلك يتميز الشاعر

---

(٥٤٩) الشعر والتجربة ، أرشيبالد مكليش ، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي ، بيروت ، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر ، ١٩٦٣ / ٤٥ .

(٥٥٠) الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية ، د . عز الدين إسماعيل ، دار العودة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨١ /١٢٧ .

(٥٥١) الصورة الشعرية /٢٣ .

(٥٥٢) النظرية الرومانتكية في الشعر (سيرة أدبية) كوليردج ، ترجمة د . عبد الحكيم حسان ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١/٢٥٦ .

(٥٥١) المجمل في فلسفة الفن ، بندتو كروتشه ، ترجمة سامي الدروبي ، دار الفكر ، ط١ ، ١٩٤٧ /٥٥ .

(٥٥٢) الموازنات الأدبية في تاريخ النقد الأدبي، رسالة (ماجستير) ، توفيق الفيل ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ /٣٣٥ .

المبدع عن غيره من النـــاس ، تقول اليزابيث درو: ((وإذا كان هناك من يستطيعون أن يوصلوا تجربة الشــعر إلى الآخــرين فيجب أن يكونــوا هم الشعراء أنفسهم)) [٥٥٣] .

والمتأمل في شعر ابن الرومي يجد نفسه إزاء شاعر مبدع له القدرة على تصوير ما يعتريه من مشاعر، تفيض بصدق المودة ، وتمازج العواطف ، وأداء معبر عن شفافية الروح . وكيف لا يزخر شعره بهذه المشاعر ؟ وهو كان ((إنسان لا يطيق الحياة إن لم تكن تعاطفاً بين إنسان وإنسان . مثله مثل أولئك الذين يعتقدون الوجود لا يتم ما لم يكن ثمة إنسانان يمنح كل منهما الآخر شعوره بالوجود ولا يشعر هو بهذا الوجود دون الآخر))[٥٥٤] ، لذا كانت مشاعر الحزن والأسى الناجمة عن ابتعاد الناس عنه ، دليلاً واضحاً على ما يضمره في نفسه المرهفة ، التي باتت تطلق لوعة الحنين ، حينما وجد أحد أصدقائه قد هجره وخذله ، ليقول معاتباً إياه على ما مضى بينهما من الزمن :

لا تنـفُسا عـبرة أجـودُ بـــــها ... فلسـتُ أبـْكـي بـهـا عـلى الدّمن

لـم يُخلق الدّمـــعُ لامـــرئ عبثاً ... اللهُ أدرى بـلـوعـــةِ الـحـــــزن

أسـاء بـي مـا أتيتَ من حسـن ... إلـيّ فيمـــا مـضـــى من الزمن

مـنعْتَنـي بـــعـدك الـعـزاء بـــه ... يـا لـيـتَ مـا كـان منك لم يكُن [٥٥٥]

فهذا النداء الممزوج بالتمني ، هو صوت الشاعر الساكن في أعماقه المستوحشة ، جاء ليرسم لنا صورة الحدث ، وليبين ألم المعاناة .

ولما كانت الصورة الشعرية تعبيراً عن نفسية الشاعر ، والاتجاه إلى دراستها يعني الاتجاه إلى روح الشعر [٥٥٦] فإن الصورة الرائعة التي قدمها شاعرنا في الأبيات الآتية ، لكفيلة بأن تنقلنا إلى واقعه النفسي مع ما يشعر به من ألم الوحدة ،

---

(٥٥٣) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه / ٣٤١ –٣٤٥ .

(٥٥٦) دراسات في الأدب العربي ، إنعام الجندي /٩٧-٩٨ .

(٥٥٥) الديوان : ٢٤٤١/٦ .

(٥٥٦) ينظر : الشعر والتجربة / ٥٤ - ٦٧ .

التي جعلته ينظر إلــى الأشيـاء نظرةً عاطفية ، فيتحدث معها بإحســاسه المحروم ((والعواطف والإحساسات التي تفيض بها نفس الشاعر يجب أن تجد الأجسام الموضوعية التي تعادلها))[٥٥٧] وهنا التجأ ابن الرومي إلى الطبيعة من خلال الحمامة اتجاهاً فنياً ، والتعبير عنها كرمز عن قضية زمنية ، لينفس عمّا يختلج في صدره ، وليثير فينا المشاعر ويجعلنا نشعر بحاله ومعاناته :

وقــفتْ بِـمطراب العشياتِ والضــحى فظِـلْتُ أسحّ الدّمعَ وهْـيَ تَرَنّمُ

حليفة شَجْو هاج ما بــي ومــا بها تـباريـحُ شـوق يـشْــتكيْه المُتيمُ

فباح به فُـوْهـا وأخْـفـتْهُ عيْنُها وباحـتْ بـهِ عـيْـنـي وكاتمه الفمُ [٥٥٨]

فالعذاب والنوح الذي تعلنه الحمامة في هذه الأبيات ، ما هو إلا المكافئ الخارجي أو المعادل الموضوعي [٥٥٩] لإحساسات الشاعر الداخلية ولحزنه وألمه ، فأصبحت بذلك صورة بديلة عن الشاعر، فكلاهما يحزن حزناً وشوقاً إلى الأليف المفقود ، وكلاهما في النهاية حادثة من حوادث الزمن .

والشاعر لا ينسى أحاسيسه ، فكما تنبه إليها في زمن وحدته ، تنبه إليها في زمن الهوى وعذابه ، فكانت المرأة التي حرم منها ، هي مبعث للهموم والحسرة ، والشاعر((لا يبكيك إلا إذا استنفد ماء شؤونه ، ولا يشجيك إلا إذا استطار الهوى بلبه ، والعامل الفذ للظفر بالسلطان العاطفي على القراء ، هو انبعاث الشعر والنثر من نفس منفعلة صادقة الشعور))[٥٦٠] وفي شعر ابن الرومي نلتمس الكثير من

---

(٥٥٧) مقالات في النقد الأدبي ، د . رشاد رشدي ، القاهرة ، ١٩٦٢ / ٦٣-٦٤ .

(٥٥٨) الديوان : ٢٢٧٧/٦ – ٢٢٧٨ .

(٥٥٩) المعادل الموضوعي : هو العثور على مجموعة أشياء ، على موقف ، على سلسلة من الأحداث ، تكون هي الصيغة التي توضح فيها العاطفة . ينظر ، المعادل الموضوعي مصطلحاً نقدياً ، (بحث) ، د . عناد غزوان ، مجلة الأقلام ، ع ٩ ، ٣٧/١٩٨٤ .

(٥٦٠) أصول النقد الأدبي / ١٨١ .

الصور المفعمة بالأحاسيس ، والمنبعثة من أعماق الذات ، جاءت لتنقل لنا ما يكابده الشاعر عند فقده زمن اللقاء بالحبيبة، والتي يرمز إليها بلغة التذكير:

قـلبي إليكَ . وإن أعرضتَ . مُنقاد لـيْستْ عليكَ . وإن أذنبتَ . أحقادُ
أنتَ الحياة فأنّى عنك منصرفي ؟ وإنْ بدا منك إقصاءٌ وإبْـعادُ
أحببتُ مذ علقتْ نفسي بحبّكم صوتاً يغنّي لقلبي فيه إقْصادُ
شوقي إليكَ عَلى الأيام يزدادُ والقلْب بعدكَ للأحزان معتادُ (٥٦١)

ولاشك أنك حينما تقرء هذه الأبيات ، لابد وأن هنالك شيئاً ما يشدك إليها ، فيجعلك تتعاطف مع الشاعر ، لأنه اختار مكوناتها مما ينسجم مع إحساس عاشق مخذول (أعرضت ، منقاد ، ليست عليك ، إقصاء ، إبعاد) والكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وهو ما عناه سيسل . دي لويس بقوله: ((إن الصورة الشعرية هي صورة حسية في الكلمات ، وإلى حد ما مجازية مع خط خفي من العاطفة الإنسانية في سياقها ، ولكنها مشحونة بإحساس أو عاطفة شعرية خاصة تنساب نحو القارئ)) (٥٦٢) .

ولأن((العاطفة الرزينة الهادئة تكون أبعد أثراً وأقوى إيحاءً ، لعمقها وأصالتها فتكون بذلك أبقى وأخلد))(٥٦٣) لذا كان شاعرنا مبدعاً ، وهو يرسم لنا لوحة عن إنسان مضى ، يسعى جاهداً أن يقرب إليه الأحباب من دون عناء ، ولكن هيهات فحسرة الرحيل لا تزال تقضّ مضجعه ، وهو يتنهد هذه التنهدات على أحباب ، كان يتفهم عونهم في زمن كان لـه بالمرصاد ، ليثير فينا عاطفة تجعلنا نثور مع الشاعر ونتساوق مع دموعه التي أعلنت الحداد :

الـمُوْتُ دَوْنَ تـفَـرّق الأحْـبـَـــــابِ وعـذابُ نـأيـهـمُ أشـدّ عـذابِ

---

(٥٦١) الديوان : ٦٩٧/٢ .

(٥٦٢) الصورة الشعرية /٢٦ .

(٥٦٣) أصول النقد الأدبي /١٩٣ .

لمْ تبلَ . مُذ خلقت . نفوسُ ذوى الهوَى يــوْمــاً بــمِــثْل تــرَحّــل وَذهَابِ
بَانوا بـلبـّـكَ رَائِـحيـْنَ وَخـــــــلـّفُـوا لكَ دمـْعـَة مـَوْصُـولة الـتّسكابِ (٥٦٤)

ولا يمكن لنا في جميع الأحوال أن نلوم ابن الرومي ، لأنه يعبر عن انفعال صادق يحاول انتزاعه من قلب مهموم ، ليشير إلى فداحة الخطب ، في زمن غاب عنه أعز الناس ، وهنا تكمن العاطفة في التعبير عن الأشياء بصدق خالص ، لنرى تصورات الشاعر ، والتي تختلف عن تصورات البشر ، وليعلمنا أن استدرار العواطف لا يأتي جزافاً ، وهو ينقل لنا معطيات الواقع اليائس بفقد الأبناء :

أطبـقـتُ لـلـنـوم جَفناً ليس ينطبقُ وبـتّ والــدّمـع فـي خـدّيّ يستبقُ
لـم يـسـتـرح مـن لـــــه عينٌ مؤرّقةٌ وكـيـف يـعرف طعم الراحة الأرقُ ؟
محمدٌ وعـلـيّ فـتـّتـا كـبـــــــــدي إذا ذكـرتـهـمـا والـــعيس تنطلقُ
خِـلان حـــلّ بـقـــــلبي من فِراقهما ما كـنـتُ أخْشى عليه قبل نفترقُ
قـلبٌ رقـــيـقٌ تـلـــــظتْ في جوانبه نـارُ الـــصبـــابة حتى كاد يحترقُ
ودِدْتُ لـو تـــمّ لـي حجّى بقربـــهما ما كل مـا تـشْـتـهيه الـنفسُ يتفقُ
لا يعجب الناس من وجدي ومن قلقي إن الـمـشـوقَ إلـى أحبابـه قلقُ (٥٦٥)

ومع أن هذه الأبيات تعبر عن صورة رائعة لمشاعر الأبوة المحرومة ، ولكن تبقى قصيدته التي قالها في رثاء ابنه (محمد) والتي بلغت واحداً وأربعين بيتاً من فرائد (٥٦٦) وعيون (٥٦٧) الشعر العربي ، لأنها تعبر عن الأحاسيس الجياشة والعواطف المتدفقة (٥٦٨) حتى يمكن القول : ((إنها تعد من أرق ما فاضت به

---

(٥٦٤) الديوان :٣٣٣/١ .

(٥٦٥) الديوان : ٤/ ١٦٩٤ ٠ العيس : الإبل البيض التي يخالط بياضها شيء من الشقرة .

(٥٦٦) ينظر : الفن ومذاهبه /٢٤٠ .

(٥٦٧) ينظر : ابن الرومي دراسة عامة ، جورج غريب ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٨ /٤٠ .

(٥٦٨) ينظر : تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان : ٤٦/٢ .

عواطف والد على ولد)) [٥٦٩] فأصبحت بهذا كالقطعة الموسيقية الحزينة يسمعها السامع ثم لا تزال ترن في أذنه بعض الأنغام يتكرر إلى زمن بعيد ، مما جعلها تضفي على شاعرنا صفة الإبداع ، فيقول :

بكاؤكما يشْفي وإن كان لا يُجْدى ... فجُودا فقد أودى نظيركما عندي
بُنَيّ الذي أهْدَتْهُ كَفّاي للثرى ... فيَا عزّة المُهْدى ويا حسْرة المهدي
ألا قاتل اللهُ المنايا ورَمْيَها ... من القوْم حبّات القلوب على عمْدِ
تَوَخّى حِمامُ الموت أوْسَط صبيْتي ... فللّه كيفَ اخْتار وَاسطة العقدِ
على حينَ شمْتُ الخيْرَ منْ لَمَحَاتِهِ ... وآنسْتُ منْ أفْعاله آية الرّشْدِ
طوَاهُ الرّدى عنّي فأضحى مَزَارُهُ ... بعيداً على قرْبٍ قريْباً على بُعْدِ
لقد أنْجَزَتْ فيْهِ المنايا وعيدَه ... وأخْلفت الآمالُ ما كان من وعْدِ[٥٧٠]

فالشاعر كما نرى ينوح ، وتنوح معه كلماته التي انتقاها بإبداع واضح ، بعد أن زينها بمشاعر الأسى والتوجع ، لتلائم هذا المعنى ؛ لأن ((لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى ، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهو فيه أجلى)) [٥٧١] لذا أثار فينا العواطف التي استطاعت من أن تؤسر قلوبنا ، فجعلتنا نتوحد مع حال الشاعر وعلى هذا ((فالشعور عنده هو الصورة أي أنها هي الشعور المستقر في الذاكرة ، الذي يرتبط في سرية بمشاعر أخرى))[٥٧٢] لتدل بالنهاية على قدرة شاعرية متمكنة استطاعت من أن تجسد المآسي ، وترسم المشاهد وفق نمط يجعلها ناطقة بالحدث ، ومستوفية لمعالم الصورة التي أراد أن ينقلها من عينه إلى عيوننا والعذاب من نفسه إلى نفوسنا ، ولاسيما في القادم من أبياته التي يقول فيها :

تَنَغّصَ قَبْلَ الرّيّ ماءُ حَياتِه ... وفُجّعَ منْه بالعُذوبة والبْردِ

---

(٥٦٩) ابن الرومي (مقال) بقلم خليل إبراهيم نعمة ، مجلة العربي ، ع٥٣ ، ١٩٩٣ / ١٠٤ .

(٥٧٠) الديوان : ٢/٦٢٤-٦٢٥ .

(٥٧١) الرسالة الشافعية (ضمن ثلاث رسائل في أعجاز القران) للجرجاني ، تح : محمد خلف الله ، و محمد زغلول سلام ، دار المعارف القاهرة ، (ب- ت) /١٠٧ .

(٥٧٢) الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية /١٣٥ .

ألـحّ علـيــه الـنـّزفُ حتـّى أحالهُ إلـى صفـْرة الـجاديّ عن حـمـْرةِ الوْردِ
وظـلّ عـلـى الأيـْدي تسَاقط نفـْسُه ويذوى كما يذوى القضيبُ من الـرّنـْدِ
فـيـا لك من نـفس تسَاقط أنـْفـُسا تـسـاقـط درّ مـن نـظام بلا عقدِ(٥٧٣)

فالشاعر يحملنا بأجنحة الشعور ويضعنا أمام الموت وجهاً لوجه ، فقد اختلطت ملامح الطفل ، وغشيها الاصفرار حتى طفق الأهل يتناقلونه من يد إلى أخرى وقاية له وتلهفاً عليه ، لكن روحه كانت تبارح الجسد خلجة إثر خلجة وتدوي طفولته ، كما يدوى قضيب الربيــع ، وأنفس المشــاهدين تتساقط وتحتضر لاحتضاره (٥٧٤) .

إنها صورة حية واقعية تنبئنا بمصاب الشاعر وعذابه ، في زمن تلك اللحظات التي يودع بها هذا الحبيب ، وكأن روحه تتسرب مع حواسه ، مع الجسد الذي يذبل رويداً رويداً أمامه ولا يقوى على أن يحرك ساكناً ، لأن ما يحدث فوق إرادته ، ولو كان يشعرأن وجوده نفسه ينتزى من جوانحه .

وعلى هذا الأساس ، لا نتفق مع الرأي القائل: ((أنّ من أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو إمرأة ، لضيق الكلام فيهما ، ولقلة الصفات)) (٥٧٥)؛ لأنه لم يصعب على ابن الرومي أن يرثي ابنه(محمد) ، لأن عاطفة الأبوة المحرومة هي التي حركته تجاه ابنه ، مثلما حركته عاطفة الفقد والحرمان تجاه أمه التي راح يبكيها بكاءً حاراً ، حيث عزّ عليه أن يعيش بعدها وهي قد رقدت تحت الثرى متمنياً لو أن الموت يرضى بالفداء لفداها ، ولكنه على يقين بأن الموت لا يكف عن فعل شيءٍ يريده ويطلبه ، فيعود ليعزي نفسه بأن سيبقى يبكي عليها بدموع لا تنفد ، وبقصائد يصب فيها جم حزنه وشوقه المتوقد:

أأمْـرحُ فـوق الأرض يـا أمّ والثـرى عـلـيك مـهـيـل قد تطابق وارتكم ؟

... ...

---

(٥٧٣) الديوان : ٦٢٥/٢ .

(٥٧٤) ابن الرومي فنه ونفسيته / ٢٥٠- ٢٥١ .

(٥٧٥) العمدة : ١٥٤/٢ .

عزيزٌ علينا أن تموتي وأننا نعيش ولكن حُكم الموتُ فاحتكم
ولوْ قَبِلَ الموتُ الفداء بذلتُهُ ولكنما يعتامُ رائدُهُ العِيم
أيا موتُ : ما أسلمتُها لك طائعاً هواك ، فما لي زفرتي زفرة الندم
سأبكي بنثر الدمع طوراً وتارة بنظم المراثي دائم الحزن والوكم (٥٧٦)

وتتوالى الهموم ، ويشتد الألم ، لدى شاعرنا ولاسيما برحيل الزوجة ، التي جعلته يخاطب عينيه بأن لا تصبا الدموع ، ليترك حرارة القلب مستكنة فإن ذلك أصدق في بيان الوفاء ، فهو لا يبتغي العيش بعدها ، حتى يدع الحزن يقتله ، وإذا كان البكاء قديماً ، دواء للأحزان ، فإن شاعرنا لا يطلبه ، لأن طلبه لمداواته ذريعة له إلى بقائه :

عَيْنيّ شُحّا وَلا تَسُحّا جلّ مُصَابي عن البُكاءِ
تَركُكُما الدّاءَ مُسْتكِنّاً أصْدقُ عنْ صِحّةِ الوَفَاءِ
إنّ الأسَى وَالبُكاء قِدْمَاً أمْرَان كَالدّاءِ وَالدّواءِ
وما أبْتغاءُ الدّواء إلا بُغْيا سبيل إلى البقاءِ
ومُبْتَغى العيش بعد خلّ كاذبُهُ خُلّة الصفاءِ(٥٧٧)

إنها عاطفة الرجل المحب الصادقة إلى من قد فارقوه ، فكان بذلك مأساة تتفجر على غير ذي هدى ، وجراح تنزف من دون أن يستطيع منعها ، وقلب يتفصد عاطفة مكلومة ، فنراه حيناً يندب حظه ، وحيناً يبكي نفسه ، وحيناً آخر يذم الزمن الذي لم يرحمه حتى في أهله وبنيه ، ليكون الشعر هو الملجأ الوحيد الذي يسكب فيه آلامه ، وينفس به عن أحزانه ((من هنا نفهم إلى أي حد يمكن أن يكون الفن تخففا))(٥٧٨) خاصة بعدما أصبحت ظاهرة الانفراج غير المتوقع في حالته مؤكدة ، لأن الحوار بينه وبين الآخر لم يعد ممكناً ، ولأن الصورة الواقعية لا تقتصر على الوصف الخارجي أو المدرك الخارجي لهذا الواقع ، وإنما ترتبط بالعالم الداخلي

---

(٥٧٦) الديوان : ٦/٢٣٠٨ ـ٢٣٠٩ . يعتام : يأخذ .الوكم : الحزن .

(٥٧٧) الديوان : ١/ ٧٩ ـ ٨٠ .

(٥٧٨) علم النفس والأدب ، سامي الدروبي ، دار المعارف ، ط٢ ، (ب . ت) /٢٦١ .

للشاعر ، فهو يتمثل الأشيـــاء وينفذ إلى أبعـــادها الداخلية ، ليثير مشـــاعرنا مرة أخرى ، وهو يصف نفسه المنكسرة التي باتت توزع الدموع هدايا للمشاركة الحزينة بين الأموات الذين مضوا ، والأحياء الذين فارقوه :

قدْ كنتُ أبْكي على منْ ماتَ منْ سلفي وأهلُ وُدّي جـــمـيـعٌ غيرُ أشتـاتِ
فاليوم . إذ فـرّقـتْ بـيْنيْ وبـيْنهـــــمُ نـوّى . بـكـيـت على أهـل المودات
ومـا حـياة امـرئ أضْـــــحتْ مَدَامعُهُ مقـسـُوْمة بيْنَ أحْياء وأمـْواتِ ؟ (٥٧٩)

ومجمل القول : إن الذي مضى ليس اقل شأناً من الدلالة على حقيقة التجربة التي كان الشاعر يعانيها ، وهو بين أهله وذويه ، وبما أن المعاني بدت للقارئ تقريرية ، إلا أنها تنطوي في الواقع على كثير من العمق في التعبير ، ويخيل إلينا أن العاطفة جاءت لتضعنا في دائرة الشاعر المتأرجحة بين الواقع والخيال ، بعد أن سمح لقصيدته أن تصل إلى قلوبنا من دون نصب ولا إعياء .

المبحث الثالث

الموسيقى الشعرية

للشعر وقع جميل في آذان سامعيه يتردد صداه كرنين الألحان الهادئة ، وتطرب له النفوس وترتاح لسماعه ، وما هذا الوقع الرنان في الحقيقة إلا بسبب ما تحمله الكلمات المنظومة من جرس خفي ينسجم مع ما تحمله جرس باقي الكلمات ، وبتوالي مقاطع هذه الكلمات وتردد بعضها عقب بعض تكوّن لنا ما يسمى موسيقى الشعر (٥٨٠) فالجانب الصوتي في الشعر عامل مهم ومؤثر في البنية العامة للقصيدة ، لأن الشعر لا يتطلب عاطفة وخيالاً وأسلوباً جميلاً فحسب ، بل يتطلب

---

(٥٧٩) الديوان : ٣٩٣/١ . النوى : البعد أو الأرتحال من مكان إلى آخر .

(٥٨٠) بنظر : موسيقى الشعر ، د . إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٤ ،١٩٧٢ / ٨ - ٩ .

فضلاً عن ذلك الموسيقى المؤثرة [٥٨١] والإيقـــاع بوصفه ((التناوب الزمني المنتظم للظواهر المتراكبة ، أو هو الخاصة المميزة للقول الشعري والمبدأ المنظم للغته))[٥٨٢] من خلال ما يبديه من انسجام وتآلف بين الأصوات بحيث تجري حروفها بسهوله على اللسان ، وتخلو من التنافر والثقل ، فتحقق بذلك الغرض أو الغاية التي يسعى إليها الشاعر ، وهي تحقيق التناغم الصوتي . لذا يمكن القول : إن الألفاظ هي الجوهر الأساس لهذه الموسيقى ، فعلى الشاعر المبدع إذن أن يختار لمعانيه ألفاظاً تناسبها . لأن لكل لفظ معنى يليق به [٥٨٣] ويكون في ذات الوقت ذا تأثير على أذن السامع .

وقد كان شاعرنا صاحب ثروة لغوية كبيرة يعرف دقائقها وأسرارها ويحسن اختيار الألفاظ والعبارات منها [٥٨٤] بما ينسجم مع معـــانيه التي كان حريصاً عليها [٥٨٥] يغوص على النادر منها فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورها [٥٨٦] ومن هنا كـانت كل ألفاظه تعبيراً كاملاً عن مشاعره وأفكاره ، التي أخذت تنساب بإيقاعات قريبة من نظرته للزمن وحركة نفسه .

وإذا ما افترضنا بأن لكل غرض شعري بحره وإيقاعاته التي تلائمه ، ((فإن دارس الزمن يجد إيقاعات مختلفة للشعر المكتوب في الزمن تخضع أساساً لغرض

---

(٥٨١) ينظر : اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، د . نافع محمود طه ، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ١٩٩٠ / ٢٤٠ .

(٥٨٢) النظرية البنائية في النقد الأدبي ، صلاح فضل ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط٣ ، بغداد ، ١٩٨٧ / ٧١ .

(٥٨٣) ينظر : عيـــار الشعر ، محمد بن أحمد بن طبا طبا العلوي ، تح : د . طه الحـاجري ومحمد زغلـول سلام ، المكتبة التـجارية الكـبرى ١٩٥٦/٥ ـ ٩ .

(٥٨٤) ينظر :الأدب العربي في العصر العباسي ، د . ناظم رشيد /١٣٨ .

(٥٨٥) ينظر : العمدة ٢٣٨/٢ .

(٥٨٦) ينظر : وفيات الأعيان ٢/ ٤٢ .

القصيدة الرئيس ، فالزمن ليس غرضاً شعرياً ،كما أنه ليس واحداً في أعين الشعراء ونفوسهم))[٥٨٧] .

وارتأينا من خلال هذا المبحث ، أن نقف على أحد الأساليب الإيقاعية المهمة ، والتي أخذت تمثل حيزاً كبيراً في أشعار الزمن لدى ابن الرومي ، وأصبحت بمثابة الظاهرة البارزة في شعره عموماً ، ألا وهي ظاهرة (التكرار) ، والتي أرجعها أحد الباحثين إلى طبيعة وسواسه ، لأن طبيعة الموسوس لا تنفر من التكرار [٥٨٨] أو ربما هي عائدة إلى رغبة الشاعر في إيصال صوته إلى الطرف الآخر ، لبيان ما يعانيه من الهموم ، وهذا ما جعله يكثر من ذلك التكرار ، والذي كان صورة من صور التجربة الشعرية المرتبطة بالانفعال الشعري عند شاعرنا .

التكرار

يعد التكرار من الظواهر الإيقاعية ، التي تسهم في إثراء النص الشعري بالتناغم الصوتي والتنسيق الأمثل بين الألفاظ والعبارات من خلال . تناوب هذه الألفاظ وأعادتها في السياق ، فتشكل بذلك موسيقا يتقصدها الناظم في شعره [٥٨٩] ومع هذه القيمة الإيقاعية ، له في ذات الوقت دلالة نفسية قيمة تفيد الناقد الذي يدرس الأثر ويحلل نفسية مبدعه [٥٩٠] ومن هذا المنطلق يغدو التكرار انعكاساً لدرجة إحساس الشاعر بالزمن وموقفه منه ، كما يعكس استجابة الشاعر لنزعة التفوق على منافسيه في مجال التصوير الإبداعي ، والكشف عن المعاني وتقليبها على وجوه وأبرازها بألفاظ بليغة والإغراب فيها [٥٩١] .

ويتضح ذلك من خلال ما سنؤشر له من تكرار الحرف واللفظة والعبارة أو التركيب .

---

(١) ينظر : الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام / ٢٨١ .

(٥٨٨) ينظر : ابن الرومي ، العقاد / ٣٣٤ .

(٥٨٩) ينظر : جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي ، د . ماهر مهدي هلال ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ٢٣٩ .

(٥٩٠) ينظر : العمدة ٢/ ٧٣ – ٨٠ ، وسر الفصاحة / ١١٣ -١٣٢ .

(٥٩١) ينظر : الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي / ١٣٢ - ١٣٣ .

تكرار الحرف

إنّ المتتبع لأنواع التكرار يجد أن تكـــرار الحرف يعد من أبرزهـــا ؛ لأن ((الأصوات التي تتكرر في حشو البيت مضافة إلى ما يتكرر في القافية ، تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم مختلفة الألوان))[٥٩٢] فضلاً عن ذلك ، أن تردد الحرف يعني ارتباط الحرف بصورة أو بأخرى في زمن لا وعي الشاعر [٥٩٣] ولعلي أجد تلك الجمالية في هذا التكرار واضحة في أبيات ابن الرومي الآتية ، والتي راح يشكو فيها من الدنيا ، بقوله :

لهْفي على الـدّنيا وهلْ لـهْفَـــةٌ ... تُنْصفُ مِـنْـهـا إنْ تـلـهّـــفتُهَا ؟
كمْ آهةٍ ليْ قــدْ تــأوّهْـــــــتـهـا ... فِيها ، ومــن أفٍ تـأفـفّـتـــــهَا
أغدُو وَلا حـَـالَ تـسنـّـمْـتـهـــــا ... فيْهَا ، وَلاَ حالَ تــردّفـتّـهـــــــا
أوْسعْتـُهَا صَبْراً عَلى لـُؤْمِـهـــا ... إذا تـقصّتهُ تـطَـرّفْـتـُهـــــــا
فيْعجـزُ الحـيلة مـنْـزورهـــــا ... إلا إذا مَا أنـَا لـطّـفتـهـــــا
قـبْحاً لـهَا ، قـُبْحاً ، على أنـهَا ... أقْبحُ شـيءٍ حِـينَ كَـشفـّتُـهـَا[٥٩٤]

فلغة الشاعر في هذا النص تكشف عن هيمنة واضحة لصوت (الهاء) والذي تكرر أربعاً وعشرين مرة ، ليشكل بروزاً واضحاً في أثر الدنيا وثقلها على الشاعر، وبصورته هذه استطاع أن يرسم لنا أثر الهموم وهي تتساقط عليه ، ليخلق لنا إيقاعاً داخلياً مرتبطاً بحالة الألم والحزن والترقب التي أصابته ، لاسيما إذا ما عرفنا أن هذا الصوت .لا ينطق إلا بدفع كمية كبيرة من الهواء ، فيحدث في قوة اندفاعه نوعاً من الحفيف [٥٩٥] وهو شبيه بالصوت الذي نسمعه من الإنسان المتعب المرهق ، لذا

---

(٥٩٢) موسيقى الشعر / ٤٥ .

(٥٩٣) ينظر : تطور الشعر العربي الحديث في العراق / ٣١٢ .

(٥٩٤) الديوان : ٣٦٠/١ .

(٥٩٥) ينظر : الأصوات اللغوية ، د . إبراهيم أنيس ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٥ ، ١٩٧٥ / ٨٨ .

نجد ابن الرومي قد وظف هذا الصوت لمعاناته ، ولبيان عذابه وضيق صدره . ولتأكيد ذلك . أقرأ كل بيت بنفس واحدة ، ولسوف ترى كم يضيق صدرك ، وكم تحتاج من الهواء لفسح ذلك الضيق كل ذلك يحدث للإنسان المهموم .

ومن اللافت للنظر في هذه الأبيات تكرار أحرف أخرى ، نراها قد أسهمت في مؤازرة حرف (الهاء) ، لتبين حالة الشاعر ، فقد تكرر حرف (اللام) عشرين مرة ، وحرف (التاء) اثنتين وعشرين مرة ، وحرف (الفاء) ست عشرة مرة ، فضلا عن صوت المد الذي أتفق مع ما تنتهي به قافية هذه الأبيات ، فتلتقي في هذه القافية المبدعة الموسيقى الداخلية بالموسيقى الخارجية في نغم متناسق ، تحقق فيه الانسجام مع أصوات الحسرة وزفرات الألم ، التي أضفى عليها هذا المد جرساً صوتياً خاصاً ، بدا واضحاً في تصريع الأبيات ، لذا نعتقد أن الشاعر ((لا يلجأ إلى مثل هذا الإبداع الموسيقي بتعمد وتصميم مسبق ، وإنما هو ينبثق من الفعل الشعري ذاته))[٥٩٦] الذي تتآزر فيه شتى الأصوات ، لتخلق إيقاعات متباينة تبعا لما احتجزه كل جزء من الدفقات الشعورية التي تستنفد شيئاً فشيئاً في وحدات النص دون تساو ، فالتنغيم الموسيقي يتساوق مع أنفاس الشاعر وانفعالاته [٥٩٧] وهذا ما نجده كذلك في قصيدة أخرى راح يترنم بها ، مكونة من ثمانية أبيات دعا بها إلى مبادرة اللذات قبل أزوف الزمن ، وانقضاء الأجل ، والتي يقول في مطلعها :

خذ نَصيْباً منْ عيشك المستعار قبل ليل مصرّف ونهار[٥٩٨]

فقد تكرر هنا حرف (الراء) في هذه القصيدة ثمانيَ وعشرين مرة مما يدل على حدوث نغم خاص حقق صفة الراء المميزة وهي . تكرار طرف اللسان للحنك

---

(٥٩٦) دير الملاك ، د . محسن أطميش ، منشورات وزارة الثقافة والأعلام ، دار الرشيد للنشر ، (ب- ط) ،١٩٨٢ /٣٤٥ .

(٢) البناء الشعري عند مسلم بن الوليد ، رسالة (ماجستير) ، عباس رشيد وهاب الدرة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ،١٩٩٢ /٢١٨ .

(٥٩٨) الديوان : ٣/ ١١٤٠ .

عند النطق بها [٥٩٩] وكذلك الاستمرارية [٦٠٠] فجاء مناسباً مع طبيعة المعنى الذي أراده ابن الرومي ، وكأنما الراء تفيد تكرار الكلام في النفس ، وبدا (اللام) أيضاً في القصيدة نفسها ، والذي تكرر سبعاً وثلاثين مرة على أنه صوت ساكن فمجيئه مع ألفاظ الزمان ، ليكون قريباً وواضحاً على السمع ، لأنه ((صوت متوسط بين الشدة والرخاوة ومجهور أيضاً))[٦٠١] ونغمة متكررة داخل الأبيات ولدت لدينا شعوراً بمراد الشاعر، والذي يعرض لنا طبيعة الصراع بين الذات والقدر .

وقد يحدث تكرار الحروف نغماً موسيقياً ينسجم مع الصورة التي يرسمها ابن الرومي للدهر ، كما في قوله :

يـا أيّـهـا الـهـاربُ مـنْ دهرِهِ أدْركك الـدّهـر عـلى خيْلـهِ [٦٠٢]

فإنّ مجيء ((حرف الهاء أربع مرات في الشطر الأول ، ومرتين في الشطر الثاني قد يكون عفوياً ، ولكنه يشكل جانباً من فن شاعرنا ، فوجود هذا الحرف يدل على موقف نفسي لهذا الإنسان الهارب ، ألا وهو التعب الشديد الناتج من الجري السريع أمام خيل الدهر))[٦٠٣] فجاء حرف الهاء ملائماً لطبيعة هذا الإنسان الهارب الذي يركض بسرعة من دهره ، ولهذا يمكن القول : إن شعر ابن الرومي يمتاز بالموسيقى التصويرية كالتي تصاحب الأفلام السينمائية [٦٠٤] .

---

(٥٩٩) ينظر : الأصوات اللغوية /٦٤ .

(٦٠٠) ينظر : خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد ، محمد مبارك ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العليا ،١٩٦٠ / ٢٣ .

(٦٠١) الأصوات اللغوية / ٦٤ .

(٦٠٢) الديوان :١٩٣١/٥ .

(٦٠٣) الهجاء عند ابن الرومي /٣٨٤ .

(٦٠٤) ينظر : م . ن / ٣٨٤ .

ويلجأ ابن الرومي في بعض الأحيان إلى (كم) الخبرية للإيحاء بمدى ما يختلج في صدره ، وما يضمره من نوازع إزاء الدهر ، انفلتت من قاموسه الشعري ، ليرددها عشرين مرة في عشرة أبيات متتالية ، وكأنه وجد من خلالها سبيلاً إلى ما يعتريه من الهموم ، ليقول :

ألا كمْ أذلّ الـــدّهر من متـــــــعزّز وكـمْ زمّ من أنـفٍ حميّ وكـــــمْ خطمْ
وكمْ ساور العقبانَ في اللؤم صـرْفهُ وكمْ غاوصَ الحـيتان في زاخر الحومْ
وكمْ ظلم الظّـلمان حقّ صَـحاحِها ومثل خصـــــيم الدّهْر أذعــن واظلّمْ
وكمْ غلبـــتْ غلبَ القيْـول هناتهُ ولمْ تقتـَبَـسْ منْ قبـل ذاك ولم تُرَمْ
وكمْ نهش الحيــات في هضـــباتها وكمْ فرس الأسد الخـــوادر في الأجمْ
وكمْ أدرك الوحش التـــي لجّ نفـرها يغوْرُ لها طـتـــــوْراً ويطّـلـعُ الأكمْ
وكمْ قعص الأبـــطال إمّا شـــجاعةً وإمّا بمـــقدار إذا اضـــــطرّهُ اقتحمْ
وكمْ صال بالأمـــلاك وسـط جنودها وأخنى على أهـل النّـبوّات والحِكمْ
وكمْ نعمةٍ أذوى ، وكم غبـطةٍ طوى وكمْ ســـندٍ أهوى ، وكمْ عروةٍ فصمْ
وكمْ هدّ من طـــودٍ مُنيف رعـــــانهُ وكمْ قضّ من قصرٍ مُنيفٍ وكمْ وكمْ (٦٠٥)

فتكرار الشاعر لـ(كم) على هذا النحو لا أظنه عجزاً في الخروج من دائرتها والتحلل من أسارها ، لفقدانه اللفظ أو المعنى البديل ، بقدر ما أراد الشاعر أن يوضح عن طريقها تمام معناه وغاية ما يكابده من الدهر وصروفه ، حتى ليبلغ الصراع في القصيدة ذروته عبر هذه الضربات العنيفة من (كم) الخبرية ، ليعرض لنا الشاعر شريطاً مصوراً للفاجعة بآثارها الحسية .

تكرار اللفظة :

---

(٦٠٥)الديوان :٦ / ٢٣٠٣ - ٢٣٠٤ .زمّ: بطش . خطم : الخطب الشديد . العقبان : جمع عقاب وهو طائر . غاوص : أي ضيق الأرض . ساور: ساور فلاناً اخذ برأسه . الحوم : وهي معظم البحر . القيول : القيل شرب نصف النهار . هناته : هتن أي انصب وهطل ، الأجم : الخدر . الأكم : موضع يكون أشد ارتفاعاً من حوله . قعص : يقال مات قعصاً أي ضرباً أو رمياً . أخنى : كل قول أو فعل قبيح .

تنبعث أهمية التكرار اللفظي ، من أنه ((يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ، يكشف عن اهتمام المتكلم بها ، وهو بهذا ذو دلالة نفسية)) [٦٠٦] ؛ لأنه يعمل على جذب انتباه القارئ إلى هذه اللفظة التي يود الشاعر أن يبينها في سياق شعره [٦٠٧] سواء أكانت هذه اللفظة اسماً أم كانت فعلاً ، كما في قول شاعرنا الذي كرر لفظة (الموت) ثلاث مرات في بيت واحد ، فضلاً عن الضمير الذي يعود علية في لفظة طعمه :

وفـقدُ الشَّباب الموتُ ، يوجـد طعْمُه صراحاً، وطعمُ الموتِ بالموتِ يفقدُ [٦٠٨]

فالتكرار بهذا المعنى شكل باعثاً نفسياً لحالة الشاعر، فهو يعد فقد الشباب موتاً ، الا أن له طعماً يفقد حينما يحل الموت الحقيقي ، ولعله أراد بذلك التكرار أن يبين مدى بغضه وحقده على الشيب الذي هو الموت الأول ، فحينما شاب رأسه وأبلى ثوب الشباب كـان سعيداً بأرتدائه ، نظر إلى الدنيا نظرة يملؤها اليأس والتشاؤم ؛ لأنه بعد أن أحس بمعاناة الشيب لم يتمكن من التخلص منها ، إلا بما هو أشد ، ألا وهي معاناة الموت الأبدي .

من هنا نتبين أن التكرار فضلاً عن تقوية النغم في هذا البيت ، قام بتعميق الحس النفسي للشاعر إزاء ما يشعر به من الانفعالات جعلته يشعر بأثر الزمن واضحاً في ذاته ، ولأن الدهر والزمان لهما الوقع الكبير في استخلاص العبر ، فإن ابن الرومي ما ينفك يطيل في ذكرها في عدة مواضع ، لخبرته العميقة بالزمن [٦٠٩]

---

(٦٠٦) قضـايا الشـعر المعاصـر ، نـازك الملائكـة ، منشـورات مكتبـة النهضـة ، بغـداد ، ط٢ ، ٢٤٢/١٩٦٥ .

(٦٠٧) ينظر : النقد التطبيقي والتحليلي ، د .عدنان خالد عبد الله ، سلسلة الكتب الشهرية (٢٤٠) ، بغداد ، ط١، ٢٤/١٩٨٦ .

(٦٠٨) الديوان : ٥٨٥/٢ .

(٦٠٩) ينظـر فـي الـديوان علـى سـبيل المثـال : ٣٠٥/١ (ب ٣٨)،٦٤١/٢ (ب١ ،٢)،٧٥٤(ب٤٥)، ٣ / ٩٥٤(ب١٩)، ١١٤٥ (ب٢ ،٣) ،١٢٢٧ (ب ١٤،١٠)،١٥٧١/٤ (ب١)،١٥٩٢ (ب ١)،٢٥٩٢/٦ (ب١٥ ،١٦ ،٢٢،٢١) .

لذا نراه يقدم لنا حكمة مفادها ، بأنا بذور وزروع للدهر ، بيده يحصدنا إذا حان القطاف :

ونحنُ بذوْر الدّهْر والدّهْرُ زارع ونحْن زروْع الدّهْر والدّهْرُ حاصدُ (٦١٠)

ولعلنا لا نبالغ حينما نقول : إن سر الروعة تكمن في هذا البيت ، لأن شاعرنا قد اختار له ألفاظاً متجانسة ، والتي حين تكرر تحدث إيقاعاً موسيقياً منسجماً يستلذ به المتلقي سواء أكان قارئاً أم كان مستمعاً فـ((للشعر نواح عدة للجمال ، أسرعها إلى نفوسنا ما فيه من جرس الألفاظ ، وانسجام في توالي مقاطع وتردد بعضها على قدر معين منها))(٦١١) والألفاظ التي تكررت هي (الدهر) أربع مرات ، (نحن) مرتين ، فضلاً عن (زارع ، زروع) فهذه الألفاظ تتكرر بانسيابية من دون تكلف لـ((أن ما يتوافر في نفس الأديب من فكرة واضحة ، أو انفعال صادق يجذب إليه من الألفاظ والعبارات والصور، ما يلائمه بطريقة تكاد تكون آلية لا تكلف فيها ولا صنعة)) (٦١٢) فتؤدي بذلك الغرض الذي أراده الشاعر من خلالها .

وربما قام ابن الرومي بتجسيد مثل هذا الإحساس ، من خلال تكراره لمفردة الشيب ، فإلحاح الشاعر عليها ، كشف عن أعماقه الذاتية وطبيعة تجربته :

أجزعني حادثُ المشيب وإن كنت جليداً مستحصِد المِرر
حُق لذي الشيب أن يُعفّره لا بل كفاه بالشيب من عفر
ما الشيب شيباً فإن سألت به فالشيب شوْب الحياة بالكدر
هلا يُسليك عن شبيبتك الشيْـ ـب ومنْعاه باقي العُمُر ؟
أول بدء المشيب واحدة تُشعل ما جاورتْ من الشعر (٦١٣)

فالشاعر هنا ، كرر لفظة الشيب ومشتقاتها عشر مرات ، وهذا ما ينم عن قوة المعاناة حتى أن المفردة شغلت ذهن الشاعر . وكأنه وجد في تناغم ألفاظه ورنين

---

(٦١٠) الديوان : ٨٠٠/٢ .

(٦١١) موسيقى الشعر /٨-٩ .

(٦١٢) الأسلوب ، الشايب /١٦٥ .

(٦١٣) الديوان : ١٠٣٤/٣ .

أجراسه وتقاطع حروفه [٦١٤] متنفساً لتلك الهموم التي كتمت عليه أنفاسه من خلال هذا التكرار ، بحيث بدا لنا النص كله وقد شغلته هذه اللفظة ، مما جعل حالة المعاناة واضحة .

والمتأمل لبواعث التكرار يجدها تنبعث من حالات الشوق الشديد ، أو في حالات التهديد والوعيد والتحقير [٦١٥] ولعل هذا ما يسوغ لنا تكرار ابن الرومي في حالات حزنه ، وخاصة في غرض الرثاء ، بحيث لو تناولنا أية قصيدة من قصائده لنجدها لا تخلو من التكرار ، وذلك لمكان الفجيعة من النفس ، وشاهدنا قصيدته التي قالها في رثاء خاله [٦١٦] فقد كرر الشاعر (الليل والموت) ثماني مرات و(اليوم ، الدهر) ست مرات ، (النهار) أربع مرات ، فكان هذا التكرار بمثابة روابط إيقاعية عززت من تماسك أجزاء القصيدة مع بعضها ، وأضفت جواً حزيناً يتوافق مع الإيقاع الكئيب لنبضات الشاعر ، فضلاً عن أنه أعطى للقصيدة جوها الرئيس ، وبين لنا العاطفة التي أحس بها ابن الرومي .

وقد نجد الشـــاعر يعمد إلى تكـــرار أسم المرثي ، كما في رثـائه للجارية (بستان) ليجعله في أبياته لوناً عاطفياً ، يقوي الصورة التي عليها بنية القصيدة ونغماً بين الأبيات يضاف إلى الرابط النغمي الذي تحدثه القافية :

بستان: يا حســـــرتا علـى زهر فـيـك مـن الـلـهـو بـل على ثمر
بستان : لـهفـي لحسن وجهك والـ إحـسـان صـــارا مــعا إلى العفر
بستان : أضحـى الـفـؤاد فـي وله يـــا نـزهـة الـسـمع منه والبصر
بستان : ما مـنـك لامــرئ عوضٌ من الـبـســاتين لا ولا الـبـشر

---

(٦١٤) ينظر : جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي ، د . ماهر مهدي هلال /٢٥٨ .

(٦١٥) ينظر : لغة الشعر ، قراءة في الشعر العربي الحديث ، د . رجاء عيد ، مطبعة أطلس ، القاهرة ،١٩٥٨/٥٨ .

(٦١٦) الديوان : ٣/١١٣١-١١٣٤ .

بستـان : أسقـيـت من مدامعنا الدْ دمــع وأعـقـبت عـقبه المطر (٦١٧)

ولأن للتكرار في القصيدة ثوابت إيقاعية تبنى على تناسق العلاقات والحركة في السياق ، وهذه العلاقات والحركة تجري في الزمن بالتعاقب ، وتخلق حركة في تيار الزمن الثابت (٦١٨) من هنا تتجسد الدلالة الزمنية لتكرار (الفعل) الذي يعتمد على ((مـــا يحمله اللفظ من حركة أو صورة أو حدث يوحي بالتفـاعل والصراع ، إضافة إلى قابلية الأفعال للمزج بين الحدث والزمن في اللفظ ذاته))(٦١٩) ولتوضيح ذلك نأخذ أنموذجاً أحضره شاعرنا بكل حيوية ، ليجعل من مناخه الإيقاعي صورة مكررة تركز على الماضي المفعم بالذكريات وما تصحبه من هزة عاطفية إلى زمن الشباب ، حيث النضارة والقوة التي أصبحت عزيزة عليه ، ولاسيما بعدما تقلب به الزمن حيث الشيخوخة والكبر :

وكنْتُ إذا فـَوّقْتُ للشخص لمْحَتي طوَتْ دونـَهُ سَـهْباً مِنَ الأرْض سرْبَخَا
وكُـنْتُ يـُنَاديـْني المنَادى بعـــفْوهِ فيـَغتالُ سمْعي دَوْنَ مدْعاهُ فـرْســخَا
فـَحَالتْ صُرُوفُ الدّهر تنْسَـخ جدّتي وَمـَا أمْلـيتْ مِـنْ قـبْل إلا لتنســـخَا
وأصْبـحْتُ عَمّـاً للفـَتـــــاةِ مُوقـّراً وَقـدْ كـنـتُ أيـّامَ الشّبَابِ لـهَا أخَا (٦٢٠)

فتكرار الفعل الماضي هنا ، جاء مؤشراً على ذلك الزمن ، والذي أصبح لديه بمثابة لحناً للخلود ، يحمل همومه بضربات من الحنين والأنين الموجع .

ويبدو لنا أن التكرار عند ابن الرومي غالباً ما يرتبط بالزمن الماضي . بل يمكن القول : إنه من أكثر الشعراء تتبعاً لماضيه ، ومقابلة بين حالاته وتأملاً فيما تغير بين الشبيبة والكهولة ثم بين الكهولة والشيخوخة ، وذلك لفرط شعوره بالحياة ، راح يراقب مسراها في داخل نفسه ، كما يراقب أطوارها وتقلباتها في العالم الخارج

---

(٦١٧) الديوان : ٣/ ٩١٨ .

(٦١٨) ينظر : الزمن في شعر الرواد /٢٤٨ .

(٦١٩) لغة الشعر العراقي المعاصر ، عمران خضير الكبيسي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط١ ، ١٩٨٢/٥٦ .

(٦٢٠) الديوان : ٢/٥٧٤ .

عنه [٦٢١] ، أما الحاضر والمستقبل فأنهما يحملان إيقاع الوحدة والاغتراب والشعور بالخوف والانكسار ، وهذا ما نراه واضحاً في قوله الذي يطلب فيه العون من أحد الولاة :

فأغثني . أغاثك الله . إنّي في يدِ الدّهرْ مطلقٌ مأسورْ [٦٢٢]

ولتأكيد ما ذهبنا إليه نراه يكرر الفعل المضارع خمس مرات في بيتين [٦٢٣] بين فيهما حاله ، وهو يعاني قسوة الاغتراب (يجرح ، يأسّو ، يؤسّي ، يعوّض ، ينسّي) فيكون المستقبل عندها لا يشكل قيمة تذكر لغموضه ومجهوليته . ولهذا جاءت الأفعال لتبحث عن التكرار وتشير إلى دهشة المفاجأة عند المتلقي ، لإشباع التوقع في جميع مستوياته الإيقاعية الدلالية [٦٢٤] .

وقد نجد الشاعر في بعض الأحيان يلجأ إلى الممازجة في إيقاع الزمن من خلال تداخل الأفعال وتصوير الحاضر بالماضي ((فأجمل الإيقاع ذلك أن يكون خليطاً من عناصر متنافرة ، تتقابل بينها تبعاً لنسب معينة ، وهذه النسب تمت بطبيعتها إلى النظام المستحب مادياً منا)) [٦٢٥] ، كما في قوله :

خانَ الزّمان فأعْددتُ الكرام له فمنْ أعِدّ إذا ما خَانتْ العُددُ [٦٢٦]

تكرار العبارة أو التركيب

وهو من الأنواع التي عملت على بناء وتسلل وانسيابية القصيدة ؛ لأن ((كلما تشابهت البنية اللغوية ، فأنها تمثل بنية نفسية متشابهة منسجمة تهدف إلى

---

(٦٢١) ينظر : ديوان ابن الرومي ،الكيلاني ، مقدمه للعقاد /ي .

(٦٢٢) الديوان : ٩٣٤/٣ .

(٦٢٣)الديوان: ١١٦٨/٣ (ق ٩١٥ – ب ٢، ٣) .

(٦٢٤) ينظر : الزمان والمكان في شعر أبي فراس الحمداني /١٥٨ .

(٦٢٥) علم الجمال ، دني هو سيمان ، ترجمة طاهر الحسن ، منشورات عويدات ، بيروت ، وباريس ، ط٤ ، ١٩٨٣/٤٤-٤٥ .

(٦٢٦) الديوان : ٦٨٧/٢ .

تبليغ الرسالة عن طريق التكرار والإعادة)) [٦٢٧] ، كما أنه قد شكل إيقاعاً زمنياً عمل على زيادة النغم وتقويته فـ((كل تكرار مهما يكن نوعه يفيد في زيادة الجرس وتقويته ؛ لأن تكرار الكلمات يعني تكرار الأصوات المؤلفة منها ، وبذلك يحدث جواً نغمياً في النص))[٦٢٨] وهذا ما يتضح لنا في قول الشاعر الذي يتحسر فيه على أغلى حبيب قد فارقه ، ألا وهو زمن الشباب ، معزياً نفسه برجع الصوت ورنين الصدى من خلال عبارة (لهف نفسي) التي تكررت أربع مرات متتالية ، وكأنه قد أختصر مبتغاه من القصيدة بهذه العبارة التي استطاعت أن تكشف لنا عن مزاجه النفسي وشوقه المتوقد إلى أيامه الماضية :

لهف نفسي على الشباب الذي أضـ ـحى خلفي وذكره قدامي
لهف نفسي عليه أن صار حظي منه لهفاً يعضني إبهامي
لهف نفسي على الظباء اللّواتي عاقني عن قنيصها إحرامي
لهف نفسي على احتكامي على البيـ ـض وإذعانهنّ عند احتكامي [٦٢٩]

فهذا التكرار ربما جاء ((لأستنفاد طاقة الانفعال التي حفلت بها نفسه))[٦٣٠] والشيء ذاته نراه في نصه الشعري القادم ، الذي راح يشكو فيه من الدهر ، من خلال تكراره لصدر البيت أربع مرات ، حتى بدا كصرخة أرادها أن تصل إلى كل أرجاء الدنيا ، محملة بالمشاعر الكثيفة ، مشاعر إنسانية مفعمة بالمعاناة ، نتيجة ذلك الواقع المتردي الذي جعله مبهوتاً من تناقضاته ، والتي عبّر عنها وهو يئن ويتحسر ويتساءل كأنما يحاكي الاستمرار الوجودي الرتيب :

ويا عَجباً ، وَالدّهْرُ جمّ عجيبُه أيُسْكِرُ ماء حيْن لا تُسكِرُ الخمر ؟

---

(٦٢٧) تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص) ، د . محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط ١ ، ١٩٨٥/٣٩ .

(٦٢٨) البناء الفني لشعر الحب العذري /٧٧ .

(٦٢٩) الديوان : ٦/ ٢٣٦٨ – ٢٣٦٩ .

(٦٣٠) أسس النقد الأدبي عند العرب ، د .أحمد أحمد بدوي ، مكتبة النهضة ، مصر ،١٩٥٧ / ٤٣٤ .

ويا عَجباً ، وَالدّهْرُ جمّ عجيْبــه أيُنْبِتُ طلّ حيْن لا يُنبتُ القطر ؟
ويا عَجباً ، وَالدّهْرُ جمّ عـجيْبـه أيُقْمِرُ نـجـمٌ حـيْن لا يُقمِرُ البدر؟
ويا عَجباً ، وَالدّهْرُ جمّ عـجيْبــه أتُبْـهِرُ نارٌ حيْن لا يُبْهِرُ الفجر؟ (٦٣١)

وبذلك يكون التكرار، قد جسد لنا مشاعر ابن الرومي الخفية إزاء الزمن ، من خلال تلك الحركات الإيقاعية الممثلة بالأصوات والألفاظ ، التي توسل بها شاعرنا ، ليبث من خلالها محنته .

الخاتمة

بعد أن أنتهينا من تتبع تجليات الزمن في شعر ابن الرومي كما تكشفت لنا من خلال الدراسة ، يمكننا أن نسجل النتائج التي توصلنا إليها بالنقاط الآتية :

- موضوع الزمن من الموضوعات الغامضة والمعقدة ، لأن للزمان معناه المتداول المعروف ، ولكن حالما ينقله الإنسان إلى ما وراء ذلك ، يجد نفسه في متاهة ، بسب ما فيه من المباحث المتنوعة ، إلا أنه ومع ذلك تعددت مفاهيمه تبعاً لمجــالات تناوله فهناك الزمن الطبيعي أو الموضوعي ، والزمن النفسي أو الذاتي .
- من خلال تعرضنا إلى إشكالية الزمن في شعر ابن الرومي ، وجدنا الشاعر غالباً ما يضفي على الممدوح صفات الزمن الموضوعي ، لكونه يرى فيه القوة المساندة التي تمنحه الأمن والأمل في الحياة بعد شعوره بالضعف الخوف ، كما وجدنا الشاعر متفاعلاً مع ألفاظ الزمن الصريحة ، والتي جاءت في اتجاهين :

الأول : نراه متفائلا فيها كما في وقت الصباح والفجر والربيع .

---

(٦٣١) الديوان : ١١٢٢/٣ .

والثاني: متشائماً منها كما في وقت الغروب والليل حينما يشعر فيه بالوحدة والاغتراب ، وفصلي الصيف والشتاء .

- شكل الزمان والدهر باعث الخوف والرهبة على الشاعر إذ عده قوة مهيمنة خارقة ، وعزا إليه ما يصيب المرء من خير أو شر وصلاح أو فساد ، وهذه القوة متأتية من امتداده واستمراره ، وقد حذر من مغبة الاطمئنان إليه والثقة به ، لهذا كانت نظرته له تشاؤمية لاسيما بعد أن وجده متقلباً يرفع من قدر هذا ويحط من قدر ذاك .
- وجدنا الشاعر كثير التفجع على شبابه ، وذلك لفقده أياه ، بسبب إعتلال صحته وإسرافه في ملذاته ، فالشباب كان يمثل لديه الأداة التي تعينه على التمتع بالحيـاة ، بل كان يعد الشباب هو الحياة ، وفقدانه لـه يعني فقدانه لهذه الحياة ، فهو كان الشفيع الذي يقربه من قلوب الحسان ، والشيب والكبر يعد العائق الذي يبعده عنهن ، مما جعله يصور الشيب على أنه الموت والفناء .
- وقد أدركنا حاجة ابن الرومي إلى المعين والمساند وهو يبث بشكواه من الزمان والدهر ، كما كان للناس أثر كبير في الشاعر فيما أحدثوا له من معاناة ، بتعرضهم له بالأذى والغدر والمجانبة والابتعاد .
- وحينما توجه البحث إلى الرؤى الزمانية ، نلحظ أن ابن الرومي بدا يفقد التوافق بين ذاته وعالمه الخارجي ، ليكون الحاضر عنصراً مخيفاً له فيهرع إلى الماضي ويجد فيه ملاذاً مريحاً للتعويض عن راهنه الثقيل المفزع ، ولكنه على الرغم من فراره إليه يؤمن إيماناً لا يشوبه الشك في أن الماضي لا يعود وأن الأمل يبقى حلماً عقيماً ، أنه الاغتراب والذي يتأكد بفعل الزمن وما فرض عليه من حصار محكم ، من حيث الشعور بعدم الانتماء وفقدان الأحبة والشعور بالكبر والشيخوخة ، والذي أتخذ شكلاً آخر إذ كان لفساد الواقع المعاشي وتناقضاته أثرٌ في تمرد الشاعر على حاضره القاهر له والمهيمن عليه .
- نقل لنا الشاعر نظرته الخاصة إلى الوجود والمتمثلة بالتشاؤم والطيرة ، الذي ولد لديه من كثرة الفواجع المتوالية وإخفاقه في تحقيق ما كان يطمح إليه ، فانتابته الشكوك والأوهام ، حتى راح يتطير من كل ما يرمز إلى فناء الحياة وزوالها .

- مثلت المرأة لدى الشاعر أثراً وسلطاناً زمنياً من خلال إقبالها نحوه وصدودها تجاهه ، إذ أصبح الزمن الذي تشغله يمثل حالة الشاعر ، فهو يشعر بمكانته وبالانتماء إلى الوسط الاجتماعي في حالة الإقبال ، ويكون العكس عند الهجر والابتعاد .
- وجدنا الشاعر مشغوفاً بالحياة حريصاً عليها وعلى ملذاتها إلى درجة الإدمان ، فالحياة لدى ابن الرومي تمثل الزمن الذي ينبغي عليه أن يعيشه بأية طريقة كانت ، أما الموت فهو العائق الوحيد الذي يضيق عليه هذه الحياة ، و الهاجس الأكبر الذي كان يخشاه .
- ويمضي البحث بنا لنحط الركاب عند الدراسة الفنية ، وفيها وجدنا الشاعر يحشد بعض الصور من الخيال والعاطفة والموسيقى سبيلاً إلى ذلك ، فجاء بالتشبيه والاستعارة والكناية ، لما لهذه الأدوات البيانية من أهمية على التكثيف والإيحاء والتخييل ، فكانت منطلقاً في رسم الصور والوصول إلى الغاية بعناية فائقة مثلت حاجة الشاعر وعبرت عن حالته ، وقد تبينت حالة الشاعر أكثر من خلال العاطفة التي كانت محطة تواصل بيننا وبينه ، كما كان للموسيقى حضور متميز من خلال اللفظة والإيقاع المتمثلن بالتكرار الذي حضر بقوة ، ليؤكد مأساة الشاعر ومعاناته .

وبهذا يمكن القول : إن ابن الرومي مهما قدمنا عنه من دراسات وفي أي مستوى ، فإنه يبقى مجالاً لمزيد من الدراسة والتعمق ، لما تحويه هذه النفس الشاعرة من ألم ومعاناة .

د. رائد عكلة الدليمي

المصادر والمراجع

- **ابن الرومي** ، خليل شرف الدين ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- **ابن الرومي** ، خليل مردم بك ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨ .
- **ابن الرومي** ، محمد عبد الغني ، دار المعارف ، مصر ، ط٣ ، (ب- ت) .
- **ابن الرومي حياته من شعره** ، عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٧ ، ١٩٦٨ .
- **ابن الرومي دراسة عامة** ، جورج غريب ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٨، .
- **ابن الرومي الشاعر المغبون** ، جورج عبدو معتوق ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٥ .
- **ابن الرومي الشاعر الوجل** ، عبد الغني خماس ، مطبعة عصام ، بغداد ، ١٩٦٨ .

- **ابن الرومي فنه ونفسيته** ، إيليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، ط٢ ، ١٩٦٨ .
- **ابن الرومي في الصورة والوجود** ، د . علي شلق ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١، ١٩٨٢ .
- **اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري** ، د . نافع محمود طه ، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ١٩٩٠ .
- **اتجاهات الشعر العربي المعاصر** ، د . إحسان عباس ، سلسلة كتب عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٧٨ .
- **أدباء العرب في الأعصر العباسية ، حياتهم – آثارهم – نقد آثارهم** ، بطرس البستاني ، توزيع دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٩ .
- **الأدب العربي في العصر العباسي** ، د . ناظم رشيد ، مديرية دار الكتب والنشر والتوزيع ، الموصل ،١٩٨٩ .
- **الأدب وفنونه دراسة ونقد** ، د . عز الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط٨ ، ١٩٨٣ .
- **الأزمنة والأمكنة** ، للمرزوقي ، أبي أحمد محمد بن الحسن(٤٢١ هـ) ، مطبعة دائرة المعارف ، الهند حيدر آباد الدكن ، ط١ ، (ب–ت) .
- **أسرار البلاغة في علم البيان** ، للإمام عبد القاهر الجرجاني(٤٧١ هـ) ، علق حواشيها ، محمد رشيد رضا ، الناشر دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٨ .
- **الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية** ، مجيد عبد الحميد ناجي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٤ .
- **الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة** ، مصطفى سويف ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥١ .
- **الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة** ، فؤاد البهي السيد ، مطبعة دار التأليف بالمالية ، دار الفكر العربي ، مصر ، ط٢ ، ١٩٦٨ .
- **أسس النقد الأدبـــي عند العرب** ، أحمد أحمد بدوي ، مكتبة النهضة ، مصر ،١٩٥٧ .
- **الأسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية لإصول الأساليب الأدبية** ، أحمد الشايب ،

مكتبة النهضة المصرية ، ط ٧ ، ١٩٧٦ .

- **الإشارات الإلهية** ، لأبي حيان التوحيدي ، تح :عبد الرحمن بدوي ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- **الأصـــوات اللغوية** ، د . إبراهيم أنيس، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٥ ،١٩٧٥ .
- **أصول البيان العربي** ، د . محمد حسين علي الصغير ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ .
- **أصول علم النفس** ، د . أحمد عزت راجح ، المكتب المصري ، دار القلم ، بيروت ، ط٩ ،١٩٧٣ .
- **أصول النقد الأدبي** ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٨ ، ١٩٧٣ .
- **الأعلام** ، للزركلي ، دار القلم للملايين ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٥ .
- **الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي** ، عزيز السيد جاسم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٧ .
- **الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب** ، أحمد عودة الشقيرات ، دار عمار للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط١ ، ١٩٨٧ .
- **الأفكار والأسلوب** ، أ . ف . تشيتشرين ، ترجمة حياة شرارة ، بغداد (ب–ت) .
- **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي** ، أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين، بيروت ، ط٦ ، ١٩٧٨ .
- **الإنسان بين الجوهر والمظهر** ، أريك فروم ، ترجمة سعد زهران ، سلسلة كتب عالم المعرفة ، آب ،١٩٨٩ .
- **الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي** ، د . حسني عبد الجليل يوسف ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٨ .
- **الإيضاح في علوم البلاغة** ، للقزويني (ت٧٣٩ هـ) ، تح: لجنة من أساتذة اللغة العربية بالجامع الأزهر ، مطبعة السنة المحمدية (ب–ت) .
- **البلاغة فنونها وأفنانها** ، **فضل حسن عباس** ، دار الفرقان للنشر، والتوزيع ، عمان ، ط١ ، ١٩٨٧ .

- **التجربة الخلاقة** ، **البروفسير** ، س. م . بورا ، ترجمة سلافة حجاوي ، ط١ ، دار الحرية ، بغداد ،١٩٧٠ .
- **تاريخ الأدب العربي** ، حنا الفاخوري ، المكتبة المطبعة البوليسية ، بيروت ، لبنان (ب- ت) .
- **تاريخ الأدب العربي** ، كارل بروكلمان ، نقله إلى العربية ، عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، مصر ، ط٣ ، ١٩٧٤ .
- **تحليل الخطاب الشعري(إستراتيجية التناص)**، د . محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٥ .
- **التحليل النقدي والجمالي للأدب** ، د . عناد غزوان ، دار آفاق عربية ، بغداد ، ١٩٨٥ .
- **تطور الشعر العربي الحديث في العراق** ، علي عباس علوان ، منشورات وزارة الأعلام ، بغداد ، ١٩٧٥ .
- **التعريفات** ، للجرجاني ، أبي الحسن علي بن محمد بن علي (ت٨١٦هـ) ، الدار الوطنية للنشر ، ١٩٤٨ .
- **التغلب على التشاؤم** ، عبد اللطيف شرارة ، دار بيروت للطباعة (ب- ت) .
- **التفاؤل والتشاؤم** ، يوسف ميخائيل أسعد ، دار النهضة والنشر ، الفجالة ، مصر (ب- ت) .
- **التلقي والتأويل مقاربة نسقية** ، د . محمد مفتاح ، الدار البيضاء ، بيروت المركز الثقافي العربي، ط١ ، ١٩٩٤ .
- **ثقافة الناقد الأدبي** ، د . محمد النويهي ، مكتبة الخـــانجي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٧ .
- **جدلية الزمن** ، **غاستون باشلار** ، ترجمة خليل أحمد خليل ، ديوان مطبوعات الجامعة الجزائر، ط٢ ، ١٩٨٨ .
- **جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي** ، د . ماهر مهدي هلال ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ،١٩٨٠ .
- **الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة** ، صالح أبو إصبع ، بيروت ، المؤسسة العربية

للدراسات والنشر ، ط١ ، ١٩٨٩.
- **حصاد الهشيم** ، إبراهيم عبد القادر المازني ، دار الشعب ، القاهرة ،١٩٢٤ .
- **حماسة البحتري** ، تح : لويس شيخو ، دار الكتاب العربي ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٦٧
- **حوار الرؤية** ، ناثان توبلر ، ترجمة فخري خليل ، دار المأمون ، بغداد ، ١٩٨٧ .
- **الحياة والموت في الشعر الجاهلي** ، مصطفى بهجت عبد اللطيف جاوويك ، دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٧٧ .
- **خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد** ، محمد مبارك ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العليا ،١٩٦٠ .
- **خلاصة الفكر الأوربي (شوبنهور)** ، عبد الرحمن بدوي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، (ب –ت).
- **الخيال مفهوماته ووظائفه** ، عاطف جودة نصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- **دراسات في الأدب العربي** ، إنعام الجندي ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٧ .
- **دراسات في الشعر الجاهلي** ، د . نوري حمودي القيسي ، بغداد ، ١٩٧٢ .
- **دراسات في الشعر العربي المعاصر** ، د . شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط٧ ،١٩٥٩ .
- **دفاع عن شعراء** ، توفيق الفكيكي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٥ .
- **دير الملاك ، دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر** ، د . محسن اطميش ، دار الرشيد ، ١٩٨٢ .
- **ديوان ابن الرومي** ، أبي الحسن علي بن العباس بن جريج (ت ٢٨٣ هـ) ،تح : د . حسين نصار ، مطبعة دار الكتب الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج١، ١٩٧٣ ، ج٢ ، ١٩٧٤ ، ج٣ ، ١٩٧٦ ، ج٤ ،١٩٧٨ ،ج٥ ، ١٩٧٩ ، ج٦ ، ١٩٨١ .
- **ديوان ابن الرومي** ، اختيار وتصنيف ، كامل الكيلاني ، مطبعة توفيق الأدبية ، (ب–ت) .

- **ديوان أبي فراس الحمداني** ، شرح وتحقيق ، سامي الدهان ، بيروت ،١٩٤٤ .
- **ديوان حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره** ، تح : عادل سليمان جمال ، مطبعة المدني . القاهرة (ب– ت) ٠
- **ديوان الخنساء** ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، ط٨ ، ١٩٨١ .
- **رثاء الأبناء في الشعر العربي** ، د . مخيمر صالح موسى ، مكتب المنار الزرقاء ، الأردن ، ط١ ، ١٩٨١ .
- **الرسالة الشافعية (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القران)** للجرجاني ، تح : محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة (ب–ت) .
- **الرفض ومعانيه في شعر المتنبي** ، يوسف الحناشي ، دار العربية للكتاب، تونس ،١٩٨٤ .
- **الرمزية في الأدب** ، د . درويش الجندي ، مكتبة النهضة ، مصر ، ١٩٥٨ .
- **الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي** ، ايليا الحاوي ، سلسلة الثقافة للجميع دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٠ .
- **روح العصر دراسة نقدية في الشعر والمسرح والقصة** ، د . عز الدين إسماعيل ، دار الرائد العربي ، ط١، بيروت ، ١٩٧٢ .
- **الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم** ، د . حسام الدين الآلوسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٠ .
- **الزمان الوجودي** ، عبد الرحمن بدوي ، ط٣ ، دار الثقافة ، بيروت ،١٩٧٣ .
- **الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره** ، د . صلاح عبد الحافظ ، دار المعارف ،١٩٨٢ .
- **الزمن أبعاده وبنيته** ، عبد اللطيف الصديقي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ،١٩٩٥ .
- **الزمن التراجيدي في الرواية المعاصرة** ، سعد عبد العزيز ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- **الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام** ، عبد الآله الصائغ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ .

- **الزمن في الأدب** ، **هانز ميرهوف** ، ترجمة سعد رزوق ، مطبعة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- **الزمن في الرواية الليبية** ، فاطمة سالم الحاجي ، الدار الجماهرية للنشر والتوزيع ، ليبيا ، ط١ ، ٢٠٠٠ .
- **زهر الآداب وثمر الألباب** ، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت٤٥٣ هـ) ، ضبطه وشرحه ، د . زكي مبارك ، حققه وزاد في تفصيله وشرحه محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط٤ ، (ب – ت) .
- **سر الفصاحة** ، لأبي محمد عبد الله بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت٤٦٦ هـ) ، تح: علي فوده ، مطبعة محمد علي ، مصر ،١٩٦٩ .
- **سيكولوجية الإبداع في الفن الأدب** ، يوسف ميخائيل ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ،(ب–ط) ،١٩٨٤ .
- **شباب في الشيخوخة** ، أمين رويحه ، ط٢، منقحة ومزيدة ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ،١٩٧٢ .
- **شرح مشكل أبيات المتنبي** ، لابن سيدة أبو الحسن علي بن إسماعيل (٤٥٨هـ)، تح: محمد حسين آل ياسين ، بغداد ، ١٩٧٧ .
- **شعراء الدولتين الأموية والعباسية** ، د . حسين عطوان ، ط١ ، الناشر مكتبة المحتسب ، عمان ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- **الشعر بين الواقع والإبداع** ، صبيح ناجي قصاب ، دار الرشيد للنشر ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٩ .
- **الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي** ، د . علي جواد الطاهر ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦١ .
- **الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية** ، د . عز الدين إسماعيل ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨١ .
- **الشعر كيف نفهمه ونتذوقه** ، اليزابيث دور ، ترجمة محمد إبراهيم الشوش ، بيروت ، ١٩٦١ .

- **الشعر والتجربة** ، ارشيبالد مكليش ، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي ، دار اليقظة العربية ، بيروت ، ١٩٦٣ .
- **الشيب والشباب في الأدب العربي** ، محمد حسين علي الكتبي ، المكتبة الوطنية ، بغداد ، مطبعة الآداب ، النجف الأشراف ، ١٩٧٢ .
- **صبح الأعشى في صناعة الأنشا** ،أحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١ هـ)، تح : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٨٧ .
- **الصحاح ، للجوهري** ، أبو نصر إسماعيل بن حماد(٣٩٣ هـ) ، تح : أحمد عبد الغفور عطار ، مطبعة دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٨٧ .
- **صحيح مسلم** ، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القيشري النيسابوري (ت٢٦١ هـ) ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبوعات دار إحياء التراث العربي ، بيروت (ب – ت) .
- **الصورة الأدبية** ، د . مصطفى ناصف ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط٣ ،١٩٨٢ .
- **الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجاً وتطبيقاً** ، د . أحمد علي الدهان ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، ط١ ، ١٩٨٦ .
- **الصورة الشعرية ، سيسل . دي لويس** ، ترجمة أحمد نصيف الجنابي ، وصاحبيه مراجعة د . عناد غزوان ، دار الرشيد ،بغداد ، ١٩٨٢ .
- **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي** ، د . جابر عصفور ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ،(ب– ط) ،١٩٧٤ .
- **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي** ، د . نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط٢ ، ١٩٨٢ .
- **الصورة الفنية في المثل القرآني** ، د . محمد حسين علي الصغير ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨١ .
- **الصورة الفنية معياراً نقدياً** ، عبد الآله الصائغ ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط١، ١٩٩٠ .

- **العزلة والمجتمع** ، نيقولاي برديائيف ، ترجمة جابر عصفور ، مراجعة علي آدم ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط٢ ،١٩٨٦ .
- **العقد الفريد** ، ابن عبد ربه الاندلسي (٣٢٨ هـ) ، تح : محمد سعيد العريان ، طبعة دار الفكر (ب– ت) .
- **علم البيان** ، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ،١٩٨٥ .
- **علم الجمال** ، دني هوسيمان ، ترجمة ظاهر الحسن ، منشورات عويدات ، ط٤، ١٩٨٣ .
- **علم النفس في حياتنا اليومية** ، محمد عثمان نجاتي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ ، ١٩٧٥ .
- **علم النفس والأدب** ، سامي الدروبي ، دار المعرفة ، مصر ، ١٩٧١.
- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده** ، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٥٦ هـ)، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٢ .
- **عيار الشعر** ، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي(٣٢٢ هـ) ، تح : علي الحاجري ، ومحمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٥٦ .
- **الغزل عند العرب** ، ج . ك – فاديه ، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، مطبعة وزارة الثقافة ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٧٩ .
- **الفروق اللغوية** ، لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت ٣٩٥ هـ) ، تح : جسام الدين القدسي ، دار الكتب ، بيروت ، (ب – ط) ، (ب – ت) .
- **فصول في البلاغة** ، د . محمد بركات حمدي أبو علي ، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع ، عمان (ب– ط) ،١٩٨٣ .
- **فن الشعر** ، أرسطو طاليس ، مع ترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد ، تح : عبد الرحمن بدوي ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٢، ١٩٧٣ .
- **فن الهجاء** ، ايليا الحاوي ، منشورات دار الشرق الجديد ، بيروت ، ط١، ١٩٦٠ .
- **فن الهجاء وتطوره عند العرب** ، إيليا الحاوي ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٧ (ب–ت) .
- **الفن ومذاهبه في الشعر العربي** ، د . شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط٧،

١٩٤٣ .

- **فنون بلاغية** ، د . أحمد مطلوب ، دار بحوث العلمية للنشر والتوزيع ، الكويت ،١٩٧٥ .
- **فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين** ، د . مصطفى الشكعة ، مطبعة المعرفة ، ١٩٥٢ .
- **في البلاغة العربية** ، د . رجاء عيد ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، (ب–ت) .
- **في فلسفة الحضارة الإسلامية** ، د . عفت الشرقاوي ، بيروت ، ط٢ ، (ب– ت) .
- **في النقد الأدبي** ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ،١٩٦٢ .
- **قضايا الإنسان في الأدب العربي المعاصر** ، د . عز الدين إسماعيل ، دار الفكر ، ١٩٨٠ .
- **قضايا الشعر المعاصر** ، د .نازك الملائكة ، منشورات مكتبة النهضة ، بغداد ، ط٢ ، ١٩٦٥ .
- **قضية الزمن في الشعر العربي** ، الشباب والشيب ، د . فاطمة محجوب ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- **كتاب الصناعتين** ، لأبي الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت٣٩٥ هـ) ، تح : علي بن محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ ، دار الفكر العربي (ب– ت) .
- **كتاب الفهرست** ، أبو فرج محمد بن إسحاق بن يعقوب ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ) ، تح: رضا تجدد ابن علي بن زين العابدين ، طهران ،(ب – ط) ، ١٩٧٠ .
- **كوليردج** ، محمد مصطفى بدوي ، دار المعارف ، مصر ، (ب– ط)، (ب– ت) .
- **اللامنتمي** ، كولن ولسون ، ترجمة أنيس زكي حسن ، دار القلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٣ .
- **لسان العرب** ، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور المصري الأنصاري (ت ٧١١ هـ) ، تح : عبد الله علي الكبير وآخرين ، دار المعارف ، مصر ،(ب – ت) .
- **لغة الشعر العراقي المعاصر** ، د .عمران خضير الكبيسي ، بيروت ، ط١، ١٩٨٢ .

- **لغة الشعر قراءة في الشعر العربي الحديث** ، د . رجاء عيد ، مطبعة أطلس ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
- **المثال والتحول** ، جلال الخياط ، وزارة الأعلام ، بغداد ، ١٩٧٧ .
- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ، لأبي الفتح نصر الله ضياء الدين بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري ، (ت ٦٣٧ هـ) ، تح : أحمد الحوفي وبدوي طبانه ، مطبعة النهضة مصر ، ط١ ، ١٩٥٩ .
- **المجمل في فلسفة الفن** ، بندتو كروتشه ، ترجمة سامي الدروبي ، دار الفكر ، ط١ ، ١٩٤٧ .
- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء** ،لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦١ .
- **مشكلة الإنسان** ، د . زكريا إبراهيم ، مكتبة مصر ، ١٩٦٧ .
- **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص** ، تأليف عبد الرحيم بن أحمد العباسي (ت ٩٦٣ هـ) ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٤٧ .
- **معجم الشعراء** ، لأبي عبيد الله محمد بن عمران المزرباني (ت ٣٨٤ هـ) ، تح: عبد الستار أحمد فراج ، دار أحياء الكتب العربية ، عيسى البابي وشركاه ، ١٩٦٠ .
- **مفاهيم في الفلسفة والاجتماع** ، أحمد خورشيد ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩٠ .
- **مقالات في النقد الأدبي** ، رشاد رشدي ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- **مقاييس اللغة** ، لابن فارس أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا(٣٩٥ هـ) ، تح : عبد السلام محمد هارون ، مطبعة مصطفى البابي ، مصر ، ١٩٧٠ .
- **مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني** ، د . حسين عطوان ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢ .
- **ملحمة كلكامش** ، ترجمة طه باقر ، منشورات وزارة الثقافة والأعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ .

- **من تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول** (القرن الثاني) ، د. طه حسين ، دار العلم ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٨٢ .
- **من حديث الشعر والنثر** ، د . طه حسين ، دار المعارف مصر ، ط١٠ ، ١٩٣٦ .
- **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** ، لأبي الحسن حازم القرطاجني (ت٦٨٤ هـ) ، تح: محمد الحبيب بن الخوجه ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٦٦ .
- **موسوعة علم النفس والتحليل النفسي** ، عبد المنعم الحنفي ، مكتبة المدبولي ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- **الموسوعة الفلسفية** ، عبد الرحمن بدوي ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٤ .
- **موسيقى الشعر** ، د . إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٤ ، ١٩٧٢ .
- **ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية** ، أشترك في تأليفه مجموعة من المؤلفين الأجانب ، بإشراف ، ج . ب . جيلفورد ، أشترك في ترجمته مجموعة من الدكاترة العرب بإشراف ، د. يوسف مراد ، دار المعارف ، مصر ، ط٤ ، ١٩٧٥ .
- **النظرية البنائية في النقد الأدبي** ، د .صلاح فضل ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط٣ ، ١٩٨٧ .
- **النظرية الرومانتيكيه في الشعر (سيره أدبية)** كوليردج ، ترجمة عبد الحكيم حسان ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١ .
- **النقد الأدبي الحديث** ، د . محمد غنيمي هلال ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- **النقد التطبيقي والتحليلي** ، عدنان خالد عبدالله ، سلسلة الكتب الشهرية ، (٢٤٠) بغداد ، ط١ ، ١٩٨٦ .
- **النقد الجمالي وأثره في النقد العربي** ، روز غريب ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- **نقد الشعر في المنظور النفسي** د. ريكان إبراهيم ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٩ .
- **النقد والدراسة الأدبية** ، حلمي مرزوق ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- **الهجاء عند ابن الرومي** ، عبد الحميد جيده ، منشورات المكتب العالمي للطباعة

والنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- **الواقعية والإلتزام** ، نبيل سليمان ، سوريا ، ١٩٨٥ .
- **الوزراء وتحفة الأمراء من تاريخ الوزراء** ، لأبي حسن بن هلال الحسن الصابي (ت ٤٤٨ هـ) تح : عبد الستار أحمد فراج ، دار أحياء الكتب العربية ، يحيى البابي والحلبي وشركاه ، ١٩٥٨ .
- **وظيفة الأدب بين الإلتزام الفني والانفصام الجمالي** ، محمد النويهي ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
- **وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان** ، ابن خلكان (ت٦٨١هـ) تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار السعادة مصر ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ .

البحوث والمقالات

- **ابن الرومي (مقال)** ، خليل إبراهيم نعمة ، مجلة العربي ، ع ٥٣ ، ١٩٩٣ .
- **الاغتراب مفهوماً واصطلاحاً وواقعاً (بحث)** ، د . قيس نوري ، مجلة عالم الفكر ، م ١٠ ، ع ١ ، وهو عدد خاص بالاغتراب ، الكويت ، ١٩٧٩ .
- **الإنسان والزمن في الشعر الكلاسكي الحديث** (بحث) ، عبد الكريم الأشتر ، وأحمد عضله ، مجلة بحوث جامعة حلب ، سلسلة الآداب والعلوم ، ع٢٧ ، ١٩٩٥
- **تأثير الزمن في الوجدان وعلاقته بثنائية الحياة والموت** (بحث) د . عبد الكريم راضي جعفر ، مجلة الأديب المعاصر ، بغداد ، ع ٥٤ ، ١٩٩٣ .
- **الخبرة الوجدانية** (مقال) ، زكريا إبراهيم مجلة العربي ، نيسان ، ع ٥٤ ، ١٩٧١ .
- **الزمان في ملحمة كلكاملش** (بحث) د . عناد غزوان ، مجلة الموقف الثقافي ، ع ٣٤ ،٢٠٠١ .
- **الزمن الروائي** (بحث) د . إبراهيم الجنداري ، مجلة الموقف الثقافي ، ع ٣٧ ، ٢٠٠٢ .
- **الزمن في المذهب الوجودي عند مارتن هيدجر** (بحث) عبد الرحمن بدوي ، مجلة عالم الفكر ، وزارة الأعلام الكويتية ، م٨ ، ع ،١٩٧٧ .
- **الزمن وحركة الحياة** (مقال) ، باسل البستاني مجلة آفاق عربية ، سنة ١ ، ع ٤ ، كانون الأول ، ١٩٨٧ .

- **الشكوى في الشعر الجاهلي** (بحث) قحطان رشيد التميمي ، مجلة كلية الآداب ، بغداد ، ع ١٣ ، مطبعة المعارف ،١٩٧٠ .
- **اللحظة الشعرية و اللحظة الميتافيزقية** (مقال) غاستون باشلار ، ترجمة أدونيس ، مجلة المواقف ، ع٤ ، ١٩٨٢ .
-**المعادل الموضوعي مصطلحاً نقدياً** (بحث) ، د . عناد غزوان ،الأقلام ، ع٩ ،١٩٨٤ .
- **مفهوم الزمن الدرامي في الشعر العربي المعاصر** (بحث) ، محمود جابر عدس ، مجلة الأقلام العدد (٨-٩-١٠)، ١٩٩٦ .
- **مفهوم الزمن عند الطفل** (بحث) سيد محمد غنيم ، مجلة عالم الفكر المعاصر ، وزارة الأعلام الكويتية ، م ٨ ، ع ٨ ، ١٩٧٧ .
- **مفهوم الزمن في الأساطير والمأثورات الشعبية ، دراسة أنثولوجية** (بحث)، صفوت كمال ، مجلة عالم الفكر المعاصر، م٨ ،ع٢ ، وزارة الأعلام الكويتية ،١٩٧٧ .
- **مفهوم الزمن كصيغة للخلاص عند اليوت** (بحث) مجلة الأقلام ،ع ١٠ ، ١٩٧٣ .

الرسائل والأطاريح الجامعية

- **البناء الشعري عند مسلم بن الوليد** ، عباس رشيد وهاب الدرة ، (رسالة ماجستير) ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٢ .
- **البناء الفني لشعر الحب العذري في العصر الأموي** ، سناء حميد البياتي ، (أطروحة دكتوراه) كلية الآداب ، بغداد ، ١٩٨٩ .
- **الحكمة في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري** ، مظفر عبد الستار غانم (أطروحة دكتوراه) كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٢ .
- **الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي** ، حيدر لازم مطلك (أطروحة دكتوراه) كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩١ .
- **الزمان والمكان في شعر أبي فراس الحمداني** ، ناظم حمد خلف (رسالة ماجستير) ، كلية التربية ، جامعة الانبار ، ٢٠٠٢ .
- **الزمن في شعر ابن حمديس** ، ختام محمد حسين ، (رسالة ماجستير) ، كلية التربية

للبنات ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٢ .

- **الزمن في شعر الرواد (السياب ،البياتي ، نازك الملائكة ، بلند الحيدري)** سلام كاظم الأوسي (رسالة ماجستير)، كلية التربية ، جامعة بغداد ، ١٩٩٠ .
- **الشكوى في الشعر الأندلسي عصر الطوائف ، فاطمة مظلوم زكم ،** (رسالة ماجستير) ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد ، ١٩٩٩ .
- **الصورة المجازية في شعر المتنبي** ، جليل رشيد فالح (أطروحة دكتوراه)، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٥ .
- **ظاهرة الشكوى في شعر هذيل** ، بتول حمدي (رسالة ماجستير) كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٧ .
- **الموازنات الأدبية في تاريخ النقد الأدبي ، توفيق الفيل** ، (رسالة ماجستير) كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ .